



# مَظَاهِرُ الْحَضَارَةِ فِي

شِعْرِ ابْنِ الْمُعْتَزِّ الْعَبَّاسِيِّ

تأليف الدكتور

أحمد فهمي عيسى

كلية التربية بدمياط - جامعة المنصورة

### مكتبة نانسي دمياط

هاتف : ٤٠٨٥٥٣ - ٤٠٨٥٥٤ - ٢٢٢٢٦٩

فاكس : ٥٧/٤٠٣٧٥٥

محمول : ٠١٢٧٥١٠١٠٦ - ٠١٠١١٠٨٧١٩

البريد الإلكتروني :

www.nashahean@yahoo.com

اسم الكتاب : مظاهر الحضارة في شعر  
ابن المعتز العباسي

اسم المؤلف : د/أحمد فهمي عيسى

اسم الناشر : مكتبة نانسي دمياط.

اسم الطابع : مطبعة نانسي دمياط.

رقم الإيداع : ٢٠٠٥/٢١٢٢٠

الترقيم الدولي : 5-97-5867-977-I.S.B.N

مونتاج : رانيا - مني

طباعة : عماد

بشر : السيد حامد - محمد مرعي

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ





# الإهداء

إلى الواحة والراحة...

عزة

ورفيدة

ونسبية

حُبًا وأملًا وإبتسامة



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مَقَدِّمَةٌ

\* البحث في الحضارة دراسة شيقة وشاقة في آن واحد؛ وذلك لأنها تصور التاريخ بصورة حية وشاملة، وتحاول أن تبعث الماضي متكاملًا بقدر الإمكان. والحق أنه منذ أخذ بعض الباحثين على عاتقهم كتابة تاريخ لحضارة البشر، زال عن البحث التاريخي كثير من جفافه، وأصبحت الصورة التي تقدمها إلينا الكتب التاريخية قريبة من تصورنا وفهمنا، ففيها يتمثل الإنسان مكتمل الأوجه، إذ نتأمله صانعًا، أو زارعًا أو شاعرًا، أو كاتبًا وفنانًا، وصاحب عقيدة، وسياسيًا وحاكمًا.<sup>(١)</sup>

ومفهوم كلمة حضارة مفهوم تطور مع الزمن لاسيما في تاريخ الحياة العربية، والمفهوم الأصيل لكلمة الحضارة في اللغة العربية أنها: تعني حياة الحضر والإقامة الثابتة في المدن والقرى وعكسها ( البداوة ) وهي حياة التنقل في البادية.

وكان عبد الرحمن بن خلدون أول من تصدى لهذا التمييز على أساس الدراسة الواعية والتسجيل والتحليل العلمي، بل إن هذا العالم هو أول من عالج شئون الحضارة العربية بطريقة علمية تحليلية.<sup>(٢)</sup>

( ١ ) الإنسان والحضارة: د. فؤاد زكريا، ( ص: ١٢ ).

( ٢ ) انظر: مقدمة ابن خلدون، ( ص: ١٢٠ ).

على أنه إذا كان ابن خلدون قد بلور مفهوم الحضارة عند العرب على أنها ذلك النمط من الحياة المستقرة والذي يناقض البداوة، فتتسأ القري والأمصار، ويضيف على حياة أصحابه فنوناً منتظمة من العيش والعمل والاجتماع والعلم والصناعة وإدارة شئون الحياة والحكم وترتيب وسائل الدعة وأسباب الرفاهية، وإذا كان ابن خلدون بلور هذا المعنى التاريخي واعتبر الحضارة غاية العمران، فإن مفهوم الحضارة في عصرنا قد امتد إلى ألوان من المعنى هي أوسع مما رآه ابن خلدون في عصره، وفي بيئته العربية في انتقالها الاجتماعي والسياسي والثقافي والمدني من البادية إلى الحضر.

"ولئن كان بعض العرب القدامى قد استعملوا لفظ (مدني) بمعنى (اجتماعي) فإن مفهوما آخر ظهر واتصل بها، أصبح الآن يعرف "بالمدينة" بل إن ابن خلدون ذاته كان مابقاً أيضاً في هذا المجال اللفظي فاستعمل صيغة التمدن وكان يعنى بها (التحضر)".<sup>(١)</sup>

على أن تلك المفاهيم اللغوية إنما نشأت في بيئة عربية كانت حياة الحضر فيها تقابل حياة البادية، ولكن هذه الحالة من التقابل لا تكاد توجد بصورتها التقليدية إلا في جهات قليلة جداً خارج عالمنا العربي، ولذلك فإن لفظ الحضارة في مفهومه العالمي ومفهومه الحديث المعاصر بصفة خاصة قد أصبح أكثر اتساعاً مما يدل عليه في مفهومه اللغوي التقليدي. وإذا كان أصل الحضارة: الإقامة في الحضر، فإن المعاجم

(١) انشواء على الحضارة الإسلامية: أحمد السابح، (ص: ١٨).

اللغوية الحديثة، ترى أن الحضارة هي الرقي العلمي والفني، والأدبي، والاجتماعي والاقتصادي في الحضرة.<sup>(١)</sup>

"والحضارة باختصار شديد هي جملة المظاهر المعنوية التي يخلفها التاريخ والتي تبقى في المجتمع على مر الأيام دليلاً على القدرات الذهنية المميزة، وتعبيراً عن روح هذا المجتمع والشعب الذي يمثله. ولا شك أن المظاهر المعنوية تأخذ قوالب مادية مختلفة تتجسم فيها تلك المعنويات، وتشكل المظاهر المعنوية في صور مختلفة كالفنون والآداب والعلوم والمعارف، ومجموع ما ينتج عن ذلك كله من تسجيلات ومشاهد في الآثار والعمائر وأسلوب الحياة وآداب المعاش اليومي وتقاليد المجتمع في التقارب والتفاهم والتعايش".<sup>(٢)</sup>

ومن ذلك نستطيع أن ندرك العلاقة بين الحضارة civilization والمدنية civilization التي تعني "الوسائل والأدوات المادية التي يستعين بها الإنسان على تحقيق حضارته، وهي العديد من الأشياء والأدوات المادية التي تعين الإنسان على التقدم في مضمار الحضارة، وإذا كانت الحضارة هي الإبداع في مجالات الفنون والمعارف والعلوم، فالمدينة هي السبيل إلى تذليل الصعاب الحضارية والأدوات المادية التي تبلغ بها الحضارة مستوى الإبداع والتقدم. وكلما سيطرت الحضارة على وسائلها المادية أمكنها أن تحقق ألواناً من الفن والإبداع الذي تسجله الحضارة في جملة مظاهرها المعنوية الخلاقة. وقد تؤدي الماديات

(١) المعجم الوسيط، (٢ / ١٨١)، مجمع اللغة العربية.

(٢) أضواء على الحضارة الإسلامية، (ص: ١٨).

المختلفة إلى رفع مستوى التقدم الحضاري. وقد تؤدي إلى تخلفه وانحداره، والذكاء الإنساني في مجال استخدام الماديات هو الحكم في توجيه هذه الماديات، فلما أن تسير سيرًا حثيثًا نحو الإبداع والتألق والتقدم أو أن يهبط بها إلى مجال العبث والفساد والتدهور، ولما أن تسيطر القيم الروحية العالمية على هذا الذكاء فتحدد مساره بأهداف إنسانية عالية<sup>(١)</sup>.

"والفرق بين الجوانب المادية من الحضارة والجوانب المعنوية هي أن الجوانب المادية من الحضارة بضاعة مشتركة لا يختلف فيها قوم عن قوم إلا من حيث درجة إتقانها فلا يميز بينها إلا "ماركة مسجلة"، أما الجوانب المعنوية من الحضارة، فقد تتأثر بمؤثرات خارجية، ولكنها لا تتغير ولا تستبدل؛ لأنها لا تتعلق بوسائل الحياة بل بغاياتها ومثلها، تلك التي نسميها القيم، والقيم هي المعنى الذي يجده الإنسان لحياته، هي جوهر وجوده، فإذا تخطى عنها فقد تخطى عن وجوده. ومع ذلك فإن الوسائل لا يمكن أن تنفصل عن الغايات، بل يجب أن يكون بينهما ذلك الانسجام الذي يتحقق معه تكامل الشخصية في الفرد وتكامل الحضارة في الجماعة"<sup>(٢)</sup>.

(١) نعمه، (ص: ١٩).

(٢) الرؤية المقيدة، د. شكري عياد، (ص: ١٥).

فالتمييز الصحيح بين الجوانب المادية والجوانب الروحية من الحضارة لا ينفي أنهما يتكاملان تكامل الوسائل والغايات، فالتمييز الصحيح بين "العقل والقلب لا ينفي أن كليهما يتدخل في عمل الآخر".<sup>(١)</sup> "ولا شك أن كل حضارة متأخرة تفوق ما سبقها في تطور الحياة ووسائلها المادية، ومن العيب أن تطالب الحضارة السابقة بما وصلت إليه الحضارة اللاحقة، فالعنصر المادي في الحضارات ليس هو أساس التفاضل بينهما دائما وأبدا. وأما العنصر الأخلاقي الروحي فهو الذي تخلد به الحضارات وتؤدي به رسالتها من إسعاد الإنسانية وإبعادها من المخاوف والآلام. إن الغاية من الحضارة هي أن تقرب الإنسان إلى ذروة السعادة، وبهذا فالحضارات لا يقارن بينها بالمقياس المادي ولا بالكمية في الأعداد والمساحات، ولا بالترف المادي في المعيشة والمأكل والملبس، وإنما يقارن بينها بالآثار التي تتركها في تاريخ الإنسانية".<sup>(٢)</sup> وكلما كانت الحضارة عالية في رسالتها، إنسانية في نزعتها، خلقية في اتجاهاتها، وواقعية في مبادئها - كانت أخلد في التاريخ وأبقى على الزمن، وأجدر بالتكريم".<sup>(٣)</sup>

"ولئن كان الإسلام قد امتاز بأنه دين الحضارة الإنسانية فلين الواقع يبين للباحث والمفكر والدارس، أن الحضارة الإسلامية استمدت كل مقوماتها وعناصر وجودها وأسباب نمائها وازدهارها من الإسلام

(١) نفسه، (ص: ١٧).

(٢) من روائع حضارتنا: د مصطفى السباعي، (ص: ٥٠).

(٣) من روائع حضارتنا، (ص: ٤٥).



ذاته. فالإسلام كان ولا يزال دين الحضارة الإنسانية، بمعنى أنه كان منذ نزوله دين عبادة، ودين معاملة، وأنه أنشأ لوناً من الحضارة عرف باسمه وهو الحضارة الإسلامية.. لهذا نجد أن الممشرقيين مدفوعين بدوافع شتى قد ظلموا الحضارة الإسلامية، حينما أطلقوا عليها في مؤلفاتهم وكتاباتهم الحضارة العربية أو حضارة العرب، وهذا يدل على الجهل والتحليل؛ لأن حضارة عربية بدون الإسلام لم تقم<sup>(١)</sup>.

"والحضارة الإسلامية تنقسم بطابع الحيوية والشمول نتيجة لتفاعلها وامتزاجها بالحضارات السابقة عليها وتطويعها بما يتفق مع المبادئ الدينية، ويتمشى في نفس الوقت مع الأغراض الدنيوية في إطار إسلامي، مما جعلها في النهاية تتفرد بطابع حضاري متميز بين الحضارات المختلفة التي أخرجتها البشرية على مر العصور<sup>(٢)</sup>."

فلقد تميزت الحضارة الإسلامية بالتفهم العميق، والوعي البناء والإدراك السليم المتعلق للحضارات الأخرى. فقد وجد العرب أمامهم في فتوحاتهم حضارات قائمة راسخة الجذور، واضحة المعالم، فلم يحاولوا طمس هذه الحضارات أو مواجهتها بالعداء السافر أو التكمير أو فرض ما يحملون من صفات التميز على شعوب تلك الحضارات بقوة السلاح وغلبيتهم وسيطرتهم، ولكنهم عملوا على تفهم تلك الحضارات وأخذوا منها ما يناسب طبائعهم وثقافتهم، وما يشبع حاجاتهم. كما عملوا على مهادنة النظم القائمة والتميز بين الصالح منها فأخذوه وأبقوا

(١) أضواء على الحضارة، (ص: ٤٥).

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية: محمد محمد القباني، (ص: ٢).

عليه، أما الطالح فطرحوه جانباً وقضوا عليه، وعملوا على تنقية تلك الحضارات مما يشوبها وبعثها في صورة حية ومتجاوبة مع مظاهر الحضارة العربية الإسلامية. وكان امتزاج حضارتهم مع الحضارات الأخرى بعيداً عن نزعة العصبية أو الأنانية مما كَوَّنَ في النهاية الحضارة الإسلامية بطابعها الفريد المتميز، وجعلها مفاراً مضيئاً للعلوم، وشعلة وضاءة للمعرفة في العصور الوسطى.

☆☆☆☆☆☆☆☆

" إن بين الحضارة وبين الفرد تأثيراً متبادلاً: فصحيح أن بعض الأفراد قد أثروا في مجرى الحضارة تأثيراً كبيراً، غير أن هؤلاء الأفراد بدورهم متأثرون بالحضارة. ولولا أنها هيأت لهم الظروف الملائمة لما حققوا الأعمال الكبرى التي تنسب إليهم. فإذا نظرنا إلى المسألة من أحد وجهيها، قلنا: إن الحضارة تبدو وكأنها تسير في طريقها الخاص وإن المواقف الحضارية هي التي تتطور بذاتها، فلا يكون العامل الفردي سوى وسيلة للتعبير عن هذه المواقف، ولنقلها بعد تعديل طفيف عليها - خلال الزمان، ولكننا إذا نظرنا إليها من وجهها الآخر، قلنا: إن هذه المواقف الحضارية ذاتها ليست من صنع قوة تفرضها على الأفراد فرضاً، وإنما الحضارة تسير في طريقها بفعل مجموعات الأفراد، الذين يمكنهم أن يتحكموا فيها تحكماً تاماً، فللفرد إذن أثره الكبير في توجيه الحضارة، ولكن بشرط أن يتفهم الوجهة التي يتجه إليها التطور السليم للجماعة، وألا يجعل من سلوكه عقبة في طريق تقدم مجتمعه. وأما أن يستجيب هذا السلوك للحاجات الحقيقية لا الظاهرية الوقتية للمجتمع حتى يكون مؤثراً في الحضارة بحق.

إن تيار الحضارة يجرف الأفراد؛ لأنه أوسع منهم نطاقاً إلى حد بعيد، هذا صحيح، ولكن هذا التيار ذاته لم يكن ليسير لو لم يقد الفرد بدوره، يشارك في دفعه، ويتمشى معه، لا رغماً عنه، ولكن عن وعي، وعن إرادة، ورغبة في دفع التاريخ إلى الأمام".<sup>(١)</sup>

فالفرد مقوم أساسي من مقومات الحضارة، ولكن الحضارة بجانبها المادي والمعنوي تتدخل بشكل كبير في تشكيل البناء الإنساني للأفراد. فالإنسان الذي ربه الحضارة الفرعونية القديمة يختلف في نسقه القيمي عن إنسان احتضنته الحضارة الإغريقية القديمة، يختلف عن إنسان استلهم حضارته من القرآن والسنة، والأفراد من مجموعهم تتكون الأمم؛ ولذلك، "فقد لا يتفق لأمة أن تكتشف من المنافع ما اكتشفته أمة أخرى، ولا يطعن ذلك في مقدرة الأولى، ولا يحول بينها وبين أن تتخذ هذه المنافع نفسها حين تنهياً لها نفس الأسباب. وقد كان في شعر العرب ما ليس في شعر اليونان، كما كان في شعر اليونان ما ليس في شعر العرب".<sup>(٢)</sup>

فلكل أمة أدب خاص بها، ما دامت الأسباب الحضارية للأفراد تختلف من أمة لأخرى. "فالأدب تعبير عن روح الحضارة. فجمود الأدب عندنا في العصر التركي صورة لجمود الحياة، وانتعاش الأدب عند الغربيين منذ عصر النهضة صورة لنشاط الحياة".<sup>(٣)</sup> فالأشكال

(١) الإنسان والحضارة: د. فؤاد زكريا، (ص: ٣٦).

(٢) الرؤية المقيدة: د. شكري عياد، (ص: ١٣).

(٣) نفسه، (ص: ١٤).

الأدبية لا تنشأ لذاتها، ولا تروج لذاتها، ولكنها تنشأ وتروج لأنها تعبير عن تصور معين للحياة وتعالج مشكلات معينة لدى الجمهور".<sup>(١)</sup>

"فالأدب لون زاهٍ من ألوان الحضارة سواء أكان دينيًا أم دنيويًا وهو لون ذو سر خاف فيما يبدو، سر يجعله باقيا حتى بعد اندثار أو انحسار الحضارة التي ينتمي إليها، أو يجعله عامل بقاء لشعوب تبعد عنها فقدت كل عوامل البقاء".<sup>(٢)</sup>

"ويكفي غاية الأدب أنه ينمي موهبة الذوق وحاسة الجمال.. ويربي الشخصية القومية فتضع بصماتها بعد هذا على سائر ما يصدر عنها من وجوه النشاط الفني في المجالات الأخرى. وهذه هي ركائز الحضارة".<sup>(٣)</sup>

والأدب يعتمد أول ما يعتمد على اللغة التي هي ترجمان الحضارة التي نشأ فيها "فاللغة وجدان أصحابها بكل ما يحتاج به هذا الوجدان من مشاعر وآلام وآمال ورؤى.

وحيث تكون اللغة بعطائها الأدبي، فنا بذاتها، ونبعًا للفنون الأخرى بما تعطيه وبما توحيه، فإن الأدب يكون خيطًا في نسيج كل إنسان، كما أنه خيط مشغول ومحسوب في نسيج الشخصية القومية"<sup>(٤)</sup>

"وستظل رؤيا الفنان دائمًا مقيدة بطابع الحضارة التي ينتمي إليها، تتأثر بكل ما تتأثر به هذه الحضارة من عوامل، ولكنها تطمح

(١) نفسه، (ص: ١٨).

(٢) الأدب والحضارة: د. نعمات أحمد فؤاد، (ص: ٢٤).

(٣) نفسه، (ص: ١٤).

(٤) نفسه، (ص: ١٠).

لنستشرف المطلق، وتجذب الحضارة - لا حضارة قومه فحسب، بل حضارة البشرية جمعاء إلى رحابه".<sup>(١)</sup>

"إن الأديب يعلم أن شخصيته نتاج مجتمعه، وأن كل ما يتلقاه من أفكار ومشاعر هو من صنع هذا المجتمع، حتى فنه أيضاً صورة لمجتمعه. ولكن الفن يختلف عن غيره من ضروب النشاط البشرى في أنه لا يتوقف أبداً، ولا يسلم أبداً بما هو موجود، بل يحاول أن يقفز من الآتي إلى الدائم، ومن الجزئي إلى الكلي، أن يتجاوز حدود الزمان والمكان ليصل إلى المطلق. هذه هي رؤيا الكاتب الفنان. ورؤياه هي سر عذابه. وسر القداسة التي تحيط بهذا العذاب".<sup>(٢)</sup>

وكل ما حول الشاعر يتدخل في تشكيل صورته الشعرية، حتى وإن عاش في المطلق البعيد، فلن يحدثه إلا بلغة وصور عصره. "فالشعراء يهتزون إلى قرص الشمس كلما رأوا البطاح بيضاء برذاذ الثلج الذي يتناثر من زهرات الكريز الماسقة في أصباح الربيع، أو سمعوا في أمسيات الخريف حفيف الأوراق وهي تتساقط، أو كلما رأوا شاهد الأيام المؤلمة البشعة تنعكس أمام أعينهم على مرآة الحوادث عاماً بعد عام، أو كلما أخذتهم الرعدة حينما رأوا قطرة الندى ترتعش على الكلاؤ المزدان بآلاته".<sup>(٣)</sup>

(١) الرؤية المقيدة، (ص: ٧).

(٢) الرؤية المقيدة، (ص: ٣).

(٣) الأديب والحضارة، (ص: ١٥).

" فالأديب يتأثر بالحياة الخارجية السائدة في بيئته، القائمة في مجتمعه، وهو يستمد أدبه من حياة هذا المجتمع. وهنا تأتي العبارة المأخوذة عن " دي بونا " التي تقول: " إن الأدب تعبير عن الحياة "، وعندئذ نتساءل: ما معنى هذه الحقيقة التي يسلم بها الناس دون برهان؟ إذا كانت تعني أن الأدب في أي زمان من الأزمان مرآة تنقل أحوال المجتمع نقلاً " صادقاً " فإنها تكون باطلة. إنها حقيقة عادية وقديمة ومبهمه إذا كانت تعني فقط أن الأدب يصور بعض مظاهر الواقع الاجتماعي. وحتى القول إن الأدب مرآة تنقل الحياة أو تعبر عنها قول أكثر غموضاً. وإن الكاتب لا يملك إلا أن يعبر عن تجربته وفهمه العام للحياة... وأنها لقاعدة تقديرية خاصة أن نقول إن المؤلف ينبغي أن يعبر عن الحياة في زمنه تعبيراً كاملاً، وأن يكون "ممثلاً" لعصره ومجتمعه".<sup>(١)</sup>

ولا شك أن التطور الذي طرأ على المجتمع العربي بعد ظهور الإسلام كانت له أسبابه ودوافعه ويأتي على قمة هذه الأسباب: الدين الإسلامي وما صاحبه من قيم ومثل غيّرت وجه الحياة الإنسانية وغيّرت قبل ذلك الإنسان الذي يحرك هذه الحياة ويدفعها إلى الأمام، وليس من شك أيضاً في أن التغيير المادي الذي طرأ على المجتمع كان له دخل في بناء الحضارة، وأن العناصر الأجنبية تركت أثرها كذلك في بناء الحضارة سواء تمثلت هذه العناصر في أولئك الذين اعتنقوا الإسلام أو الذين لم يعتنقوه ولكن اختلط بهم العرب فأثر ذلك في الحياة العقلية

( ١ ) الأدب وفنونه: د. عز الدين إسماعيل، ( ص: ٤٣ ).

والأدبية، والاجتماعية هذا فضلا عن اتساع رقعة المملكة الإسلامية في عهدها الزاهر أيام بني العباس تحت راية واحدة ولغة واحدة ودين واحد وأدب حضاري تفوق على كل الآداب التي احتك بها في العهد القديم. \* كما تمثلت مظاهر الحضارة فيما خلف العرب من فن معماري عظيم تمثل في المساجد والقصور ودواوين الحكومة وإن نظرة فاحصة مدققة توازن بين العرب في بدواتهم وتدرجهم في مدارج الرقي حتى عصر بني العباس لتحس القارق الكبير والتغير الحضاري الذي طرأ على المجتمع.<sup>(١)</sup>

هذا التغير الحضاري لم يتناول الجوانب المادية وحدها بل تناول أيضا الجوانب المعنوية من علم، وفن، وأدب.

وقد تألفت بغداد في سماء الحضارة في العصر العباسي، وحين تتحضر المجتمعات يظهر فيها التناقض وتجمع أخلاطا من الناس فيهم المؤمن والملحد والغني والفقير والعالم والجاهل والزاهد والمأجن وهكذا كان شأن الحياة في العصر العباسي.

والحق أن الحضارة الإسلامية تدين بكل ما ارتبط بها من فكر وفن وشعر للعباسيين سواء بمقوماتها أو بطوايعها التي ركبت في بنيتها وانتلفت في نسيجها، بحيث إذا نطقنا ارتسمت في أذهاننا صورة تلك الحضارة بمشخصاتها وقسماتها المميزة. وهي حضارة نشأت من المزاج الرائعة بين التراث العربي والإسلامي والتراث الحضاري الإنساني، إذ قامت على سنن رشيدة من الإبقاء على الكيان العربي

(١) الأدب والحضارة: د. السيد نقي الدين، (ص: ٥)، دار نهضة مصر.

والروح العربية وإساعة كل ما لدى الأمم المستعربة من حضارات وثقافات متباينة، بحيث أصبح العرب ورثة الهند والفرس واليونان، والأمم السامية والأمة المصرية القديمة، وبحيث كونوا من هذا الإرث حضارتهم التي سيطرت حقبة طويلة على كل ما عداها من حضارات وسبقها في مختلف فروع الفكر والمعرفة والثقافة".<sup>(١)</sup>

☆☆☆☆☆☆☆☆

والباحث عندما يخصص ابن المعتز العباسي بالبحث عن مظاهر الحضارة في شعره يضع في اعتباره توفر الأسباب والروافد الحضارية العامة والخاصة التي أتاحت لابن المعتز، أكثر من غيره من شعراء عصره. مما جعل شعره وثيقة حضارية تصور الحضارة الإسلامية في القرن الثالث الهجري أصدق تعبيراً.

وطبيعي أن يضم البحث بابين، يمثل الباب الأول:

#### ( مظاهر الحضارة في شعر ابن المعتز العباسي )

والباب الثاني يمثل:

#### ( الاستخدامات الفنية لصورة الحضارة في شعر ابن المعتز )

وضم الباب الأول ثلاثة فصول، الفصل الأول يبحث في:

( حياة ابن المعتز وأثرها في شعره ).

أما الفصل الثاني فيتناول:

( مظاهر الحضارة المعنوية في شعر ابن المعتز )

( ١ ) فصول في الشعر ونقده: د. شوقي ضيف، ( ص: ٥٤ ).



من جوانب إيمانية وأخلاق وسلوك، وعلم وتسامح ديني وشورى ونصيحة ودعوة إلى العمل وغير ذلك.

والفصل الثالث يتناول:

( مظاهر الحضارة المادية في شعر ابن المعتز )

وتبين فيه الحركة العمرانية الفذة في هذا العصر. وكذلك خدمات الدولة والمهن والحرف والملبس والمأكل والأعياد والحفلات، ووسائل اللهو والترف والتجارة والزراعة. وجاء الباب الثاني أيضا في ثلاثة فصول.

يتناول الفصل الأول:

( أثر الحضارة في الموضوعات الشعرية )

وتبين فيه أن الإسلام أضاف قيما ومفاهيم جديدة، ظهرت في شعر الفخر والمديح والثناء والهجاء والشعر السياسي والحكمة. كما وضحت فيه أثر الروافد الأجنبية على الحضارة والذي ظهر في شعر الغزل والخمر وكيفية الاستمتاع بمظاهر الطبيعة الجديدة.

وتناول الفصل الثاني:

( أثر الحضارة في البناء الفني للقصيدة )

ووضحت فيه أثر الحضارة على شكل القصيدة ومقدمتها ووحدتها العضوية وخاتماتها وكذلك أثر الحضارة في الموسيقى الشعرية والأسلوب.

وتناول الفصل الثالث:

( أثر الحضارة في التصوير الفني في شعر ابن المعتز )

وتبين فيه كيف أن الحضارة أكتسبت الصورة الفنية روحاً جديدة وأضافت إليها ألواناً جديدة لم تكن معروفة من قبل، وتبين كيف وظف ابن المعتز المظاهر الحضارية الجديدة في تركيب صورته الفنية. وتبين أيضاً أثر الدين الإسلامي على الصورة الفنية في ربط الإنسان بالكون فجاءت الصورة أدق وأعمق من ذي قبل وكذلك في استخدام الصورة لمعجمه الشعري.

وختم البحث بخاتمة توضح النتائج التي توصل إليها الباحث ثم بقائمة المصادر والمراجع التي اعتمد عليها.

وفي النهاية إن أكن فيما ذهبت إليه موقفاً قباله التوفيق، وإن تكن الأخرى فلي أجز الاجتهاد وعلى الله ما وراء ذلك.

**دكتور / أحمد فهمي عيسى**

**كلية التربية بدمياط — جامعة المنصورة**

## الباب الأول

مظاهر الحضارة في شعرا بن المعتز

♦ الفصل الأول:

حياة ابن المعتز في بغداد وأثرها في شعره

♦ الفصل الثاني:

مظاهر الحضارة المعنوية في شعره

♦ الفصل الثالث:

مظاهر الحضارة المادية في شعره





قبل الحديث عن حياة ابن المعتز ينبغي أن نوضح البيئة السياسية للقرن الثالث الهجري الذي ولد فيه ابن المعتز حتى تكتمل الصورة وتتضح الرؤية.

فإذا أردنا أن نحيط بحالة الدولة السياسية في القرن الثالث الهجري فلعلنا لا نستطيع أن نعرض لذلك ببيان هو أوجز من الإمام بالمصير الذي صار إليه بعض أولئك الخلفاء.

\* فقد بدأ العصر بالحرب بين الأمين والمأمون وقتل الأول، واشتغل الأخير بمسائل التوحيد، وإثارة فتنة خلق القرآن مما أدى إلى اضطهاد بعض العلماء من أمثال أحمد بن حنبل.. وقد طال أمد تلك الفتنة حيث أذكى نارها المعتصم بوصية أخيه المأمون<sup>(١)</sup>، \* ثم تمادى فيها الواثق من بعده، ثم قتل المتوكل بعد ذلك وخلع ثلاثة وقتلوا بعد خلعهم، وهم: المستعين والمعتز والمهتدي، وقيل: إن من الآخرين قد مات مسموماً، والبقية الذين ماتوا على سرير الملك لم يخلُ عصر أحدهم من فتنة أو انتفاض أو غارة خارجية، ولم يكن حظ ولاية العهود والأمراء والوزراء بخير من حظ الخلفاء ولا مصير أكثرهم بأكثر من هذا المصير. فقل بين هؤلاء من نجا من الخلع والسجن والتعذيب واستصفاة الأموال\*<sup>(٢)</sup>

(١) لتاريخ الإسلامي: علي إبراهيم، (ص: ٤٦٦).

(٢) ابن الرومي: المعقاة (ص: ١١).

"ويظهر أن الخلافة العباسية بعد فقدانها تأييد العرب، تخطت في سياستها وتذبذبت، فلم تعد تثق بأية قوة من القوى الموالية لها، حتى قوة الموالي التي كان لها الفضل الأول في قيام الدولة العباسية، فقد خشيت أن تستبد بالأمر، فعملت على تشتيت وحدتها. فقد اعتمدت على الخرسانيين ثم ثقة الفرس بعمامة.

ودفع خوف العباسيين على الخلافة وتوجسهم للشر دائماً إلى التماس عصبية جديدة، قدر لها أن تلتهم ما بقي للخلافة من نفوذ، فقد ضيعت الخلافة العرب والفرس لتستعين بالترك، فاستبد الترك واغتالوا سلطانهم<sup>(١)</sup>، وأضحى الخلفاء لعبة في أيديهم، وصاروا مسلوبى الحرية والسلطة دون أدنى مقاومة.

"ومما زاد الطين بلة تنافس الخلفاء وتناحرهم مع أولياء العهود، واستعانة هؤلاء وأولئك بالأتراك حرساً عليهم وجواسيس لهم. حتى غدت بغداد أشبه بمعسكر كبير يصول الأتراك فيه ويجولون"<sup>(٢)</sup>.

"وأصبحت أمور الدولة في يد الأتراك وأصبحوا مصدر قلق واضطراب، فهم يكرهون الفرس والعرب، وهم أنفسهم ليسوا في وفاق بعضهم مع بعض، وهم لا ينقطعون عن المؤامرات والدماسيس، وتعصب كل فريق لقائد منهم، وهم كثيرون الطمع في الأموال لا

(١) العالم الإسلامي في العصر العباسي د. حسن أحمد محمود، د. أحمد إبراهيم الشريف (ص: ٣١١).

(٢) تاريخ الأدب العباسي: د. محمد عبد العزيز الموالى (ص: ٨ - ٩).

يشبعون، وعلى الجملة فقد أصبحت " دار السلام " وما حولها ليست بدار سلام <sup>(١)</sup>.

ونستطيع أن نجمل فنقول: إن الخلفاء كانوا دمية في يد الأتراك في معظم فترات القرن الثالث الهجري، يولونهم ثم يطالبونهم بالمال، ومن لم يلبّ قتلوه أو سجنوه، ثم يولون غيره، فلقد كان إفراطهم في حب المال هو الذي يحركهم ويخطط لخطوتهم.

" ولم يكن الأمر بالنسبة للخلفاء فقط في عهدهم، فقد كثر عزل الوزراء ومصادرتهم وحبسهم، واستتبع انحطاط شخصيات الوزراء أنفسهم، إذ لجأ كثيرون إلى الرشوة وبذل المال للوصول إلى منصب الوزارة، وبذلك تقلد الوزارة شخصيات كان همها الوصول إلى المنصب، ثم جمع المال لتعويض ما أنفقوا، وبذلك ضاعت هيبة الوزير وتناقصت قيمته شيئاً فشيئاً حتى لم يصبح آخر الأمر إلا مجرد كاتب للخليفة، وأصبحت حقيقة السلطان في يد القواد <sup>(٢)</sup>.

" وكان من نتيجة هذه السيطرة المتجبرة أن تدهورت الأمور في الدولة العباسية تدهوراً خطيراً في شتى مناحي الحياة وأطمع هذا الأمراء والولاة على الأقاليم، فظهرت حركات الاستقلالية في كثير من أجزاء الدولة، وتقلص النفوذ من بغداد إلى الأقاليم. وعندما انتعشت الخلافة مؤقتاً في عهد " المعتضد " (٢٧٩-٢٨٩هـ) عجزت عن

(١) شهر الإسلام. (١٠ / ١).

(٢) معالم الإسلام، (ص: ٣٢٩).

الاستمرار في هذه الصحوة المؤقتة. واستمرت القوضى في الاستفحال<sup>(١)</sup>.

"ولقد شهدت الدولة العباسية في القرن الثالث الهجري، حركات عديدة، ففي أوائل القرن تمرد بابك الخرمي وهدد تمرده الدولة العباسية خاصة بعد تحالفه مع البيزنطيين، وفي النصف الثاني من القرن نفسه انفجرت انتفاضة الزنج، وقامت حركة القرامطة الإسماعيلية. ولم تستطع الدولة أن تقضي على هذه الحركات بسهولة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى الوهن والتحلل الذي وصلت إليه هذه الدولة المترامية الأطراف"<sup>(٢)</sup>.

" فلم تكن الحياة السياسية إذن في بغداد خالية دائماً من الهموم والدماسيس والمآسي ولكن المجتمع الراقي كان يتناساها بسرعة في الترف والملاذ، وفي سباق الخيل وقذف الرمح.. كما يتناساها أيضا في المطاعم الراقية على ضفاف نهر دجلة. وبخلاف الأعياد والحفلات المسائية الراقصة، وكانت نخبة من الرجال ينظمون مجتمعات شعرية ومجالس فلسفية.. وكانوا يجتمعون أيضا على المألا لتلاوة القرآن وتفسيره.. وكانت الفنون والعلوم تشجع عن حكمة، وكان الجو يموج بالشعر وبالمتعة الكاملة في الفهم، وكانت حياة بغداد تتطوي على شيء من التسامي"<sup>(٣)</sup>.

(١) تاريخ الأدب العباسي، د. محمد عبد العزيز مولفي، (ص: ٩).

(٢) الخلافة العباسية في عصر القوضى العسكرية، د. فاروق عمر، (ص: ١٤٣).

(٣) الحضارة الإسلامية: جالك. من ويسلر، (١٤٣ - ١٤٤).



" أما جمهور العامة الخالي من الاهتمامات الفلسفية يعمل دائماً  
 بذكاء وبشاشة، فكان عامة الناس يؤدون عملهم على ظهور السفن،  
 وعلى الأطورة (الأرصفة)، وفي الأسواق وبين الوقت والوقت، كان  
 دولاب العمل اليومي يقطع في الشوارع بموكب عرس أو ختان، ولكن  
 الضوضاء كانت تتوقف مع أي إجراء للشرطة، وتعود الحياة اليومية  
 إلى مجراها الطبيعي".<sup>(١)</sup>  
 وعلى الجملة كان الشعب يحس بشيء من اللامبالاة لما يدور في  
 بيت الخلافة، فلم يعد تهزه الأحداث لكثرة ما تحدث.



(١) نفسه، (ص: ١٤٦).

وبين أحضان البيئة السياسية المضطربة، وبين ربوع سامراء، ذات الأرض الخصبة، والجو العليل، والهواء البليل، والماء الغدير والنسيم المعطر برائحة الورود والزهور، حيث الحدائق والبساتين، ولد عبد الله بن المعتز العباسي في أحد قصور المتوكل، أو بين قصر من قصور كثيرة ابتناها المعتصم والمتوكل توحى بنهضة عمرانية ضخمة تتألق في صفحات التاريخ.

ولكن هذا الوليد<sup>(١)</sup> لم يكن حسن الطالع، فما أن وضعت أمه إصبعها في فيه تتحسس خروج أسنانه حتى سُمع صوت الناعي، وتهز سامراء بأفطع حدث في تاريخ الدولة العباسية ألا وهو مصرع جده المتوكل الذي يعد الأمانة الأولى لانحلال الخلافة العباسية ووهنها، ثم يخلفه المنتصر المتأمر عليه، ولم يمد له في العمر فأعقبه المستعين الذي أخذ يتتبع المعتز وأخاه المؤيد فأبتاع جميع ما كان لهما من دور ومنازل وضياع، ثم أمر بحبسهما فحبسا في الجوسق أحد قصور

(١) ولد ابن المعتز في سامراء في أحد قصور جده المتوكل. - على الأكثر في سنة لم يتفق عليها، فابن خلكان يرجح أنه ولد في سنة ٢٤٧ هـ (وفيات الأعيان: ٢/٢٦٣) وفي النجوم الزاهرة: أنه ولد عام ٢٤٩ هـ، وفي رواية أخرى ذكرها الدكتور خفاجي في ابن المعتز وتراثه - تشير إلى أنه قد ولد سنة ٢٤٦ هـ. ويرجح الباحث ما ذهب إليه الرأي الأخير وذلك؛ لأنه يوجد في شعر ابن المعتز ما يؤيده يقول [السديون: ١٧٦/٣ بغداد]:

بلغت الأربعين وزدت عُشْرًا وصرت كاني خلق مُطَرَّى

وعليه فمن ابن المعتز حين قال هذا الشعر كان خمسين عامًا، ومعلوم أنه قتل سنة ٢٩٦ هـ، فيكون قد ولد سنة ٢٤٦ هـ إن لم يكن قبل ذلك.

المعتصم المشهورة في سنة ٢٤٨هـ<sup>(١)</sup> وبقي في الحبس إلى أن اضطر المستعين إلى الهرب والاتحاد إلى بغداد خوفاً من سطوة الأتراك فأخرج المعتز من سجنه وبويع له بالخلافة، "فابتسمت الحياة من جديد لهذا الطفل الذي أشرف على الخامسة من عمره، ووجد في كنف أبيه أمناً ودعة، فتقلب في بحبوحة من العيش وتفتحت عيناه على أجمل ما تفننت به يد الصانع من ضروب العمران والتزيين والتلوين، ولعل "الكامل" أحد قصور أبيه قد بلغ النهاية في هذا المجال بما اشتمل عليه من روعة وإبداع وبما بذل فيه من جهد وأموال".<sup>(٢)</sup>

"وكان أبوه جميل الوجه، مرهف الحس، رقيق الذوق، دقيق المشاعر مما أنطقه الشعر المصفى".<sup>(٣)</sup> ففي الديارات للشابشتي "كان المعتز سمح الأخلاق، واسع النفس، له أدب وفهم، ويقول شعراً صالحاً.. وكان من أحسن الناس وجهاً وأجملهم وكان يضرب به المثل في الحسن والجمال".<sup>(٤)</sup> وفي مواضع مختلفة من الكتاب نرى قصفه وشرابه وسماعه للغناء في قصره وفي بعض الأديرة، ونطلع على جانب من ترفه في قصره "الزور" و "الكامل" بسمراء.

وكان المعتز بالله محباً للهو والغناء، ولكنه كان محباً للشعر أيضاً، حتى إن صاحب الديارات حكى عنه بعض المقطوعات الشعرية، مما جعل الدكتور طه حسين يقول عنه: "هذه الحياة ألهمت المعتز نفسه

(١) الطبري، (٩ / ٢٥٨).

(٢) شعر ابن المعتز دراسة وتحقيق: القسم الثاني، أحمد السامرائي، (ص: ٤٠).

(٣) العصر العباسي الثاني: د. شوقي ضيف، (ص: ٣٢٥).

(٤) الديارات للشابشتي، (ص: ١٦٥) الطبعة الثالثة، وانظر أخبار المعتز (ص: ١٥٠).

ذوقاً فنياً خالصاً، فكان شاعراً وشاعراً مجيداً. ولو قد مُدَّ له في عمره لكان كابنه شاعراً نابغاً، ولكنه أعجل فلم تَطُلْ أيامه، وكان يُغنى في الشعر بهذه الفنون التي تلائم المجون والدعابة التي تلائم حياته الخاصة<sup>(١)</sup>.

"فالمعتز كان محباً للهو والشعر، لاهياً، حتى إنه لم يعر أمه أدنى اهتمام، وهي تحته على تتبع الأثر الك والنيل منهم، وتقول له: "يا بني اقلتهم في كل مكان، وتخرج إليه قميص أبيه المتوكل مخضباً بدمائه فيطلب منها أن ترفعه خثية أن يصير القميص قميصين"<sup>(٢)</sup>.

"ويبدو أن المعتز قد ورث كل ذلك عن أبيه المتوكل الذي وإن كان عصره من أنضر العصور وأكثرها رخاءً وصفاءً وعضارة وعمراناً إلا أنه كان محباً للغناء والشراب أيضاً حتى إنه قتل في مجلس شرايه مع وزيره الفتح بن خاقان، فرثاه أحد الشعراء بقوله:

هكذا فلتكن منايا الكرام بين ناي ومزهر ومُدام  
بين كاسين أزواته جيماً كاس لذاته وكاس الحمام<sup>(٣)</sup>

رجل كالمعتز بالله، هذه حياته، كيف يربي ابنه ؟ لا شك أنه سيترك في نفس هذا الوليد الصغير أثراً كبيراً، فلا شك أن هذا الطفل الصغير - أعني عبد الله بن المعتز - كان يدخل على أبيه في مجلس شرايه وغنائه فيستمع بهذا الغناء، ويضطرب للألحان الموسيقية العذبة،

(١) من حديث الشعر والنثر، طه حسين، (ص: ١٥٣).

(٢) الديارات للشابشتي، (ص: ١٦٩).

(٣) زهر الآداب: المصري، (١ / ٢٢٧).

بل ربما كان أبوه يصحبه في رحلات الصيد، ولم لا وعمر الطفل قد بلغ الخامسة والسادسة والسابعة في عهد أبيه.

ولقد كان ابن المعتز محباً لابنه مؤثراً له، حتى أنه أقطع قطائع باسمه في بلاد الشام بجوار ضيعة كان أعطاها للبحثري<sup>(١)</sup>، ثم مضى في إعلاء شأنه، فضرب باسمه الدنانير، ويسجل ذلك البحثري في قصيدة طويلة يمدح فيها المعتز يقول :

وَأَهْجَأْنَا ضَرْبَ الدَّنَانِيرِ بِاسْمِهِ وَتَقْلِيدُهُ مِنْ أَمْرِنَا مَا تَقْلِدُوا<sup>(٢)</sup>

ولم يكتف المعتز بذلك، بل راح يعلم ابنه ويهذبه، فأحضر له كبار المؤدبين الذين كانت تزخر بهم سامراء، غير أنه لم يصل إلينا من أخبار أولئك المؤدبين له في تلك الفترة شيء كثير اللهم إلا ما يتصل بواحد منهم وهو: محمد بن عمران الضبي الذي "كانت ثقافته رواية الأخبار وما يتصل بالأدب، كما كان نحوياً عارفاً بالقراءة العربية، عالماً بالحديث والأثر. وارتبط اسمه بما وقع له مع ابن المعتز في أثناء تأديبه له، فقد روي: أنه حفظ ابن المعتز وكان يؤدبه (النازعات)، وقال: إذا سألك أبوك في أي شيء أنت ؟ فقل له: أنا في السورة التي تلي (عيسى)، ولا تقل له: أنا في (النازعات). قال: فسأله أبوه: فسي أي شيء أنت ؟ فقال: في السورة التي تلي عيسى، فقال له: من علمك هذا ؟ قال: مؤدبي فأمر له بعشرة آلاف درهم".<sup>(٣)</sup>

(١) شعر ابن المعتز: تقسم للتثني، د. سامرائي، (ص: ٤٦).

(٢) ديوان البحثري، (٢ / ٦٧٠).

(٣) تاريخ بغداد، (٣ / ١٢٣).

من ذلك، نستطيع أن نفهم أن أبيه كان مهتمًا بتحفيظه القرآن وتعليمه العلوم العربية.

هكذا نشأ عبد الله في كنف أبيه المعتز يحيطه بالرعاية والاهتمام، مما جعله ولا شك يتأثر به تأثرًا كبيرًا، ولكن أراد الله ألا تستمر هذه الهناءة ورغادة العيش، فلم تلبث الأمور أن تمر سراعًا، وإذا بالأتراك يشددون من وطأتهم على الخليفة سنة (٢٥٥هـ) ويطالبونه بالأموال، وحين تعذر عليه توفيرها - بعد أن طلب هذه الأموال من أمه الغنية القادرة فرفضت - " اقتحموا عليه بيته، وضربوه بالدبابيس، وخرقوا قميصه، وأقاموه في الشمس في الدار، فكان يرفع رجلا ويضع أخرى لشدة الحر، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده، وأدخلوه حجرة، وأحضروا ابن أبي الشوارب وجماعة أشهدوهم على خلعه وشهدوا على صالح بن وصيف أن للمعتز وأمه وولده وأخته الأمان.. وسلموا المعتز إلى من يعذبه فمنعه الطعام والشراب ثلاثة أيام، فطلب حسوة من ماء البئر فمنعوه، ثم أدخلوه سردابًا وجصصوه عليه فمات، فلما أشهدوا على موته بني هاشم والقواد، وأنه لا أثر فيه، ودفنوه مع المنتصر".<sup>(١)</sup>

وهكذا مات المعتز هذه الموتة البشعة على مسمع ومرئ طفله الصغير، والذي بانتهاء حياته تنتهي مرحلة طفولة عبد الله بن المعتز المستقرة، والتي رثاها ابن المعتز بعد ذلك متحسرا عليها بقوله:

لا مثل أيام مضين بلهوها      مشكورة أعطت فؤادي ما اشتهى  
أيام غدري في سني وزلجي      مني وسلطاني على خدق ألها

(١) الكامل: لابن الأثير، (٧ / ١٩٥ - ١٩٦).

وَجَهِلْتُ مَا جَهِلَ الْفَقِي زَمَنَ الصَّبَا      فَلَا أُنْ قَدْ وَعَظَ الْمَشِيْبُ وَقُرْهَا  
وَالْآنَ قَدْ كَشَفَ الزَّمَانُ قُبَاعَهُ      لِيَصِيرَنِي وَخَلَّلْتُ فِي دَارِ الْتَهْيِ<sup>(١)</sup>

ويقول أيضاً:

وَأَمَّا لِأَيَّامِ الصَّبَا      مُحِيَّتْ مِنْ الْأَيَّامِ مَحَا  
أَزْمَانٌ أَبْلَغُ فِي الْمُنَى      أَقْطَارَهَا مَرَحًا وَلَهْوَا  
أَيَّامٌ تُفْقِرُ غَيْثِي      وَيُظَنُّ عَمْدُ الذَّنْبِ سَهْوَا<sup>(٢)</sup>

ثم يَعْقِبُ المهتدي المعتز في الخلافة ويأمر بنفي قبيحة زوجة المتوكل وجدة ابن زوجة المعتز ومعها عبد الله بن المعتز وغيره إلى مكة، هذه المرأة " التي لعبت دورا كبيرا في الحياة السياسية في عهد زوجها وابنها المعتز، وإليها يعود السبب في تغيير قلب المتوكل على ابنه المنتصر أحد أولياء عهد الأمر الذي أدى إلى اغتياله من قبله وقبل الأتراك. كما ظهر أثرها السياسي في خلافة المعتز، وكانت تحمله على التخلص من الأتراك " (٣).

وهي أيضا التي استحوذت على كثير من الأموال واحتجبتها وضمت على ابنها المعتز في أحلك ساعات العمر بخمسين ألف دينار طلبها منه قادة الأتراك فقتل شر قتلة. فقد كانت تملك " مقدار " خمسمائة ألف دينار، وظفروا لها بخزائن تحت الأرض فيها أموال كثيرة ومن جملتها دار تحت الأرض وجدوا فيها ألف ألف دينار ووجدوا في سقف

( ١ ) الديوان، ( ١ / ٢٩٨ )، م، طبعة دار المعارف.

( ٢ ) الديوان، ( ١ / ٣٠٠ ).

( ٣ ) شعر ابن المعتز: القسم الثاني، والسامرائي، (ص: ٣٧).

قدر مكوك زمرد لم ير الناس مثله، وفي سبط آخر مقدار مكوك من اللؤلؤ الكبار، وفي سبط مقدار كتلجة من الياقوت الأحمر الذي لم يوجد مثله".<sup>(١)</sup>

هذه المرأة التي كان لها مالها نفيت إلى مكة هي وعبد الله بن المعتز وغيره ثم سمعت وهي تقول وتدعو بصوت عال على صالح بن وصيف: "اللهم اخذ صالحا كما هتك ستري، وقتل ولدي، وشتت شملي، وأخذ مالي، وغرّيني عن بلدي، وركب الفاحشة مني".<sup>(٢)</sup>

ولا شك أن عبد الله بن المعتز، الطفل الصغير، قد سمعها وهي تقول هذا القول وربما حفظه عنها حتى وإن لم يدرك مغزاه، وربما بكى لها أيضا، كما بكى لفراق أبيه وذلك بعد أن امتلأت عيناه بزمردهما ولؤلؤها وياقوتها الأحمر قبل ذلك، ثم ربما سمعها تتحسر على هذه الأموال والجواهر الضائعة بعد ذلك فعلق ذلك في ذهنه.

عاش ابن المعتز مع جدته قبيحة في مكة في بيئة مختلفة الجو والتربة غير بيئته العراق وسامراء التي عاش وولد فيها، فالجو شديد الحرارة في الصيف والشتاء، والصحراء ممتدة قاحلة، حيث لا ماء ولا نماء. ولكن لأثرها الديني في نفس الطفل الشيء الكثير، فارتبطت في ذهنه مقدار ما عرف عنها من أهميتها للإسلام. ثم إنه شاهد على الطبيعة بيئة الشعر القديم الذي كان يحفظه الضبي إياه فظهر كل ذلك واضحا في شعره فيما بعد.

(١) الكامل لابن الأثير، (٧ / ٢٠٠).

(٢) نفسه، (٧ / ٢٠٠).



ويقتل المهتدي، ويعود المنفيون بعد ذلك بأمر الخليفة المعتمد الذي ولي الخلافة، وتعود قبيحة ويعود عبد الله بن المعتز إلى " سر من رأى "، فيطلع على الحياة الشائنة التي عصفت بأبيه أو كانت سببا في العصف به، ولكنه لم يجد بأسا من أن يربط بها حياته وقد كانت طبيعته وخلقه ومشاعره تدفعه إلى ذلك دفعا، ومن ناحية أخرى راحت جدته بما تملك من أموال وبما كانت أمه تأخذ من المعتمد الذي أصدر أمره بالعفو عنها أن تؤديه فينتقل خائضا محيطه الواسع من شاطئ إلى شاطئ مقتاتا بما يلقيه في سفينه واحد كأحمد بن سعيد الدمشقي أو آخر كالبرد أو ثعلب أو البلازري، وهؤلاء تولوه بالتأديب بعد أبي جعفر محمد بن عمران بن زياد الضبي الذي رعاه بالتعليم في حياة أبيه <sup>(١)</sup>. وإذا ما نظرنا إلى هؤلاء المؤدبين وجدناهم علماء عارفين بال النحو واللغة وفنون الأدب ورواية الأخبار، كما يوضح لنا ابن المعتز أيضا أنه كان منكبا على علوم الحديث والفقه والدين، يقول:

شَغَلَنِي إِذَا مَا كَانَ لِلنَّاسِ شُغْلٌ      ذَفَرْتُ فَقِهِ أَوْ حَدِيثٍ أَوْ غَزَلٍ <sup>(٢)</sup>

فإذا أضفنا إلى ذلك ما أسلفناه من أن الضبي كان يحفظه القرآن على عهد أبيه استطعنا أن نقول: إن ثقافة ابن المعتز كانت ثقافة عربية واسعة، تناولت مختلف المعارف والعلوم العربية والإسلامية، ومن غير شك أن ابن المعتز لم يقتصر على أولئك الأعلام ولا على ما زودوه به، وإنما أخذ يعب من مناهل العلم والمعرفة مما شاع في

( ١ ) ابن المعتز العباسي: د. أحمد كمال زكي، ( ص: ١٨ ).

( ٢ ) الديوان، ( ١ / ٦٣٥ ب ).

عصره من حضارات الأمم المختلفة كالفارسية واليونانية، مما ترجم في عهده أو العهد السابق له <sup>(١)</sup>.

إن ثقافة ابن المعتز لم تتوقف كما سبق " فعندما بنيت جدته بالصراة قصرها الجديد - وقد لا يكون أكثر من بيت لأحد سادات بغداد - حرصت على أن تهيئ له فيه مكتبة جمعت كتبها من الوراقين، كان الغلام يندس في هذه المكتبة ليلتهم الصفحات التهاما لا يفرق بين هذه التي تقف عند نواذر الأعراب، أو التي تنطوي على درة من درر الشعر، أو ثالثة التي تعرض لقصة من ألف ليلة وليلة أو حكاية من كليلة ودمنة أو مثل من الأمثال <sup>(٢)</sup>.

أما عن أثر الفلسفة في شعره فلم يكن كبيرا على الرغم من أنه أكثر من الحكم والزهد حتى كان لهما فن خاص من فنون شعره، بل نستطيع أن نقول: إن أغلب حكمه كان مستقى من ثقافته العربية الإسلامية، فقد كان مؤدبوه من المتخصصين في العلوم العربية المختلفة، ولم يكن بينهم على الأغلب من يتعاطى الفلسفة <sup>(٣)</sup>.

" ثم تموت جدته سنة ٢٦٤هـ وهو في السابعة عشرة، بعدها بأشهر تموت أمه ويرث دار الصراة التي ابنتتها جدته <sup>(٤)</sup>. ومن هنا

(١) شعر ابن المعتز: القسم الثاني، د. السامرائي، (ص: ٤٥).

(٢) ابن المعتز العباسي: د. أحمد كمال زكي، (ص: ٢٣).

(٣) شعر ابن المعتز: القسم الثاني، د. السامرائي، (ص: ٤٧).

(٤) ابن المعتز العباسي: د. أحمد كمال زكي، (ص: ٢٤).

نطوي هذه الصفحات من عمره، صفحات الطفولة والصبي لتبدأ مرحلة جديدة وحرّة من حياته وهي مرحلة الشباب والكهولة.

عندما وصل ابن المعتز إلى السابعة عشرة من عمره، وبعد موت جدته وأمه، بدأ يحس بالوحدة، فلم يعد هناك من يكفله ويهتم به، فبدأ يتذكر ما فات من عمره، وهل هناك أجمل من تلك الفترة القصيرة التي قضاها في كنف أبيه، ولكن أباه قتل، ثم هو يدرك الآن من قتله، بل كيف قتل جده، ثم المهتدي من بعدهم. ويغلي الدم في عروقه، ويهيج النار في عينيه، ثم يقول:

ثَبَّةُ السَّيْفِ عَلَى وَتَرِيهِ      حَيَّا الْجَهَنَّمَ وَمَاتَ السَّرَارُ  
لَوْ بِهِ أَقْتُلُ كُلَّ قَرِيبٍ      وَتَعِيدُ لَمْ يَسْمَ لِي نَارُ  
مَطْلَعَةُ النُّصْرِ مَنِّي بِنُ      لَمْ تُصِلْ بِي فَخُطَايَا قِصَارُ  
وَلَعَمْرِي لَوْ تَمَطَّتْ بِجَنَمِي      مُدَّةَ مَا ذَلَّ لِلْمَلِكِ جَارُ<sup>(١)</sup>

ثم يبحث قومه في مكان آخر:

تَحَسَّبُ قَوْمِي يُضَيِّقُونَ دَمِي      مَا ضَاعَ قَبْلِي لَهَا شِم نَارُ<sup>(٢)</sup>

ولكن قومه أهملوه، بل هم متوجسون خيفة منه، لعله يبحث عن الخلافة التي كان قد عهدا إليه أبوه، فلم يتركوه بعد بل هبوا يضيقون عليه من كل جانب. يقول الدكتور محمد الكفراوي: "منذ قتل الأكرّك المتوكل وولوا مكانه ابنه المنتصر، وخلفاء بني العباس مفتوحو الأعين

(١) الديوان، (٢ / ٣٤٠).

(٢) الديوان، (٢ / ٢٥٦).

على كل من يصلح للخلافة من أفراد أسرته ولهم عذرهم الواضح في ذلك، فإن المؤامرات والانقلابات لم تهدأ منذ ذلك الحين. وإذا غفل الخلفاء أو تهاونوا فإن الأتراك لا يغفلون، ألا ترى أنهم حملوا المنتصر على خلع أخويه المعتز والمؤيد وإلقائهما في ظلمات السجون خوفاً منهم<sup>(١)</sup>، ولما كان شاعرنا من أشد الناس استحقاقاً للخلافة لمكان أبيه وجده منها من جهة، ولفضله وعقله وأدبه من جهة أخرى، فقد صار جديراً بريسة الخلفاء، ومراقبتهم له، وتضييقهم عليه. وأظن أن هذا كافٍ لأن يقف منه قومه وخلفاء بني العباس موقف الخارج عليهم الساعي إلى الخلافة، وهل كان فيهم من يحمل هذه المؤهلات مثله بالإضافة إلى أنه ربما ظهر منه ما يريهم فلقد قال الصولي: "على أنني وجدت عنه أشعاراً يتكذب فيها على العباس رضي الله عنه وعلى أفاضل ولده وعلى الخلفاء رحمة الله عليهم أكثره لم يظهر"<sup>(٢)</sup>، لذلك صار موقفهم العداء له ومراقبته كما سلف. واتضح موقفهم منه وفهم هو هذا الموقف، فراح يقول لهم:

عَبَّاسُ لَا تُسْعِجْ لِي لِمَتِي	وَأَسْتَقِنِي لِمَعْتَرِ هَلَاكِ
فُوزِي بِمِثْلِي أَوْ فُتُوحِي وَالذَّبِي	لَا تُبْخَلِي عَنْ مَا جَدِ بِكَ كَاكِ
لَا تُخْبِرِيَنِي وَأَسْأَلِيَنِي إِنْ نِي	عَارَكْتُ هَذَا الدَّهْرَ أَيْ عِرَاكِ
وَلَقَدْ أَصَابَنِي الزَّمَانُ بِؤْسِهِ	وَتَعَمِيهِ فَفَقَرْتُ ذَاكَ بِذَاكِ
أَسَلَّتْ سَفْكَكَ تُسْفِكِينَ بِهِ ذِمِّي	وَلَقَدْ سَفَكْتُ بِهِ دِمَاءَ عِدَاكِ

(١) عبد الله بن المعتز، (ص: ٩٥).

(٢) أشعار أولاد الخلفاء، (ص: ١٠٨).

إِنْ كُنْتُ لَا نَعْمَى شَكَرْتُ وَلَا بِهَا جَاؤَنِي فَلَئِنْ لَمْ يَكُنْ أَذَاكَ  
إِيَّاكَ مِنْ بَطْرِ عَلَى رَحِمٍ ذَكَتْ لَا تَقْضِي بِيَدِ الْعُقُوقِ قَوَاكِ<sup>(١)</sup>

ويقول أيضا:

كُنْتُ أَنْ قَوْمِي قَدْ ذَفَنُوا لِي مَكْرًا  
ضَاعَ الْوَفَاءُ مِنْهُمْ وَأَضْمَرُوا لِي الْقُدْرَا  
رَدُّوا رِدَائِي لَمَّا رَأَوْا بَقَائِي فَخَرَا  
طَالَ عَلَيْهِمْ غَمْرِي فَاسْتَعَجَلُوا بِي الْقَبْرَا<sup>(٢)</sup>

هذا موقف قومه منه، وقتلة أبيه وجده وهتكه عرض جدته ما زالوا على قيد الحياة يرتعون ويمرحون. إن الهم تجاثم على قلبه فهل من خلاص؟ وماذا لو صار خليفة؟ ألن يستطيع أن ينال منهم؟ ولم لا يكون الخليفة وعنده من مؤهلاتها ما لم يتوفر لأحد غيره من بني العباس؟ لقد كان يحلم بما يحققه لو تولى الخلافة فلقد روى الصولي: "حدثني أبو القاسم الحسن بن محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن الحسين بن زيد بن بنت علي بن محمد الحماني، قال: حدثني أبو الحسين محمد بن الحسن العلوي المعروف بابن البصري، قال: كنت أجالس عبد الله بن المعتز وكان يحلف لي بالله لئن ملك من هذا الأمر شيئاً ليجعل البطنين بطناً واحداً، وليزوج هؤلاء من هؤلاء، وهؤلاء من هؤلاء، وقال: لا أدع طالبياً يتزوج بغير عباسية، ولا عباسياً بغير طالبية، حتى يصيروا شيئاً واحداً، وأجرى على كل رجل منهم عشرة

(١) الديوان، (٢ / ٩٣ م).

(٢) الديوان، (٢ / ٦٥ م).

دنائير في الشهر، وعلى كل امرأة خمسة دنائير، وأجعل لهم من الدنيا ناحية تفي بذلك".<sup>(١)</sup>

إذن لا سبيل إلا الخلافة. ولكن قومه يراقبونه والأتراك يقفون له بالمرصاد ومن الممكن أن يقتلوه بين لحظة وأخرى ولن يقف بجانبه أحد. إن التيار أقوى منه بكثير. إذن فعليه أن يسر ذلك في نفسه إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا، عليه أن يخاطب الخلافة في شعره أو يظهر أنه عافها ولا يريد لها، كما يقول:

طَوَّلْتُكُمْ يَا بَنِي الدُّنْيَا رِكَابِي      وَحَارَبْتُكُمْ رِجَالِي وَأَرْتَقَابِي  
حُجِبْتُ بِهَيْمَتِي مِنْ أَنْ تَرَوْنِي      أَرَأَيْتُمْ مِنْكُمْ رَفَعَ الْحِجَابِ  
لَنْ غُرَيْتُ مِنْ (دَوْلٍ) أَرَاهَا      تَجِدُّ كُلَّ يَوْمٍ لِلْكَلاِبِ  
لَقَدْ خَلَقْتُهَا بَعْدَ انْتِدَالِ      هَا وَمَلَلْتُهَا قَبْلَ الدَّهَابِ<sup>(٢)</sup>

ثم يشبه الخلافة بمرض مزمن لا دواء له، يقول:

يَنْفَسِي مَقَامٌ لَا يُدَاوِي مَرِيضُهُ      خَفِيَ عَلَى الْفُؤَادِ بَاقِي عَلَى السُّفْرِ  
قَوَى بَاطِنٌ فَوْقَ الْقَوَى لَجَّ دَاوُهُ      وَأَغْيَا عَلَى الْمُدَالِ فِي السِّرِّ وَالْجَهْرِ  
بُلَيْتُ بِجَبَّارٍ يُجَلُّ عَنْ الْمَسِي      عَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ مِنَ التَّيْبِ وَالْكِيرِ  
قَدِيرٌ عَلَى مَا شَاءَ مَتْنِي مُسَلِّطٌ      جَرِيءٌ عَلَى ظُلْمِي أَمِيرٌ عَلَى أَمْرِي  
أَلْفَتْ أَقْوَى حَتَّى قَلَّتْ لَفْسِي الْقِيَلَا      وَطَالَ الْعُتْنَى حَتَّى صَبِرْتُ عَلَى الصَّبْرِ<sup>(٣)</sup>

(١) إشعار لولاد الخلفاء، (ص: ١٠٩).

(٢) الديوان، (١ / ٢٣٠ م).

(٣) نفسه، (٢ / ٢٦٠ م).

فمن هذا الجبار الذي يجل عن المنى ؟ ومن الذي على رأسه تاج من التيه والكبر ؟ أليست الخلافة ؟

وها هو يتغزل فيها ويشبهها بفتاة غادة يقول:

دَغْ لَدِيْمًا قَدْ تَسَاءَى وَحَسَبَ      وَاسْتَقْبَى وَاشْرَبَ عَقَارًا كَالْقَبَسِ  
هَامَ قَلْبِي بِفَتَاةٍ غَادَةٍ      حَوْلَهَا الْأَسْيَافُ فِي أَيْدِي الْحَرَسِ  
لَا تَنَامُ اللَّيْلُ مِنْ حُسْنِي وَإِنْ      غَرَدَ الْقَمْرِيُّ زَارَتْ فِي الْفَلَسِ  
وَتُسَمِّي إِذَا مَا عَشَرَتْ      فَإِذَا مَا قَطَنُوا قَالَتْ: تَعَسُ<sup>(١)</sup>

فمن هذه الغادة التي هام بها وحولها الأسيايف في أيدي الحرس ؟ لم نعرف أن ابن المعتز هام في غير "شر" محبوبته من النساء، أليست هذه الخلافة إذن ؟

ثم يقول: وكأن الخلافة تغار عليه وتخشى أن يشغل بسواها من تلك الأسماء التي يرددها في شعره ولكنه يطمئننا:

قَالَتْ: تَبَدَّلْتُ أُخْرَى قُلْتُ: أَفْدِيكَ      مِنْ كُلِّ سَوْءٍ وَمَكْرُوهِ وَأَحْسِكِ  
قَالَتْ: وَسَمَّيْتُهَا فِي الشَّعْرِ قُلْتُ لَهَا:      سَمَّيْتُ غَيْرَكَ لَكِنْ كُنْتُ أَعْيِكَ  
دَعَى الْعَنَابَ لَطِيَّ الْكُتُبِ وَاعْتَمِي      يَوْمَ التَّلَاقِ وَزَوَّيْتُ فَايَ مِنْ فَيْكِ<sup>(٢)</sup>

ثم هو يسر كل ذلك في نفسه فلا يُطلع عليه أحدا، يقول:

أَيُّهَا السَّائِلِي دَغْ سِرِّي نَفْسِي      إِذَا نَفْسِي لِسِرِّي قَبْرٍ<sup>(٣)</sup>

وليس له في سبيل ذلك إلا الصبر، مهما نغصت الدنيا عليه حياته

( ١ ) الديوان، ( ١ / ٣٧٦ م ).

( ٢ ) نفسه، ( ١ / ٤٠١ م ).

( ٣ ) نفسه، ( ١ / ٢٦٦ م ).

قُلْ لِدُنْيَايَ قَدْ تَمَكَّنْتُ مِنِّي      فافعلني ما أردت أن تفعلني بي  
واخرقي كيف شئت غرقَ جهول      إنَّ عِنْدِي لَكَ اصْطِبَارًا لَبِيبًا<sup>(١)</sup>

ولكن كثيرا ما يحول بينه وبين الصبر، تلك المصائب التي تترى عليه والهموم المتوالية التي يحس بها فيتذكر أيام لهوه وصباه، ولكن هذه الأيام الجميلة الحلوة هي نفسها التي تذكره بمقتل أبيه، يقول مخاطبا الدهر:

يَا دَهْرُ حَسْبُكَ قَدْ أَكْثَرْتَ فَجَعَلَنِي      شَغَلْتَ أَيَّامَ عُمْرِي بِالْمُصِيبَاتِ  
مَلَأْتَ أَخَاطَ عَيْنِي كُلَّهَا حُزْنًا      فَأَيْنَ لَهْوِي وَأَحِبَّائِي وَلَذَائِي  
حَدًّا لِرَبِّي وَذُمَّا لِلزَّمَانِ فَمَا      أَقَلَّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مَسْرَاتِي  
لَوْ يَدِي أَمَلِي عَنْ كُلِّ مَطْلَبٍ      وَأَغْلَقْتَ بَاهَا مِنْ دُونِ حَاجَاتِي  
وَأَنْجَزَ الدَّهْرَ وَعَدَ الْمَوْتَ فِي سَلَفِي      وَقَرَّبَ إِلَيَّ مِنْ أَيَّامِ فَرَحَاتِي  
فَكُلَّ يَوْمٍ تَرَى الْعَيْنَانِ مَسْخَنَةً      وَتَدْفِنُ الْكَفَّ عِزًّا بَيْنَ أَمْوَاتِ<sup>(٢)</sup>

ثم يصف هذه الهموم أيضا بقوله:

أَصَابَتْنِي صُرُوفٌ لَوْ أَلَمْتُ      لَعَمْرُكَ بِالزَّمَانِ إِذَا لَشَابَا<sup>(٣)</sup>

☆☆☆☆☆☆☆☆

كان لهذا الشقاء الناتج عن مصائبه القديمة وتربصه للخلافة والمصائب التي ما زالت تترى ذلك القلق النفسي في حياة ابن المعتز والذي انعكس ذلك كله على شعره، فبدأ شعره وكأنه ابن المعتز نفسه

(١) نفسه، (٢ / ٤٣ م).

(٢) الديوان، (٢ / ٣٢٧ م).

(٣) نفسه، (٢ / ٣٨٣ م).



يحبس ويمشي ويتحرك، فنراه من شعره غير مستقر في كل شيء في حياته.

فإذا ما تزوج فهو كثير الحزن غير مستقر في زواجه، هائم في النهار، ساهر في الليل، يقول:

أنا مُدَّ صَارَ لِي سَكَنٌ      فِي تَبَارٍ مِنَ الْحَزَنِ  
هَائِمُ الْعَقْلِ فِي نَهَا      رِي وَلَيْلِي بِلا وَسَنِ  
لَتَيْتِي عُذْتُ مِثْلَ مَا      كُنْتُ أُرْعَى بِلا رَسَنِ<sup>(١)</sup>

وليس من سبيل عدم الاستقرار في الزواج إلا الطلاق يقول:  
ونفيت عرسي بالطلاق مصمما      وكانت حصة بين رجلي وأخص  
فأقميت عدائي وفات الذي مضى      وهُتِيتُ عيشًا بعد عيش مفصص<sup>(٢)</sup>

وكذلك نلاحظ اضطرابه النفسي أيضا في تهالكه على اللذات وانكبابه على الشراب. فهو يشرب لينسى تلك الهموم التي جثمت على قلبه، إذا لا سبيل إلى نسيانها إلا بالقهوة والخندريس، يقول:

داو الهموم بقهوة عدراء      وأمزج بنار الراح نَوْرَ الْمَاءِ<sup>(٣)</sup>

ويقول:

وَلَيْسَ لِلْهَمِّ إِلَّا شَرْبُ صَافِيَةٍ      كَأَلْهَا دَمْعَةً مِنْ عَيْنٍ مَهْجُورِ<sup>(٤)</sup>

ويقول أيضا:

(١) نفسه، (١ / ٤٢٩ م).

(٢) نفسه، (٢ / ٤٥٢ م).

(٣) نفسه، (٢ / ٢١٠ م).

(٤) الديوان، (٢ / ٢٥٠ م).

اسقى الرّاح في شباب النهار <sup>(١)</sup> وألف قمي بالحنديس القمار <sup>(٢)</sup>  
ولكنه لم يكن مستقرا في الشراب أيضا، فهو تارة يفضل الغبوق،  
وتارة يفضل الصبوح، وتارة يذم هذي، وتارة يذم تلك، يقول مفضلا  
الغبوق:

لا تدغني لصبح <sup>(٣)</sup> إن الغبوق حبيبي  
الليل لكون شابي <sup>(٤)</sup> والصبح لكون مشبي  
من أين للصبح سحر <sup>(٥)</sup> لعاشق من رقيب  
إذا تواعد هذا <sup>(٦)</sup> وإذا لوقت المغيب <sup>(٧)</sup>

ثم يعود إلى الصبوح:

عودوا إلى الإصباح <sup>(٨)</sup> لا ماء إلا براح <sup>(٩)</sup>

ثم نلاحظ أيضا أثر ذلك الاضطراب النفسي في توبته، فنراه قلقا  
وغير مستقر عليها، فيعد أن يودع اللذات والشهوات التي كان يعيش  
فيها نراه يعود إليها من جديد مخلا بهذه التوبة. يقول:

سلام على اللذات والنهوض والصبا <sup>(١٠)</sup> سلام وداع لا سلام قدوم <sup>(١١)</sup>

يقول أيضا:

ألا من قلب في الهوى غير متب <sup>(١٢)</sup> وفي الغي مطواع وفي الرشد مكره <sup>(١٣)</sup>  
أشاوره في توبة، فيقول: لا <sup>(١٤)</sup> فإن قلت: تأتي فتنة، قال: أين هي <sup>(١٥)</sup>

(١) نفسه، (٢/ ٢٥٩ م).

(٢) نفسه، (٢/ ٢٢٢ م).

(٣) نفسه، (٢/ ٢٣٣ م).

(٤) نفسه، (١/ ٥١٣ م).

ويقول أيضا:

يا قلب ويحك خنتني وفعلتها      وحملت عُقْدَةَ ثوبتي وقطعتها  
فالآن آيس من فلاحك بعدما      عصت النقي نفسي فكيف أطعتها  
يا عين منك بلّيتي يا جفنها      هَلَا عَنِ الْوَجْهِ الْمَلِيحِ سَرَّتْهَا<sup>(١)</sup>

ولكن ابن المعتز رغم تكالبه على اللذات والشهوات يريد أن يقول أنه لم يرتكب الفواحش أبدا، يقول:

وَلَمْ آتِ مَا قَدْ حَرَّمَ اللَّهُ فِي الْمَلَا      وَلَمْ أَثُرْ مَا قَدْ عَفَا اللَّهُ بَاقِيَا<sup>(٢)</sup>  
فهل حقا أنه لم يرتكب الفواحش، وعموما سواء ارتكب أم لم يرتكب فهو قد تاب في النهاية، يقول:

وَكُنْتُ إِمْرَأً مَتَى التَّصَابِي الَّذِي تُرَى      فَقَدْ بَلَغْتَ مَتَى الْتَهَى قَتَاهُتِ  
وَقُلْتُ أَلَا يَا نَفْسِ هَلْ بَعْدَ شَيْءٍ      نُذِيرٌ فَمَا غُدْرِي إِذَا مَا تَمَادَيْتِ  
وَقَدْ أَبْصَرْتَ عَيْنِي الْمُنِيَّةُ تَنْتَضِي      سُيُوفٌ مَشِيبٌ فَوْقَ رَأْسِي وَأَشْفَيْتِ  
فَخَلَيْتِ سُلْطَانَ التَّصَابِي لِأَهْلِهِ      وَأَدْبَرْتَ عَنْ شَانِ الْفَوْرِ وَتَوَلَّيْتِ<sup>(٣)</sup>

ونلاحظ أيضا أنه بالرغم من حب ابن المعتز "لشر" محبوبته، وامتناعاً بهذا الحب ديوانه، إلا أنه لم يكن مستقرا في هذا الحب أيضا، فسرعان ما يترك "شر" إلى غيرها. يقول:

(١) الديوان، (٢ / ٣١٨ م).

(٢) نفسه، (١ / ٣٣٠ م).

(٣) نفسه، (٢ / ٤٢٤ م).

(٤) الديوان، (١ / ٢٤٠ - ٢٤١ م).

قَلْبِي وَثَابَ إِلَى ذَا وَذَا      لَيْسَ يَرَى شَيْئاً قِيَابَاهُ  
يَهِيْمُ بِالْحَسَنِ كَمَا يَنْهِي      وَيَرْحَمُ الْقَبِيحَ فِيهِوَاهُ<sup>(١)</sup>

ثم نراه ينتقل بين المحبين، ويتهم جميل بن معمر بالجهل؛ لأنه اقتصر في حبه على بثينة فقط، يقول:

أَبَى الْوَصْلَ إِلَّا أَنْ أَعِيشَ مَنَعَنَا      خِلَافَ عِبِّ مَاتَ فِي طَلَبِ الْوَصْلِ  
رَسُولِي إِلَيْهِ لَا يَضِيقُ وَنَظَرِي      هَذَا وَقَلْبِي عِنْدَ ذَاكَ عَلَى رَجُلٍ  
وَكَمْ مِنْ حَبِيبٍ قَدْ قَطَعْتَ وَصَالَهُ      فَمَا ذَهَبَتْ نَفْسِي عَلَيْهِ وَلَا عَقْلِي  
فَهَذَا هُوَ الْحُبُّ الَّذِي فِيهِ لَذَّةٌ      وَحُبُّ جَمِيلٍ كَانَ عِنْدِي مِنَ الْجَهْلِ<sup>(٢)</sup>

ورغم حاجة ابن المعتز الشديدة للأخلاء للتسلية، عن همومه وأحزانه، إلا أن علاقته بهم لم تكن مستقرة أيضاً. يقول:

قَصَّرَ نَهَارُكَ بِالْخَلِيلِ      وَأَطْرَدَ هُمُومُكَ بِالشُّمُولِ  
وَذَعِ الْقَدُولَ فَإِلَهُ      سَيَمَلُ مِنْ قَالٍ وَقِيلِ  
وَاصِلِ خَلِيلِكَ إِذَا الدَّ      نَبَا مُوَاصِلَةَ الْخَلِيلِ<sup>(٣)</sup>

ولكنه ما برح يغضب عليهم، ويقول:

وَأَفَرَدَنِي مِنَ الْإِخْوَانِ عِلْمِي      بِهِمْ قَبَقْتُ مَهْجُورَ التَّوَاحِ  
عَمَرْتُ مَنَازِلِي مِنْهُمْ زَمَاناً      فَمَا أَدْنَى الْفَسَادِ مِنَ الصَّلَاحِ  
إِذَا مَا قَلَّ مَا نِي قَلَّ مَدْحِي      وَإِنْ أَكْرَيْتُ عَادُوا فِي امْتِدَاحِي

(١) نفسه، (١ / ٣٠٩ م).

(٢) الديوان، (١ / ٤٠٥ م).

(٣) نفسه، (٢ / ٣٠١ م).

وَكَمْ ذَمَّ لَهُمْ فِي جَنبِ مَدَحٍ وَجِدَّ بَيْنَ أَهْلِ الْمَزَاحِ<sup>(١)</sup>

فإخوانه لم يصاحبوه إلا طمعا في ماله، فإذا قل ماله نموه  
وابتعدوا عنه، ورغم أن الدكتور خفاجي<sup>(٢)</sup> والدكتور شوقي ضيف<sup>(٣)</sup>  
يؤكدان أنه كان في بحبوحة من العيش نظير الإقطاعات التي أقطعها له  
أبوه، ونظير ما ورثه عن جنته إلا أنه كان كثيرا ما يشكو قلة الدخل،  
فيقول مثلا:

يَا قَوْمُ إِلَيَّ مُرَرَّا وَكُلُّ خَرَمُورَّا  
خَرَجَ كَبِيرٌ وَذَخِلَ نَزَرَ فَلَيْمَ لَا أَعَزَّى  
فَاخْرُجْ لَا يَتَأَمَى وَالْذَّخْلُ لَا يَجُورَّا<sup>(٤)</sup>

فربما كان دخله كبيرا ولكن نفقاته أكبر من دخله، وربما كان  
دخله محدودا مما جعله يشتكي قلة المال في بناء داره، يقول:

أَلَا مَنْ لِنَفْسِي وَأَحْزَانِهَا وَدَارِ نَدَاغَتِ بِحِيطَانِهَا  
أَظَلُّ نَهَارِي فِي شَمِهَا شَقِيًّا مَعْتَى بُيَانِهَا  
أَسْوَدُ وَجْهِي بِبَيْضِهَا وَأَهْلِي مَالِي لِعُمَرَانِهَا<sup>(٥)</sup>

ولكن يبدو أنه كان في حاجة دائمة إلى المال مما اضطره إلى  
مدح من دونه من الوزراء، فراح يمدح آل سليمان بن ذهب - حقيقة هم

(١) نفسه، (١ / ٢٤٥ م).

(٢) ابن المعتز وتراثه في الأدب، (ص: ٨٠).

(٣) العصر العباسي الثاني، (ص: ٣٣٠).

(٤) الديوان، (ص: ٢٧٤) بيروت.

(٥) الديوان، (٢ / ٢٠٦ م).

عائلة محترمة كريمة - إلا أنه كان من بيت الخلافة، فأبوه خليفة وجده خليفة، حتى هو نفسه قد عهد إليه أبوه بولاية العهد، ألم يقل البحتري مادحا المعتز بالله مشيراً لذلك:

فكانوا (لغيد الله) في الجود أعيداً	وأبنا بني الأجداد في كل موطن
أضاءت قلوبهم يسري بها الركب لأعتدى	عليه من المعتز بالله بهجة
لنا غمماً كآوي إلى ظله غدا	سُرونا بأن أثره وكصبة
وتقلبنا من أمرنا ما تقلبنا	وأهجتنا ضرب الدنانير باسمه
خصمت بها نايك في الجود والتدى	ولم لا يرى نايك في السلطة التي
يهم وأن تقضي إليه وتمهداً <sup>(١)</sup>	حقيق بأن ترمي به الجانب الذي

أظن أن كل هذا كان يمنعه من أن يمدح من هم دونه، ولكن يبدو أن حاجته للمال هي التي دفعته لذلك حتى يضمنوا له راتبه من مال الدولة.

يتضح مما سبق أن الشقاء والهموم التي أصابت ابن المعتز جعلته في حالة قلق نفسي شديد مما كان له الأثر في عدم استقراره في كل شيء... ولكن برغم هذا كله لم يتوان ابن المعتز لحظة في التطلع جميعاً إلى الخلافة حتى وإن بدا أنه هجرها بالرغم من بغض الخلفاء له إلا أنه أخذ يدافع عن الخلافة دفاعاً مستميتاً ضد كل من أرادها بسوء، فهو يقف ضد الطالبيين العلويين، ويقف ضد الطولونيين الخارجيين، ويقف ضد القرامطة والزنج المارقين، ثم يحدث بنسي العباس على المحافظة على ملكهم، ويقول:

(١) ديوان البحتري، (١ / ١٧٤ - ١٧٥).

يا آلَ عَبَّاسٍ نَعَا مِنْ عَشْرَةِ      لَا تَرْكُشْنَ إِلَى الْغَوَاةِ الْحُسُودِ  
وَعُدُّوا نَصَائِحَ حَازِمٍ مُتَعَصِّبٍ      بِالشَّيْبِ مُجْتَمِعِ الْتَهَى مُتَأَسِّدِ  
شَدُّوا أَكْفُكُمُ عَلَى مِرَائِكُمْ      فَالْحَقُّ أَعْطَاكُمْ خِلَافَةَ أَحَدِ  
وَمَقَى يَوْمَهَا الرَّائِمُونَ قِيَادِرُوا      هَامَاتِهِمْ خَصَدًا بِكُلِّ مُهْتَدِ  
قُودُوا لَهُمْ قُوَّةَ الْجِيَادِ ذَوَائِبَا      لَا يَهْتَدُونَ إِلَى الطَّرِيقِ الْأَبْعَدِ  
هَذَا هُوَ النَّصْحُ الصَّرِيحُ وَرَبُّمَا      مُحَضَّرُ التَّصِيحَةِ صَاحِبٌ لَمْ يَجْهَدِ<sup>(١)</sup>

وأغلب الظن أن ابن المعتز وقف مدافعا عن الخلافة، فلربما تأتبه يوما ما، لأنها لو انتقلت إلى غيرهم ضاعت آماله، وحصد الهشيم بعد تعب الطويل، ولكنها جاءت في نهاية أيامه فماذا فعلت به وفعل بها؟ توفي المكتفي في سنة خمس وتسعين ومائتين، وفي اليوم نفسه بويح أخوه المقتدر بوصية من أخيه المكتفي قبيل وفاته، وكان عمره ثلاث عشرة سنة وشهرين<sup>(٢)</sup> وكان الوزير آنذاك هو العباس بن الحسن، ويبدو أنه لم يكن راضيا عن بيعة المقتدر لصغر سنه فحاول أن يصرف للخلافة عنه إلى شخص آخر. ونترك الطبري يحكي لنا هذه الأحداث التي كان معاصرا لها، فلن يكون هناك من هو أصدق منه، يقول: "فمن ذلك ما كان من اجتماع جماعة من القواد والكتاب والقضاة على خلع المقتدر وتناظرهم فيمن يجعل في موضعه فاجتمع رأيهم على عبد الله بن المعتز وناظروه في ذلك فأجابهم إلى ذلك على ألا يكون في ذلك سفك دم ولا حرب فأخبروه أن الأمر يُسلم إليه عفوًا وأن جميع من

(١) الديوان، (١ / ٢٥١ - ٢٥٢ م).

(٢) تاريخ بغداد، (٧ / ٢١٣).

وراءهم من الجند والقواد والكتاب قد رضوا به فبايعهم على ذلك، وكان الرأس في ذلك محمد بن داود بن الجراح، وأبو المثنى أحمد بن يعقوب اللقاضي وواطاً محمد بن داود بن الجراح جماعة من القواد على الفتك بالمقتدر والبيعة لعبد الله بن المعتز وكان العباس بن الحسن على مثل رأيهم، فلما رأى العباس أمره مستوثقاً له مع المقتدر بدا له فيما كان عزم عليه من ذلك فحينئذ وثب به الآخرون فقتلوه وكان الذي تولى قتله بدر الأعجمي، والحسين بن حمدان، ووصيف بن صوارتكين وذلك يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول ولما كان من غد هذا اليوم وذلك يوم الأحد خلع المقتدر القواد والكتاب وقضاة بغداد، وبايعوا عبد الله بن المعتز ولقبوه الراضي بالله، وكان الذي أخذ له البيعة على القواد وتولى استحلافهم والدعاء بأسمائهم محمد بن سعيد الأزرق كاتب الجيش. وفي هذا اليوم كانت بين الحسين بن حمدان وبين غلمان الدار حرب شديدة من غدوه إلى انتصاف النهار (وفيه) انفضت الجموع التي كان محمد بن داود جمعها لبيعة ابن المعتز عنه؛ وذلك أن الخادم الذي يدعى مؤنسا حمل غلماناً من غلمان الدار في شذوات فصاعد بها وهم فيها في دجلة، فلما حاذوا الدار التي فيها ابن المعتز ومحمد بن داود صاحوا بهم ورشقوهم بالنشاب فتفرقوا وهرب من في الدار من الجند والقواد والكتاب وهرب ابن المعتز ولحق بعض الذين بايعوا ابن المعتز بالمقتدر فاعتذروا بأنه منع من المسير إليه، واختفى



بعضهم فأخذوا وقتلوا، وانتهب العامة دور ابن دلود والعباس بن الحسن وأخذ ابن المعتز فيمن أخذ ثم قتل\* (١).

وهكذا انتهت حياة ابن المعتز، أراد الخلافة، وأخذ يسرها ويعمل لها طيلة عمره، فجاءته لتأخذ بعمره، وتطوي حياته في صفحات التاريخ مرشوقة بالسهم والنشاب، ويتركنا نسمع صدى صوته يتردد في الأفاق بما قاله في الليلة التي قتل في صبيحتها:

يا نفسي صبرا لعل الحسر عقبك خائتك من بعد طول الأمن ذنبك  
مرث بنا سحرا طير فقلت لها: طوباك يا ليتني إياك طوباك  
إن كان قصدك شرقا فالسلام على شاطئ الصراة أبلغني إن كان مفراك  
من موقفي بالمنايا لا فكالك لئى يكي الدماء على إلف له باكي  
فرب آمنة حالت ميتها ورب مفلسة بسين أشراك  
أظنه آخر الأيام من عُمرِي وأوشك اليوم أن يكي لي الباكي (٢)

\* وبعد فقد مات ابن المعتز، وفجعت فيه دولة الأدب والقريض، وترك وراءه دويا استمر صدها واضحا على مر القرون، وخلد اسمه في صفحات التاريخ والمجد مع أدباء العربية الخالدين وشعرائها المعنودين وبذلك انتهت حياة حافلة بالعظمة والكبرياء والمجد والخلود فرحمه الله وحزاه عن الأدب والشعر خير الجزاء (٣).

(١) تاريخ الطبري، (١١ / ٤٠٤ - ٤٠٥).

(٢) تاريخ بغداد، (١٠ / ١٠٠).

(٣) ابن المعتز وتراثه، د. محمد عبد المنعم خفاجي، (ص: ٦٨).

ولقد رثى ابن المعتز العديد من الشعراء منهم ابن بسام الذي قال

فيه:

لله ذرّة من تلك بمضيعة      ناهيك في العقل والآداب والخب  
ما فيه لولا، ولا ليت فينقصه      وإنما أدركه حرفة الأدب<sup>(١)</sup>



### ثقافة ابن المعتز وأثره

كانت حياة ابن المعتز متنوعة مختلفة شديدة الاختلاف، فهو قد عني بكل ما يعنى به المثقفون في عصره: عني بالأدب خطابة وشعرا وكتابة، وعني بالفقه ميراثا وأحكاما، وباللغة والنحو والعلل النحوية<sup>(١)</sup>. ولقد أسهمت نشأته الأرستقراطية في تكوينه الفكري "فاتسعت ثقافته وتعددت فروعها وتنوعت مصادرها مما أسهم في تعميق الفكرة، تلك التي صدر عنها تأثيرا بالقديم والجديد"<sup>(٢)</sup>.

فابن المعتز كما يقول الصولي: "سمع من صعود صاحب الفراء، وأخذ عنه اللغة والغريب، وعن أعراب فصحاء كانوا يقيمون سر من رأى، وسمع عن أحمد بن أبي فتن، وعن الحسن بن عليّ العنزي. وما رأيت عباسيا قط أجمع منه ولا أقرب لسانا كان من قلب، وكان يقدم أهل العلم ويؤثرهم.

وكان أبو العباس محمد بن يزيد المبرد يجيئه كثيرا ويقسم عنده، وكان ذلك سائغا لمحمد بن يزيد لكثرة مجيئه إلى إسماعيل بن إسحاق القاضي، وقرب القاضي من منزل ابن المعتز. وكان قد لقي أبا العباس أحمد بن يحيى مرات، وكان يبعث إليه فيسأله عن الشيء بعد الشيء.

(١) من حديث الشعر والنثر، د. طه حسين، (ص: ١٥٧).

(٢) القصيدة العباسية: قضايا واتجاهات، د. عبد الله التطاوي، (ص: ١١٧).

وكان أحمد بن السعيد الدمشقي مؤدبه لا يفارقه، وكانت داره مغنا لأهل الأدب<sup>(١)</sup>.

فإذا أضفنا - كما قلت من قبل - أن الضبي كان يحفظه القرآن على عهد أبيه أضفنا إلى البعد العربي لثقافته بعدا إسلاميا آخر. "ولكن بينما كانت ثقافته هذه تدفعه نحو القديم، كان يرى نفسه بحسب نشأته ومحيطه منجذبا نحو الحديث. ولذا جاء إنتاجه مزيجا من الأدبين وصورة من الحياتين تأتلف جوانبهما حيناً وتتنافر أحيانا"<sup>(٢)</sup>.

وإلى جانب ثقافته العربية الإسلامية "استوعب ابن المعتز جوانب كثيرة من الثقافات الطارئة، والعلوم المترجمة مما أفاده العرب من الفرس واليونان والهنود، فله إلمام بعلم النجوم، يشير إلى ذلك كثرة ما جاء في شعره من أوصاف للسماء والسحب والكواكب والنجوم ومظاهر الطبيعة"<sup>(٣)</sup>. وينجلي شعر الرجل العالم ابن المعتز في تلميحاته إلى الفلك والتنجيم ومدارك الفلسفة<sup>(٤)</sup>.

وكذلك لاین المعتز ثقافة في التاريخ يشهد بها شعره وأرجوزته في تاريخ المعتضد<sup>(٥)</sup>.

وله ثقافة في علم الكلام يشهد بها كثرة اقتباسه في شعره من مصطلحات المتكلمين.. وكان مطلعاً على مبادئ المعتزلة من مخالطة

(١) أشعار أولاد الخلفاء، (ص: ١٠٧).

(٢) عبد الله بن المعتز، محمد عبد العزيز الكفراوي، (ص: ١٥).

(٣) ابن المعتز صورة لعصره، د. سعد شلبي، (ص: ١٦٩).

(٤) تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة: د. عبد الحليم النجار، (٢ / ٥٥).

(٥) ابن المعتز وراثته، (ص: ٨٦).

لعلمائهم، وقراءته لكتبهم وتأثر منهم ببعض آرائهم، ولكن إيمانه بهذا لم يجعله معتزليا في رأيه حتى نراه يهجو إسماعيل بن بلبل الوزير ويذمه بالاعتزال في أرجوزته في المعتضد.

"أما عن أثر الفلسفة في شعره فلم يكن كبيرا على الرغم من أنه أكثر من الحكم والزهد حتى كان لهما فن خاص من فنون شعره، بل نستطيع أن نقول إن حكمه كانت مستقاة من ثقافته العربية الإسلامية، فقد كان مؤدبيه من المتخصصين في العلوم العربية المختلفة، ولم يكن بينهم على الأغلب من تعاطي الفلسفة".<sup>(١)</sup>

"كما كان عبد الله - ابن المعتز - حسن العلم بصناعة الموسيقى والكلام على النغم وعظماؤه في ذلك وفي غيره من الآداب كتب مشهورة ومراسلات جرت بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وبين بني حمدون وغيرهم تدل على فضله وعزازه علمه وأدبه".<sup>(٢)</sup>

أما عن آثاره فيخلاف ديوانه الشعري الذي جمعه أبو بكر الصولي، يقول الياقعي عن آثاره: "وله من التصانيف كتاب الزهرة والرياض"، و"كتاب مكاتبات الشعر" و"كتاب الجوارح"، و"كتاب الصيد"، و"كتاب السرقات"، و"كتاب أشعار الملوك" و"كتاب الآداب"، و"كتاب حلي الأخبار"، و"كتاب طبقات الشعراء"، و"كتاب الجامع في

(١) نفسه، (ص: ٧١).

(٢) شعر ابن المعتز: القسم الثاني، د. يونس السامرائي، (ص: ٤٧).

العلم"، و"كتاب فيه أرجوزة في ذم الصبوح"<sup>(١)</sup> و"كتاب البديع في فن الشعر"<sup>(٢)</sup>.

ولكن أغلب هذه الكتب ضاع، ولم يصل إلينا منها إلا القليل المطبوع، مثل: كتاب "فصول التماثيل"، وكتاب "طبقات الشعراء المحدثين"، وكتاب "البديع". وهذه كتب منشورة.

☆☆☆☆☆☆☆☆

من خلال ما تقدم عن حياة ابن المعتز وثقافته نستطيع أن نلمس أثر تلك الحياة على شعره ويتضح ذلك فيما يلي:

١. رباه أبوه وجدته تربية عربية إسلامية فظهر ذلك واضحا في الجوانب الإيمانية التي تجلت في شعره وخاصة شعر الحكمة والزهد منه.
٢. تربي بين أحضان أبيه على سماع الموسيقى والغناء، فجاء شعره معبرا عن أثر ذلك، فشاهدنا في شعره كل آلات الموسيقى وكذلك اهتمامه البالغ بالغناء.
٣. قتل جده المتوكل في مجلس شرابه، وكذلك كان لأبيه جولات بين الأديرة فنشأ ابن المعتز يتسلى بالشراب أيضا، فنجد في شعره بابا واسعا فيه.
٤. عاصر ابن المعتز الثقافات الأجنبية الوافدة والثقافات الحضارية الجديدة فظهر كل ذلك في شعره.

(١) مرآة الجنان، للبالغ، (٢ / ٢٢٦).

(٢) الأغاني، (١٠ / ٢٧٦) طبعة دار الكتب.

## الفصل الأول

٥. تربي في قصور جده المتوكل وأبيه المعتز، فجاء شعره مصورا لنا حركة عمرانية ضخمة.
  ٦. كان يعيث في صغره بما تملكه جدته قبيحة من لؤلؤ وزمرد وياقوت، فجاء شعره يئن من ثقل ما يحمله من هذه الجواهر.
  ٧. تربي في ربوع سامراء وبغداد حيث الجو الجميل والنسيم اللطيل والهواء الليل والتربة الخصبة والماء الوفير وحيث الرياض والبساتين، فجاء شعره معبقا برائحة الورود والرياحين وشتى أنواع الأزهار.
  ٨. أصيب بقلق شديد لما انتابه من شقاء بعد موت جدته وأمه وتفكيره في الثأر من قتلة أبيه، فجاء شعره يئن بالشكوى وعدم الاستقرار.
  ٩. رغبته في الخلافة جعلته يقف في وجه المناوئين لها بالمرصاد، فظهر ذلك في شعره السياسي، وهو يقف في وجه العلويين والطولونيين.. وغيرهم.
- وبهذا نستطيع أن نقول: إن حياة ابن المعتز صورة لعصره - كما ذهب إلى ذلك الدكتور سعد شلبي - ولذلك فلا عجب إذ جاء شعره معبرا عن مظاهر الحضارة الإسلامية في القرن الثالث الهجري أصدق تعبير؛ لأنه لن يكون هناك أحد أصدق منه وأوعى بالحضارة منه؛ لأنه عاش الحضارة غارقا في جدها وملأها من رأسه إلى أخمص قدميه.

الفصل الثاني

مَظَاهِرُ الْحَضَارَةِ الْمُعَنَوِيَّةِ  
فِي شِعْرِ ابْنِ الْمُعْتَزِّ



إن الجوانب المعنوية للحضارة الإسلامية لا شك في أنها هي التي تميزها عن غيرها من الحضارات، فهي السمة المميزة لها، والتي جعلتها إنسانية النزعة.

والجوانب المعنوية في حضارتنا الإسلامية باقية خالدة إلى الأبد ما بقي الدين الإسلامي على ظهر الأرض، لأنها مستمدة من الدين الإسلامي فهي بخلاف الجوانب المادية التي تتأثر بعوامل الزمان والمكان وعصور القوة والضعف.

وسيحاول الباحث فيما سيأتي أن يبين المظاهر المعنوية للحضارة الإسلامية في شعر ابن المعتز العباسي. والتي تتضح فيما يلي:

### أولاً: الجوانب الإيمانية للحضارة الإسلامية

لقد قامت الحضارة الإسلامية على عدة جوانب إيمانية، استمدت منها عوامل قيامها وانتشارها، وكانت الركيزة الأساسية لهذه الحضارة. فالحضارة الإسلامية قامت على أساس الوحدانية المطلقة في العقيدة، وهي أول حضارة تنادي بالإله الواحد الذي لا شريك له في حكمه وملكه. وابن المعتز بصور لنا حال المؤمن حينما يقف ليتأمل، يتأمل في كل ما حوله، في السماوات والأرض، في الليل والنهار، في أحوال الدنيا وتقلباتها، ثم يهتدي إلى أن كل هذه المخلوقات من صنع الله، وأنها آيات يُبدع صنعه وعجائب قدرته. يقول:

دَامَ كَرُّ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ مَحْضُو  
 وَرَحَى ثَحْتَا وَأُخْرَى عَلَيْنَا  
 وَسُرُورٌ وَكُرْبَةٌ وَإِفْتِقَارٌ  
 وَمُعَانَى وَذُو سَقَامٍ وَخَسِيٌّ  
 وَغَوِيٌّ عَاصِيٌّ وَبِرٌّ تَقِيٌّ  
 وَبَخِيلٌ وَذُو سَخَاءٍ وَلَوْلَا  
 وَتَرَى صَنَعَةَ تَخَيَّرَ عَنْ عَا  
 تَيْنِ ذَا مُنْبَةِ وَقَدْ ذَا مُنْبِمٍ  
 كُلُّ مِنْ فِيهَا طَحِينٌ هَشِيمٌ  
 وَتَبْرِيقٌ لُزْغُوفٌ لَا يَدُومُ  
 وَخَبِيرٌ ثَحْتِ الثَّرَابِ مُقِيمٌ  
 وَاسْتَبَانَ الْمَحْمُودُ وَالْمَذْمُومُ  
 يُخَلُّ هَذَا مَا قِيلَ هَذَا كَرِيمٌ  
 لَقْنَا أَنَّهُ لَطِيفٌ حَكِيمٌ<sup>(١)</sup>

فإذا ما تأمل المسلم واهتدى إلى خالقه، راح يقر بالوحدانية المطلقة  
 لله وأنه واحد لا شريك له. وفي هذا يقول ابن المعتز:

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ مَا أَخَذَ دَائِمٌ عَلَى خَلْقٍ<sup>(٢)</sup>

"هذا السمو في فهم الوحدانية كان له أثر كبير في رفع مستوى  
 الإنسان وتحرير الجماهير من طغيان الملوك والأشراف والأقوياء ورجال  
 الدين، وتصحيح العلاقة بين الحاكمين والمحكومين، وتوجيه الأنظار إلى  
 الله وحده، خالق الخلق رب العالمين".<sup>(٣)</sup>

وما دام خالق الكون واحداً، فهو بيده كل شيء بيده الضر والنفع  
 بيده البسط والقبض، بيده الأمر كله. يقول ابن المعتز:

(١) الديوان، (١/٢٨٨ م).

(٢) الديوان، (١/٣٩٨ م).

(٣) من روائع حضارتنا: مصطفى السباعي، (ص: ٤٦).

غلب الإله فمن يضر وينفع وإذا سألت فرزق ربك أوسع  
 في كل شيء قوة من أمره فينا يفرق ما يشاء ويجمع<sup>(١)</sup>  
 ومن الإيمان ألا نعبد إلا الله، ولا نقصد غير الله، ولا نسأل غير  
 الله. يقول ابن المعتز:  
 تَخْفَى حاجاتي عن الناس كُلِّهِمْ وَلَكِنَّهَا لله تَسْدُو وتُظْهِرُ  
 لِمَنْ لَا يَرُدُّ السَّائِلِينَ بِخَيَّةٍ وَيَدُّو من الدَّاعِي وَيُعْطِي فَيَكْثُرُ<sup>(٢)</sup>  
 ومن الإيمان أن نؤمن بالموت، وأن عمر الإنسان ما هو إلا يوم  
 وليلة، سرعان ما ينتهي لأن الموت أقرب ما يكون منا.  
 يقول ابن المعتز:  
 وما الدُّعْرُ إِلَّا مِثْلُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وما الموتُ إِلَّا نَازِلٌ وَقَرِيبٌ<sup>(٣)</sup>  
 فالموت حق لا محالة، وكل شيء هالك إلا الله سبحانه وتعالى.  
 يقول ابن المعتز:  
 إما هلكت فكل شيء هالك غير الإله وصالح متقدم<sup>(٤)</sup>  
 ومادام الموت حقا، فيجب على الإنسان أن يتزود بالأعمال الصالحة  
 فالعمر مهما طال فهو أيام قلائل. يقول ابن المعتز:

(١) الديوان، (٢ / ٤٠٦ م).

(٢) نفسه، (٢ / ٣٩٩).

(٣) نفسه، (٢ / ٣٧٧).

(٤) الديوان، (٢ / ٣٦٣ م).

ولم أرَ مثلاً الموت حقاً كأنه إذا ما تخطته الأماني باطل  
وما أقيح التفريط في زمن الصبا فكيف به والشيب في الرأس شامل  
تَرَحَّلَ مِنَ الدُّنْيَا بِزَادٍ مِنَ التَّقَى فَعَمْرُكَ أَيَّامٌ تُعَدُّ قَلِيلٌ  
وَدَعِ عَنْكَ مَا تَجْرِي بِهِ لَجَجُ الْفَوَى إِلَى غَمَرَاتٍ لَيْسَ فِيهِنَّ سَاحِلٌ<sup>(١)</sup>  
ثم نرى ابن المعتز يصور وحدة الإنسان في قبره، بعد أن كافح  
غمرات الموت وسكراته. يقول:

آه مِنْ سَفَرَةٍ بِغَيْرِ إِيَابِ آه مِنْ خَسَرَةٍ عَلَى الْأَحْيَابِ  
آه مِنْ مَضْجَعِي قَرِيداً وَحِيداً فَوْقَ قَرَشٍ مِنَ الْخَصَى وَالْشَرَابِ  
آه مِنْ سَكْرَةٍ بِغَيْرِ شَرَابِ آه مِنْ وَثْبَةٍ بِغَيْرِ رِكَابِ<sup>(٢)</sup>

ثم ينادي ابن المعتز أصحاب القصور، وأصحاب الأموال أن  
يستعدوا للموت، فالقصور فانية والأموال زائلة. يقول:

أَيُّهَا يَا بَنِي الْقَصْرِ اسْتَعِدُّ لِسُفْرَةٍ وَيَا حَاضِنِ الْأَمْوَالِ سَوِّفَ تُطِيرُ<sup>(٣)</sup>  
ثم نراه يعاتب، فيقول:

أَلَمْ تَسْتَحْيِ مِنْ وَجْهِ الْمَشِيبِ وَقَدْ نَاجَاكَ بِالسَّوْعِطِ الْمَشِيبِ  
أَرَأَيْكَ تُعِدُّ لِلْأَمْوَالِ دُخْرًا فَمَا أَعَدَدْتُ لِلْأَجَلِ الْقَرِيبِ<sup>(٤)</sup>

فالحياة ما هي إلا سفر إلى مرحلة ما بعد الموت، فالكل ميت، وباب  
الموت مفتوح ولن يغلق حتى ينفذ جميع البشر. يقول:

(١) نفسه، (٤١٣/٢) م.

(٢) نفسه، (٣٨١/٢) م.

(٣) الديوان، (٣٩٩/٢) م.

(٤) نفسه، (٧٧/٢) م.

وَقَدْ بَدَأَ لِي فِيمَا قَدْ هُدِيتُ لَكَ      أَنْ الْحَيَاةَ إِلَى دَارِ الْبَلَى سَفَرُ  
هَلْ أَنَا إِلَّا مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ مَضَوْا      عَاشُوا بِأَنْعَمِ عَيْشٍ ثُمَّ قَدِ قَبِرُوا  
كَيْفَ الْبَقَاءِ وَبَابِ الْمَوْتِ مَفْتُوحٌ      وَلَيْسَ يَفْلُقُ حَقٌّ يَنْفُذُ الْبُشْرَ<sup>(١)</sup>

والمسلم يؤمن بيوم الحساب، يوم يقف الناس حفاة عراة كل رهين عمله، وفي هذا ينادي ابن المعتز: كل خارج مارق على الدين، ينادي عبید المادّة، ينادي الأقوياء الظلمة، ينادي عبید الشهوات والأهواء بأن الدنيا قد اقتربت نهايتها، وأن الآخرة لأتية عما قريب. يقول:

يَا ذَا الْغَى وَالسُّطُوَّةَ الْقَادِرَةَ      وَالْدَوْلَةَ النَّاهِيَةَ وَالْأَمْرَةَ  
وَيَا شَيْطَانِ بْنِ آدَمَ      وَيَا عَيْدَ الشَّهْوَةِ الْفَاجِرَةَ  
انْظُرُوا الدُّنْيَا فَقَدْ أَقْرَبَتْ      وَعَنْ قَلِيلٍ تَلِدُ الْآخِرَةَ<sup>(٢)</sup>

والدنيا عند المسلم وسيلة إلى غاية، فهي دار ابتلاء وامتحان، وستنقود الإنسان إما إلى غي وإما إلى رشد. يقول:

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا بَلَاغٌ لِهَاجَةٍ      فَإِمَّا إِلَى غَيٍّ وَإِمَّا إِلَى رُشْدٍ<sup>(٣)</sup>

ثم نرى ابن المعتز يبادر بالتوبة إلى الله، توبة المسلم، كل مسلم قبل أن يأتي يوم الحساب، ويلاقى عقاب ما قدمت يداه من ذنوب، فالموت محاط بالنفس من كل جانب، فيقول:

(١) نفسه، (٣٩٦/٢) م.

(٢) نفسه، (٣٩٩/٢) م.

(٣) نفسه، (٦٣/٢) م.

أسأت فلا أعود إلى العتاب      وجئتك تائباً قبل العقاب  
وروحى بين أسباب المنايا      يطالعها الردى من كل باب  
فهذا الذنب أول كل ذنب      وآخره إلى يوم الحساب<sup>(١)</sup>

ومن الإيمان أن يؤمن المسلم بالقضاء والقدر خيره وشره، ويضع في قرارة وجدانه أن كل شيء بيد الله، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعت على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء كتبه الله عليه. فهو يضع نصب عينه قول الله تعالى: "قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ"<sup>(٢)</sup> وابن المعتز يقر قضية الإيمان بالقضاء والقدر في شعره، فكل شيء قدره الله سبحانه سوف يتم فلا داعي للأسف والفجعة. يقول:

لا تأسفن على شيء فجعت به      فكل ما قدر الرحمن مصنوع<sup>(٣)</sup>

ونرى ابن المعتز يجمع لموت المعتضد، ويتألم من الدهر، ولكنه سرعان ما يعود ويستغفر الله مقراً بوحدايته؛ لأن هذا قدر الله ولا بد أن يتم. يقول:

يا دهر ويحك ما أبقيت لي أحداً      وأنت والد سوءٍ تأكل الولدا  
استغفر الله بلى ذا كله قدر      رضيت بالله رباً واجدا صمدا<sup>(٤)</sup>

(١) نفسه، (٣٨٤/٢) م.

(٢) التوبة، الآية (٥١).

(٣) الديوان، (٤٠٦/٢).

(٤) نفسه، (٣٣٠/٢).

والمسلم يؤمن بأن الله هو المتكفل بالرزق لعباده، "وَمَا مِنْ ذَاتَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرُّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا" (١).

يقول ابن المعتز في ذلك:

قُلْ لِلْمُطَالِبِ قَدْ أُلْضِيَ رِكَابُهُ لَا تَعْجَلَنَّ فَإِنَّ الرِّزْقَ مَقْدُورٌ (٢)

ويقول أيضا:

يَا طَالِبًا مُسْتَعِجِلًا رِزْقَهُ الْمَوْتُ يَأْتِيكَ عَلَى مَهْلٍ (٣)

ثم نراه يتعجب من الذين يلحون في طلب الرزق، وهم يعلمون أن

الله ضامنه، يقول:

أَرَى الْمَرْءَ يَدْرِي أَنَّ لِلرِّزْقِ ضَامِنًا وَلَيْسَ يَظَلُّ الْمَرْءَ مَا عَاشَ طَلِبًا

وَمَا قَاعِدَ إِلَا كَأَخْرِ سَائِرٍ وَإِنْ أَدَّابَ الْعَيْنِ الْمُرَاسِيلَ إِدَّابًا

فَيَا نَفْسِ إِنَّ الرِّزْقَ تَهْوُكِ قَاصِدٌ فَلَا تَتَّبِعِي خَسِيٍّ مِنَ الرِّزْقِ أُنْعَابًا (٤)

ولكن ما موقف المسلم من هذا الرزق الذي هو من عند الله سبحانه وتعالى؟ عليه أن يثنى على الله ويشكره، وأن ينفق ما أعطاه الله، ولا يمنع ما يملك عن أي محتاج؛ لأن الرزق من عند الله وهو صاحبه، وأن الذي أعطاه يستطيع أن يسلبه منه. يقول ابن المعتز:

(١) سورة هود، الآية (٦).

(٢) اللديون، (٢ / ٦٨).

(٣) نفسه، (٢ / ٤١٥).

(٤) نفسه، (١ / ٢٢٧).

وما المال إلا للثناء وللشكر وللطالب المطلوب فيه ندى الأجر  
 ألا فقدت نفسي إذا أبت دافعا يعني أخا فقر أخاف أذى الفقر<sup>(١)</sup>  
 والمرء سيسأل يوم الحساب عن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه،  
 فعليه أن يبحث لماله عن أبواب الخير فينفقه فيها بدلا من أن يجمعه  
 ويمنعه.

يقول ابن المعتز:

يا جامعا مانعا والسدر يرمقه مقدر أي باب فيه تغلقه  
 جمعت مالا ففكر هل جمعت له يا جامع المال أياما لفرقه<sup>(٢)</sup>  
 فعلى الإنسان أن يسرع بإنفاق ماله ولا يمنعه كل محتاج؛ لأنه سوف  
 يموت، غنيا كان أم فقيرا، وسيترك ماله لوارثيه، فقد يحصد الثمر غير  
 الزارع، يقول ابن المعتز:

يا مال كل مانع ووارث أبشر برب واث وحادث  
 إن الغنى والفقر غير لابت ولا يهاب الموت نفث النافث  
 قد يحصد الحبة غير الحارث وتدهق الدلو لغير النابث<sup>(٣)</sup>

وجميع هذه النواحي الإيمانية كلها ربما تتجمع في "التقوى" فالمسلم  
 يجب أن يراعى الله في كل أقواله وأفعاله، يتقيه، يحل ما حلل، ويحرم ما  
 حرم، ويترك الذنوب صغيرها وكبيرها، وإلى هذا يرشدنا ابن المعتز،  
 ويعطينا درسا في ماهية التقوى. وهي أن نترك جميع الذنوب، وألا نحترق

(١) الديوان، (٦٧/٢).

(٢) نفسه، (٤٠٨/٢).

(٣) نفسه، (٣٨٧/٢)، وتدهق من أدهق للكأس ملأها، وكأس (دهاق) مستنقة.



الصغائر، فهل الجبال الضخام إلا من الحصى، وعلينا أن نقضي هذا العمر نحذر المعاصي ونتعامل مع الدنيا وكأنها أرض شائكة نتعامل معها بحذر، يقول في أبيات بليغة:

خَلَّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا      وَكَبِيرَهَا فَهُوَ الثَّقْبُ  
كُنْ مِثْلَ مَا فِي فَوْقِ أَرْضِ الشُّوكِ      يَحْذَرُ مَا يَرَى  
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً      إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى<sup>(١)</sup>

وبعد فهذه بعض الأسس الإيمانية للشخصية المسلمة التي قامت عليها الحضارة الإسلامية في كل مكان وفي كل زمان حيث لا فواصل ولا حدود. فالمسلم يؤمن بأن الله واحد، فلا يخشى إلا هو، والمسلم يؤمن بالموت، ولذلك فالدنيا عنده وسيلة لا غاية، والمسلم يؤمن بيوم الحساب؛ ولذلك يجب عليه أن يعد العدة له من خير الأعمال. والمسلم يؤمن بالقضاء والقدر، فهو يسلم بكل ما يصيبه لأنه من عند الله، المسلم يعلم أن الله قد قدر رزقه، ولذلك فهو لا يزاحم عليه ولا يتصارع من أجله. المسلم يعلم أن المال مال الله، ولذلك فعليه أن يتصرف في مال الله بأمانة، المسلم عرف الحلال والحرام، ولذلك فعليه أن يتقى الله. فهذه القيم التربوية السامية للنفس الإنسانية خرج إنسان الحضارة الإسلامية ينتشر في ربوع الأرض، لا يخشى أحدا غير الله، فهو باع دنياه بآخرته.

(١) الديوان، (٢ / ٣٧٦).

### ثانياً: الأخلاق والسلوك

الخلق الكريم هو الهدف الأساسي لرسالة الإسلام كما يعبر عنه الرسول (ﷺ) في حديثه ( إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ). فكأن الرسالة التي خطت مجراها في تاريخ الحياة، وبذل صاحبها جهداً كبيراً في مد شعاعها وجمع الناس حولها، لا تتشد أكثر من تدعيم فضائلهم، وإنارة آفاق الكمال أمام أعينهم. حتى يسعوا إليها على بصيرة. والأخلاق في الإسلام عمل يعمل لا كلام يقال، عمل مبعثه القلب لا كلام مكانه اللسان، وهي أيضاً سلوك يهdy إلى طريق الحق... والأخلاق الكريمة بلا شك عليها مدار الأمور كلها، فأمر في الحياة لا يصاحبه حسن الخلق لن يكون مقبولاً ولا نافعا... وأي عمل جاء مع الخلق الكريم كان موصلاً للغاية محققاً لأهدافه، مقبولا عند تنفيذه وتطبيقه. وأي أمة توافر لها حسن الخلق في أفرادها كانت أمة متماسكة مترابطة تسودها المحبة والوئام... متفرغة للبناء والتعمير والتقدم.

وجملة ما يراد أن يقال " إن الأخلاق التي جاء بها القرآن شملت الحياة كلها فأمرت بالتعاون والمودة والعفة والرحمة والإحسان، والصدق، والإخلاص، والاستقامة، والنظافة والصلاح والإخاء، والعفو، والصبر، والثبات والشجاعة وحسن الضيافة، والتكافل والطهر، والصفح والحب، والتسامح والسلام... ولم يكتف القرآن الكريم بهذا بل أكدوا لضبط السلوك وأخلاقيات المسلم، نهى عن الاعتداء والعدوان والبهتان والظلم والبخل

والغضب واللمز والحسد والنفاق والخداع والإسراف، والغش، وقتل النفس بغير حق، والكذب ولغو الحديث، وشهادة الزور، والخلاعة، والابتذال، والغيبة والنميمة والخيانة والسرقعة والخصومة والسخرية...<sup>(١)</sup> فيما لو فصلناه لوجدناه كله في القرآن.

وربما لاح لنا أن الأخلاق الإسلامية قد انهارت في القرن الثالث الهجري، ولم يصبح هم الناس إلا السكر والعريضة والابتذال، أو يظهر لنا أنهم تبذلوا الدين أو أنهم هجروه. أو يبدو لنا انتشار الفحش والجري وراء الجواني والقيان والزواج بهن أو " ما يبدو من طرق التعذيب والقتل البشعة التي كانت تزرى بكرامة الإنسان، أو حب المال الذي أصبح له من القوة ما تحق كل قيمة أخرى بل وبلغت وصمة حب المال والمكر لتحصيله أعلى طبقات رجال الدولة ".<sup>(٢)</sup> أو حركة الزندقة والإلحاد التي لم تهدأ في هذا العصر، أم " أن الشعبية قد ظلت نيرانها مشتعلة فوجد كثيرا ممن يشيدون بفضائل شعوبهم القديمة وحضارتها ومدنيتها ".<sup>(٣)</sup>

كل هذا صحيح ولكن هذه وجهة واحدة للمجتمع " فإذا كان هناك ترخص في إباحة اللذات، فقد كان هناك أيضا أناس غالون في النهي عنها يثورون على أصحابها في الحين ليقوموا المنكر باليد واللسان ".<sup>(٤)</sup>

( ١ ) أضواء على الحضارة الإسلامية، (ص: ١٥٣).

( ٢ ) آدم مرق، ( ٢ / ١٣٢ ).

( ٣ ) العصر العباسي الثاني، (ص: ٩٧).

( ٤ ) ابن الرومي، العقاد، (ص: ٤٤).

وابن المعتز العباسي في القرن الثالث الهجري يقر في شعره العديد من المعاني السامية في الأخلاق والتي يجب أن يتحلى بها كل مسلم، والتي نادى بها الدين الإسلامي، ينادي بها ابن المعتز ويلح عليها.

فنراه يدعو إلى المتوكل على الله؛ لأن الله سبحانه هو الذي بيده كل شيء فلا يصح أن نتركه ونتوكل على من يطلبونه أمثالنا، يقول:

دَعِ النَّاسَ قَدْ طَالَ مَا أَتَبَوَّلُ      وَرُدُّ إِلَى اللَّهِ وَجَةَ الْأَمَلِ  
وَلَا تَطْلُبِ الرِّزْقَ مِنْ طَالِبٍ      سِـ وَاطْلُبْهُ مِنْ يَدِ قَدِ كَفَّلِ<sup>(١)</sup>

والمسلم في كل أحواله يشكر الله على جميع نعمه تحقيقاً لقوله تعالى: "وَلَيْنُ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ"، وهنا يقر ابن المعتز العباسي هذا الشكر مقرونا بالصبر على البلاء. يقول:

يَا نَفْسِ صَبِرًا صَبِرَا      أَمَا عَرَفْتَ السَّهْرَا  
لِلَّهِ مِثْلِي قَلْبٌ      يَقْرِي الْبَلَا شُكْرَا<sup>(٢)</sup>

ونرى ابن المعتز يؤكد الآية السابقة مستبدلاً للشكر بالحمد، يقول:  
قدم على الحمد لله الحميد يدم      مزیده لك من خير ونعماء<sup>(٣)</sup>  
ومن خلق المسلم إذا أخطأ يسرع إلى الله تائباً، وطالبا عفوه ومغفرته؛ لأن العمر يسير بالإنسان، والموت حتما ملاقيه، فلا يصح أن يضيع عمره سدى. يقول ابن المعتز في هذا المعنى:

(١) الديوان، (٢ / ٤١٥)، طبعة دار المعارف.

(٢) نفسه، (٢ / ٦٥).

(٣) الديوان، (١ / ٤٤٨).

جَدُّ الزَّمَانُ وَأَنْتَ قَلْبُكَ وَالْمُزْمَرُ فِي لَا شَيْءٍ يَلْقَبُ  
كَمْ قَدْ تَقُولُ غَدًا أَتَوُ بَ غَدًا غَدًا وَالْمَوْتُ أَقْرَبُ<sup>(١)</sup>

ثم نجد ابن المعتز يخاطب نفسه، بل نفس كل مسلم، يحتثها على التوبة والإكثار من العمل الصالح، وألا تغتر بعز أو سلطان، فكل شيء يزول فكم من ملك زال، وإنا به لاحقون، يقول:

توبي يكن لك عند الله جاه تقى وقدمي من فعال الصالحين قدم  
لا يعجبك سلطان ومقدرة كم غبط العز والسلطان ثم رجم  
أين الملوك الأولي كانوا وما جمعوا فهؤلاء مثلهم فاصبر كان بهم<sup>(٢)</sup>

ثم يتوجه ابن المعتز إلى الله سبحانه وتعالى يقر ويعترف بأنه ليس له عذر في التوبة والعودة، وكم حوله من المواعظ التي يبثها الدهر في كل لحظة، ولكنه كأن في أذنيه وقر، وهو مع هذا كله يعلم أن الله غفور رحيم بعباده، يقول:

رب ما عندي عذر ولكن عندك اللهم ربي غفر  
ليس بالدهر عن الوعظ صمت بل بأذني عن السوعظ وقر<sup>(٣)</sup>

ومن خلق المسلم أن يثق في الله سبحانه وتعالى ثقة مطلقة يرجوه ولا يرجو سواه ويحط عنده رحاله، وأن يكظم غيظه، وألا يتسرع في نيل ما يبغيه، فالدنيا أحوالها متقلبة، يقول:

(١) نفسه، (٢ / ٢٨٣).

(٢) الديوان، (٢ / ٤١٨)، دار المعارف.

(٣) الديوان، تحقيق: ميشيل نعمان، (ص: ١٩٥).

فرغ رجاءك واحطط أرجلا قلققت      على المطايا وثق بالواحد الأحد  
واجرع حسى الغيظ ما لم تلق فرصته      ولا تثب كوثوب العير في السأد  
كَمْ راسِبٍ فِي عِمَادِ الْمَلِكِ نَحْسِبُهُ      فِي لَذَّةٍ وَهُوَ فِي غَمٍّ وَفِي كَمَدٍ  
وَعَاقِدَ فَوْقَ أَمْوَالٍ يُجَمِّعُهَا      قَدْ أَصْبَحَتْ بَغْدَةُ مَخْلُوءَةَ الْعُقَدِ  
وَمُبْرِمٍ أَمْرَةً وَالشُّهُرُ يَنْقُطُهَا      هَلْ غَالِبَ الشُّهُرِ يَا لِلنَّاسِ مِنْ أَحَدٍ  
وَأَيْسَ مَلِئْتُ صِيدَا حِبَالِنَا      وَطَامِعَ رَدٍ مَحْرُومًا وَلَمْ يَصُدْ<sup>(١)</sup>

ومن خلق المسلم الرضا بالرزق وعدم الطمع، وابن المعتز يوضح لنا أن غنى النفس في قناعتها وقوتها، ويخاطب نفسه بأنه تترك المطامع والأمانى في الدنيا، لأن الموت يغلب كل أمنية، يقول:

أَلَا يَا نَفْسِ إِنْ تَرْضَى بِقَوْتِ      وَأَنْتِ غَزِيرَةٌ أَبَدًا غَنِيَّةٌ  
دَعِي عَنْكِ الْمَطَامِعَ وَالْأَمَانِي      فَكَمْ أُمْنِيَّةٌ جَلَبَتْ مَنِيَّةً<sup>(٢)</sup>

ومن خلق المسلم أن يحق الحق ويزهق الباطل، لا محاباة لأحد ولا خوفا من حاكم ولكن لأن للدين سلطانا على ضميره يلزمه ويوجهه. وفي هذا المعنى يقول ابن المعتز:

وَأَنَا لَنُعْطِيَ الْحَقَّ مِنْ غَيْرِ حَاكِمٍ      عَلَيْنَا وَأَوْ شِئْنَا كَتَمْنَا عَلَى ظُلْمٍ<sup>(٣)</sup>

ومن خلق المسلم الصبر واللجوء على الله. وقد أمرنا الله سبحانه بالاستعانة بالصبر في كل أمر فعسى الله أن يجعل بعد العسر يسرا ولعل بعد الضيق يأتي الفرج، يقول ابن المعتز:

(١) الديوان، (٢ / ٣٩٠)، مطبعة دار المعارف.

(٢) الديوان، (٢ / ٤٢٤)، مطبعة دار المعارف.

(٣) نفسه، (١ / ٢٨٧).

## الفصل الثاني

اصبر لَعَلَّكَ عَنْ قَلِيلٍ بِالْغِ بِتَفَضُّلِ الرَّهَابِ ذِي الْإِحْسَانِ  
فَرَجًا يُضِيءُ لَكَ انْفِثَاقُ صَبَاحِهِ مُتَّبِعًا مِنْ ظُلْمَةِ الْأَحْزَانِ (١)

بل نجد أنه يذهب على أنه يجب أن نصبر على أعدائنا، فربما يقتلهم صبرنا عليهم، وربما ينال الفتى بالصبر ما لم ينله بغيره، يقول:

اصبر عَلَى مَضَضِ الْحَسَوِ دَفِئًا صَبْرًا قَاتِلُهُ  
فَائِزًا تَاكُلُ نَفْسُهَا إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ  
فَلَرُبَّمَا نَالَ الْفَقْرُ بِالصَّبْرِ مَا لَمْ يَأْمَلْهُ (٢)

ويجب على المسلم أن يلجا بعد ذلك على الله لا لأحد سواه لأن الله سبحانه وتعالى معطاء قريب ممن يدعوه، يقول:

تَخْفَى حَاجَاتِي عَنِ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَلَكِنَّهَا لِلَّهِ تَبْدُو وَتُظْهِرُ  
لِمَنْ لَا يَرُدُّ السَّائِلِينَ بِخَيْرٍ وَيَدْنُو مِنَ الدَّاعِي وَيُعْطِي فَيَكْثُرُ (٣)

والحلم من الأخلاق الحميدة، ولقد قال الرسول الله صلى الله عليه وسلم "الحلم سيد الأخلاق"، فما أجمل أن يتخلق به المسلم. والحليم عندما يغضب يكون عنيفا في غضبه. ولذلك أوصانا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، فقال: "اتقوا شر الحليم إذا غضب" وهذا ابن المعتز العباسي يحذرننا من أن نترك الحليم حتى يبلغ المدى في حلمه فربما يكون الشر بعد ذلك. يقول:

لَا تَأْمَنُوا مِنْ بَعْدِ حِلْمٍ شَرًّا كَمْ غُصْنٍ أَخْضَرَ صَارَ جَمْرًا

(١) الديوان، (٢ / ٤٢١)، دار المعارف.

(٢) نفسه، (٢ / ٤١٢).

(٣) الديوان، (٢ / ٤٢١)، دار المعارف.

أما عن السلوك الإسلامي الحميدة فمنها الوفاء بالوعد حتى أن رسول الله (ﷺ) قد جعل الإخلاف في الوعد من آيات النفاق. وابن المعتز العباسي يجعل الوعد ديناً لا بد أن يقضى. فهو في هذه الأبيات يوصي بترك العدو للدهر يتشفى منه، ويجعل الوعد ديناً، والعطاء يقلل من قدره كثرة التسويف، ثم يقر بعد ذلك نتيجة مهمة وهي أن القرآن الكريم المعطاء الذي يفي بوعد خالد أبد الدهر، وحياته كالسراج يعرفها كل حي. يقول:

خَلَّ الْقَدْرُ قَدْرَهُ      تَشَفَّى مِنْهُ صُرُوفُهُ  
وَالْوَعْدُ دِينَ وَالْعَطَا      مُسْتَعَيَّبٌ تَسْوِيفُهُ  
إِنَّ الْكَرِيمَ مَخْلُودٌ      وَخَائِلٌ مَعْرُوفُهُ<sup>(١)</sup>

والعفو من السلوك الإسلامي، فكم من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية جاءت تحت على العفو والصفح وتنادى به. قال تعالى "وَمَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ"<sup>(٢)</sup> وكان ابن المعتز قد أخذ هذه الآية وطبقها تطبيقاً عملياً في حياته، فنراه يعرف من يدس له الكيد فيعفو عنه ويداويه بعفوه وفطنته فيعود هذا العدو صديقاً له بعد ما كان شائناً له. يقول:

ألا رب دسّاس إلى الكيد حاصل      ضباب الحقود قد عرفت ود واوبت  
فعاد صديقاً بعدما كان شائناً      بعيد الرضا عني فضائي وصافيت<sup>(٣)</sup>

(١) الديوان، (١ / ٢٦٦)، دار المعارف.

(٢) الديوان، (٢ / ٤٠٧)، دار المعارف.

(٣) سورة فصلت، (الآية: ٣٤).

(٤) الديوان، (١ / ٢٣٨)، دار المعارف.



## الفصل الثاني

بل إن ابن المعتز يذهب في العفو إلى أبعد من هذا فنراه وهو يمدح الخليفة المعتضد، يرسخ قاعدة في العفو، يبيها كل مسلم وهي أن نعفو فيما نملكه نحن أما حقوق الله وحدوده فلا عفو فيها فلا بد أن تنفذ ولا نخشى في الحق أحدا. يقول:

إِنْ عَفَا لَمْ يُلْغِ اللَّهُ حَقًّا      أَوْ سَطَا لَمْ تَخْشَ مِنْهُ جُنَاحًا<sup>(١)</sup>

والكرم من سلوك المسلم، بكرم ضيفه، ينفق من ما له لأن المال مال الله، وسيسأل عنه يوم القيامة، وابن المعتز يناهز بأعلى صوته بالإتفاق والكرم، لأن المرء لن يلبث طويلا في الدنيا، فإن لم ينفق ما له في وجوه الخير سيتركه لورثته ينفقونه. يقول:

سَابِقٌ إِلَى مَالِكَ وَرَائِهِ      مَا الْمَرْءُ فِي الدُّنْيَا بَلَاءٌ  
كَمْ صَامَتْ تَخْفِقُ أَكْيَامُهُ      قَدْ صَاحَ فِي مِيزَانِ مِيرَاثٍ<sup>(٢)</sup>

فالإنسان إذا لم يجد بماله في حياته، فسيجود به الدهر على ورثته، لأنه سيذهب إلى قبره صفر اليدين، ويقول أيضا إن الكرم لا يؤدي إلى الفقر؛ لأن الله سبحانه وتعالى ضامن للرزق، فلا عذر للبخل إذن يقول:

إِذَا لَمْ أَجِدْ بِالمَالِ جَادَ بِهِ الدَّهْرُ      عَلَى وَارِثِي وَالْكَفُّ فِي قَبْرِهَا صَفْرُ  
وَكَيْفَ أَخَافُ الْفَقْرَ وَاللَّهُ ضَامِنٌ      لِرِزْقِي وَهَلْ فِي الْبُخْلِ بَعْدَ ذَا عُدْرُ  
فَخَلَوْا يَدِي تُمْطِرُ بِوَابِلِ جُودِهَا      عَلَى النَّاسِ حَتَّى يَعْجَبَ الْغَيْثُ وَالْبَحْرُ<sup>(٣)</sup>

(١) الديوان، (٤٦٨/١)، دار المعارف.

(٢) الديوان، (٣٨٨/٢)، دار المعارف.

(٣) الديوان، (٢٦٦/١)، دار المعارف.

ونراه في أبيات رائعة الجمال يؤكد صفة الكرم. ويقول إنه يأبى أن يبخل بماله عن ضيفه بل حتى عن القادر، وأنه يصلح ما بقي من ماله بعد الإنفاق فيستخدمه استخداما حسنا حتى يستطيع أن يجد طيلة عمره. يقول:

أَيُّنَا لِمَالٍ أَنْ تَصُونَ كَرَامَةً      عَنِ الصَّيْفِ وَالْعَافِينَ فِي الْحَصْبِ وَالْمَحَلِ  
وَتَصْلِحَ مَا أَبْقَى لَنَا مِنْهُ جُودُنَا      لِتَجْرِيَ مَا عَشْنَا عَلَى عَادَةِ الْفَضْلِ<sup>(١)</sup>

ويقول أيضا:

وَمَالٍ قَدْ خَلَلْتُ الْوَعْدَ عَنْهُ      إِذَا انْعَقَدَتْ بِهِ نَفْسُ التَّحِيلِ  
وَأَوْثَرُ صَاحِبِي بِفَضْلِ زَادِي      وَأَحْيِي التَّفْسَ بِالْأَلِّ الْقَلِيلِ<sup>(٢)</sup>

وحفظ السر من السلوك الإسلامي الذي أو صانا به الإسلام فقد أوصانا رسولنا الكريم بأن نستعين على قضاء حوائجنا بالكتمان.

وهذا ابن المعتز العباس يوصينا بكنم السر، ويذهب إلى أنه لا يجب أن نلوم من يفشي سرنا مادامنا لم نصنه نحن، فالسر لا يسمى سرا مادام صاحبه أباح به. يقول:

لَا تَلُمُ مَنْ لَمْ يَكُنْ سَرَكُ إِذْ      لَمْ تَصْنَهْ وَاحْذَرِ وَانْتَهَبْ  
لَا يَكُونُ السَّرُّ إِلَّا كَاسْمِهِ      لَا تَسْمِ السَّرَّ مَا قَدْ بَحَثَ بِهِ<sup>(٣)</sup>

بل يوصينا أن نكنم السر عن الحبيب والعدو؛ لأنه يباح من كليهما:  
فَاكْنُمِ السَّرَّ حَبِيبًا وَعَدُوًّا      فَهُوَ مِنْ هَذَا وَهَذَاكَ يَشِيعُ<sup>(٤)</sup>

(١) الديوان، (٢٧٩/١)، دار المعارف.

(٢) نفسه، (٢٨٣/١)، دار المعارف.

(٣) الديوان، (٢ / ٣٨٥)، دار المعارف.

وحسن اختيار الصديق مسلك إسلامي، فربما يوجد صديق يبلغ من حبه وإخلاصه وتقانيه في خدمة صديقه مبلغ الأخوة، وبإحبا لو كانت هذه الصداقة قد بنيت على الحب في الله. وابن المعتز يوصينا بالمحافظة على الأصدقاء لأنهم كنز. يقول:

إنما الأصدقاء كثر فكونوا خريزا للصديق أو ياقوتا<sup>(٢)</sup>

ثم يوصينا بأن نصل أخلاعا ولا نستمع لملامة لائم. يقول:

لا نستمعن ملامة إن الملام من الفضول

واصل خليلك إنما الد نيا مواصلة الخليل<sup>(٣)</sup>

بل يذهب إلى أن الوفاة ليست موتا للإنسان، إنما فرقة الأحباب هي الموت. يقول:

قد تذكرت أن نلعر سرا وخزاء الإحسان بالإحسان

ليس موت الوفاة للمرء موتا إنما الموت فرقة الإخوان<sup>(٤)</sup>

فالأصدقاء جزء لا يتجزأ من الإنسان، لا يستغنى عنهم، ولا يستلذ العيش بدونهم وهم نسيم الحياة النقي الذي يشفى به المرء غليل نفسه وبيته مكنون صدره.

والنظافة مسلك إسلامي جميل. نظافة الثوب، نظافة البدن، نظافة الضمير، وكم من الأحاديث النبوية الشريفة جاءت لتدفعنا إلى النظافة دفعا.

(١) الديوان، (١ / ٢٧١)، دار المعارف.

(٢) الديوان، (٢ / ٤٣٣).

(٣) الديوان، (٢ / ٤١٦)، مطبعة دار المعارف.

(٤) نفسه، (٢ / ٤٢١).

والرسول الكريم (ﷺ) قد ركز في تربيته الإسلامية لأمة الإسلام على وجوب الاعتناء بالمظهر وضرورة الاهتمام بالشكل، لتمييز الأمة الإسلامية على غيرها من الأمم في كل مظهر يدل عليها، وليكون المسلم مقبولا مرغوبا فيه. ومن النظافة حف الشارب. تقليم الأظافر، ونشف الإبط، حتى يكون المسلم وسيما رائحته طيبة.

وهذا ابن المعتز يتأذى من رائحة إبطي رجل قد مر بمجلسهم ويتأذى منه المجلس، ويأمره أن ينتف إبطيه، ولا يتعلل في النظافة بأي علة. يقول:

قَدْ تَنَزَّ الْمَجْلِسُ مُذْ جِئْنَا      فَكُلُّ مَنْ مَرَّ بِهِ يَصُقُّ  
فَقَدْ إِبْطَيْكَ وَأَشْجَعَهُمَا      فِي الصَّيْفِ بِأَمْرِكَ يَا أَحَقُّ  
وَلَا تَقُلْ مَا فِيهِمَا حِيلَةٌ      فَاحْشُ قَدْ يُكْتَسُ أَوْ يُطِيقُ<sup>(١)</sup>

وعيادة المريض من السلوك الإسلامية الحميدة: فقد جعلها الرسول (ﷺ) من حق المسلم على المسلم، ولكن يجب على المسلم أن يراعى حالة أخيه المريض فلا يؤذيه بطول مكثه عنده. وابن المعتز وهو في مرضه يشتكي من كثرة العواد الذين يطيلون في عيادته. ويذهب إلى أنهم ما أتوا إلا لإرادة الأجر من الله فقط. يقول:

وَعَوَاذُ يُطِيلُونَ      كَمَا رُبَّمَا رُبَّتِ الْحُمُرُ  
يُقَادُونِي وَيَأْتُونِي      إِذَا صُلِّيَتِ الظُّهُرُ  
أَرَادُوا الْأَجْرَ فِي بَرِّي      وَفِي هَجْرِي لَهُمْ هَجْرٌ<sup>(٢)</sup>

(١) نفسه، (٤٥٧/٢).

(٢) الديوان، (٢ / ١٧٧)، دار المعارف.

أما عن الرذائل النفسية الممقوتة والتي رفضها الإسلام فمنها البخل والحرص، فهناك أناس يقتلهم الحرص ويقضى عليهم الطمع. وابن المعتز يجعل من الحرص ذلاً لصاحبه؛ لأن همه كله جمع الأموال ولا يبالي في ذلك عزة ولا كرامة، ويعرض نفسه لأسباب المعرة والهوان، ويجعل من البخل فقراً. لأن البخل مهما كثر ماله فهو فقير، مادامت نفسه فقيرة إلى حاجاتها وطلباتها. فما جدوى المال إذا كانت النفس محرومة. يقول:

والحرص ذل والبخل فقر      وآفة النائل المطال  
والخير سهل حلوجناه      والشر يكفيكه اعتزال<sup>(١)</sup>

والنفاق من الرذائل الممقوتة أيضاً. وابن المعتز يشكو من إخوان مرضوا بهذا الداء، فهم في حضرته أصدقاء أو قياء وفي غيبته أعداء الداء. يقول:

بَلَوْتُ أَهْلَاءَ هَذَا الزَّمَانِ      فَأَقْلَلْتُ بِالْهَجْرِ مِنْهُمْ نَصِييَ  
وَكُلُّهُمْ إِنْ تَصَفَّحْتُهُمْ      صَدِيقُ الْغَيَانِ عَدُوُّ الْمَغِيبِ<sup>(٢)</sup>

ويقول أيضاً:

لِي صَاحِبٌ إِنْ غَبْتُ يَأْكُلْنِي      وَإِذَا رَأَى فِي الثَّدْيِ سَجْدَ<sup>(٣)</sup>

ومن الرذائل المذمومة أيضاً الحسد وهو تمنى زوال نعمة الغير وابن المعتز يبين أن الحاسد لن يستطيع أن يضر أحداً مهما اجتهد في حسده؛ لأنه لا يملك النفع والضرر إلا الله. يقول:

(١) نفسه، (٤١١/٢)، دار المعارف.

(٢) نفسه، (٤٢٧ / ٢)، دار المعارف.

(٣) الديوان، (٦٠ / ٢).

وَحَاسِدٌ لَمْ يَضُرَّ      وَنَفْسُهُ جَاهِدَةٌ  
لُخَيْرُ الْخَاطِئَةِ      بِأَلْفِهَا خَامِدَةٌ  
يَصْلُحُ لِي قَوْلُهُ      بِنَيْتِ قَاسِدَةٍ<sup>(١)</sup>

والكذب عادة سيئة يرفضها الإسلام، لأنها أصل جميع المعاصي. وابن المعتز يدعو إلى عدم الكذب، لأن خير الكلام ما كان صدقاً. يقول:  
لا تكذبن فخير القول أصدقه      المال يفرق من كف تفرقه<sup>(٢)</sup>  
وبعد، فهذه بعض الأخلاق الإسلامية الحميدة التي أقرها الإسلام ودعا إليها، والبعض الآخر رذائل مقتها الإسلام ودعا إلى البعد عنها، وجدت جميعها متبلورة في شعر ابن المعتز العباسي. وليس معنى ذلك أن هذه الصفات كان يتحلّى بها مجتمع القرن الثالث الهجري، أو حتى ابن المعتز نفسه كان يتحلّى بها، ولكنها وردت كأثر إسلامي في شعر شاعر ينتمي لمجتمع إسلامي، قامت فيه حضارة إسلامية. تتفاوت فيه هذه الأخلاق والصفات بين أفرادهم. فمنهم التقي الورع الذي أخذ بها كلها، ومنهم الشقي الفاجر الذي تجرد منها كلها، ومنهم من أخذ وترك. ويتضح من ذلك أن الأخلاق والسلوك الإسلامية كانت من المقومات الأساسية للحضارة الإسلامية، لأنها تكون الإنسان الذي يكون أهلاً لاستخلاف الله في الأرض والذي به توطدت الحضارة وامتدت عبر الزمان والمكان.

(١) نفسه، (٢ / ٣٩٢).

(٢) نفسه، (٢ / ٤٠٨).

### ثالثًا: العلوم والمعارف

لقد جاء ديننا الحنيف يدعو إلى العلم ويمجده، ويرفع من شأن العلماء ويفضلهم على من سواهم. قال تعالى:

" قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ <sup>(١)</sup> .

" وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ <sup>(٢)</sup> .

" يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ <sup>(٣)</sup> .

وغير هذه الآيات الكثير الذي يركز القرآن الكريم فيها على العلم والتفكير والتأمل، والتي نفهم من الانطلاق في مضمونها إلى أن العلم في نظر الإسلام ليس خاصا بعلم الفقه والأصول والأحكام، وإنما يشمل كل إدراك يفيد الإنسان بمهمته في الحياة. ولقد جاء الإيماء بهذا واضحا في القرآن الكريم وبه كان العلم بمعناه الشامل العنصر الأول من عناصر الحياة في الإسلام.

" فالعلم في القرآن الكريم يشمل كل أنواع المعرفة التي تتصل بكل ما ينفع الناس في دينهم ودنياهم، وفي معاشهم ومعادهم، وفي أجسادهم

( ١ ) الزمر، ( الآية: ١٩ ) .

( ٢ ) العنكبوت، ( ٤٣ ) .

( ٣ ) المجادلة، ( ١١ ) .

وأرواحهم، وهذا أمر طبيعي باعتبار الإسلام نظاماً كاملاً خالداً منظم شئون الدين والدنيا، وتقيم الحياة الصحيحة<sup>(١)</sup>.

والقرن الثالث الهجري، بالرغم مما كان فيه من قلق سياسي واضطرابات في أمور الحكم، وكثير من مظاهر اللهو والمجون، إلا أنه كان في نفس الوقت عصر علم بمعنى هذه الكلمة، فبرز فيه العديد من العلوم بشتى مجالاتها. كما نجد أن معظم الخلفاء قد اهتموا بالعلم فهذا المأمون " الذي كان يخلو بالعلماء ويأمن بمناظراتهم ويلتذ بمذكراتهم علماً منه بأن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده<sup>(٢)</sup> ". كما أن إنشاء لدار الحكمة في بغداد كان عاملاً مهماً وحاسماً في انتشار العلوم وانطلاق الازدهار في الشرق الإسلامي<sup>(٣)</sup>. فقد كان حب العرب للعلم عتياً، ولم يترك الخلفاء في بغداد طريقاً لاجتذاب أشهر العلماء ورجال الفن في العالم إلا سلكوها، ومن ذلك أن أشهر أحد أولئك الخلفاء الحرب على قيصر الروم ليأذن لأحد الرياضيين المشهورين في التدريس في بغداد<sup>(٤)</sup>.

" وفي هذا العصر نشطت حركة الترجمة، فقد اتسعت في عهد المأمون وزخرت بحورها، إذ استدعى المترجمين من جميع الأقطار.. حتى أنه لم ينته عصر المأمون والمعتصم والواثق حتى لم يبق علم مما

( ١ ) أضواء على الحضارة الإسلامية، ( ص: ٣١ ).

( ٢ ) حضارة العرب، غوستاف ليون، ( ص: ١٧٤ ).

( ٣ ) جاك. م. ويسلر، ( ص: ٨٣ ).

( ٤ ) غوستاف ليون، ( ص: ١٧٤ ).



صنف فيه اليونان والسريان والفرس والهنود والنبط إلا ترجم منه أكثر من كتاب... وفترت الترجمة في عهد المتوكل ثم عادت إلى ما كانت عليه، غير أن اهتمام الخلفاء والرؤساء بها لم يبلغ عناية المأمون<sup>(١)</sup>.

وخلاصة القول: "إن ما يشاهده المرء في هذا العصر لم يكن له مثيل قبل ذلك. ففي كل مكان كلف لا حد له بالكتب، وآلاف المساجد تهتز بفصاحة العلماء، ومائة بلاط رائع تدوي بمباريات شعرية أو فلسفية، وطرق غاصة بعلماء الجغرافيا، وعلماء التاريخ، وعلماء الدين، للبحث والمعرفة وهذه أهم نقطة فكرية في التاريخ الإسلامي"<sup>(٢)</sup>.

يأتي شعر ابن المعتز العباسي مصورا تلك الحركة العلمية الجبارة، فنراه يدعو العلماء إلى السخاء بعلمهم، وأن يعلمونه غيرهم، فكما أنهم عندهم علم، فغيرهم عندهم علم أيضا، فعلى العالم أن يعطي مثملا يأخذ. يقول:

وإذا علمت العلم فاسخ به فسواك أيضا عندهم خير  
كم من رياض لا حلول بها تركت لأن مرامها وعمر  
واحتمل لعلمك أن تسوغ به لا يسخين بعلمك الكبر<sup>(٣)</sup>

وفي هذا العصر الذي تعددت فيه التخصصات. كثرت النداءات التي تطالب بالعلم والتأمل وترك الحرص وطلب الدنيا. يقول:

(١) العلوم والمعارف في العصر العباسي، أحمد زكي صفوت، (ص: ١٠).

(٢) جاك. م. ويسلر، (ص: ٩٩).

(٣) الديوان، (٢ / ٣٩٨)، طبعة دار المعارف.

أيا بني الدهر كم ذا الجهد والتعب      الله يرزق (لا) الحرص والتعب  
أما حياء أما دين أما رعة      أما تفكر معقول أما أدب<sup>(١)</sup>

أما عن كيفية التعليم في القرن الثالث الهجري، فقد كان المسجد هو النواة الأولى للمدرسة في حضارتنا الإسلامية، فلم يكن مكان عبادة فحسب بل كان مدرسة يتعلم فيها المسلمون القراءة والكتابة والقرآن وعلوم الشريعة واللغة وفروع العلم المختلفة. ثم أقيم بجانب المسجد الكتاب.. وكان الكتاب يشبه المدرسة الابتدائية في عصرنا الحاضر، وكان الكتاب الواحد من الاتساع بحيث يضم المئات أو الآلاف من الطلاب<sup>(٢)</sup>.

وهذا ابن المعتز يبين الضوضاء الشديدة التي كان يحدثها هذا الجمع الغفير من الطلاب مما كانوا يسببون الغيظ لمعلمهم. ويوضح أيضا الأجازة الأسبوعية التي كانت تعطىها الدولة يوم الثلاثاء " فقد كان الرسم جاريا منذ صدر الدولة العباسية على إغلاق الدواوين بدار الخلافة ببغداد، وقطع الأعمال يوم الجمعة، لينصرف فيه الناس إلى الصلاة جماعة، فكانوا يقضون أكثر النهار في المساجد للصلاة ولسماع الوعظ وبقيت الحال على هذا الوجه، حتى جاء المعتضد بالله الخليفة العباسي، فأضاف يوما آخر يتوسط جمعة وأخرى، وهو الثلاثاء، حيث تغلق فيه الدواوين، ويكون يوم راحة ولهو"<sup>(٣)</sup> يقول ابن المعتز:

(١) نفسه، (٢ / ٣٨١).

(٢) من روائع حضارتنا، (ص: ١٢٩).

(٣) صور مشرقة من حضارة بغداد، ميخائيل عواد، (ص: ٧٩).

يَا إِلَهَ يَا ابْنَ عَلِيٍّ فَصْنُ جَمْعِهِمْ وَأَعْفِ نَفْسَكَ مِنْ غِيظٍ وَخَوْصَاءٍ  
لَا تُجْعَلُوا فِي الْفُلَاءِ اجْتِمَاعَكُمْ إِنَّ الْكِتَابَ تَخْلُو فِي الْفُلَاءِ<sup>(١)</sup>

وقد ساعدت عدة عوامل على انتشار التعليم في هذا العصر منها صناعة الحبر واستخدام الورق في الكتابة.<sup>(٢)</sup> وقد أشار إلى ذلك ابن المعتز في أحد تشبيهاته. يقول:

أَخِي رَدِّ كَأْسِ الْخَمْرِ عَنِّي فَلَا خِرَا تَبَدَّلَتْ مِنْهَا أَسْوَدًا حَالِكًا مَرَا  
كَانَ النَّدَامَى حِينَ كَطُوا بِشَرِبِهِ مَحَابِرَ وَرَاقِينَ قَدْ مَلَتْ حَبِيرَا<sup>(٣)</sup>

ومما ساعد أيضا على انتشار التعليم تقدم الكتابة والتفنن فيها مما أدى إلى كثرة نسخ الكتب وانتشارها، حتى أنهم كانوا يكتبون بماء الذهب. يقول ابن المعتز في وصف البرق:

أَرَقْتُ لَبْرِقٍ شَدِيدِ السَّوْمِضِ تَرَامِسِي غَوَارِبَهُ بِالشُّهُبِ  
كَأَنَّ تَأَلَّفَهُ فِي السَّمَاءِ سَطُورَ كُتُبٍ بِمَاءِ الذَّهَبِ<sup>(٤)</sup>

وقد ساعد التقدم في الكتابة ووجود الأقلام والحبر والورق على نسخ الكتب مما ساعد على انتشار المكتبات حتى في البيوت. وهذا ابن المعتز يصف أرضه قد أكلت كتبه، ويبين فيها أهمية الكتب والتعلم:

كُنْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنَامِ مُعْتَزَلٌ عَلَى سَيْثَرٍ دُونَ ذَمَى مُنْسَدِلٍ  
عَلَى الَّذِي يَمْلِكُ رِزْقِي مُكِلٌ لَا رَاجِيَا لِعَظْفَرٍ مِنَ الدُّوَلِ

(١) الديوان، (٢ / ٤٢٦)، طبعة دار المعارف.

(٢) العصر العباسي الثاني، د. شوقي ضيف، (ص: ١٢٣).

(٣) الديوان، (٢ / ٢٦٣).

(٤) الديوان، (٢ / ١٥٩).

وَلَا أَحَافَ أَجَلًا عَلَى أَمَلٍ      شَغْلِي إِذَا مَا كَانَ لِلثَّاسِي شُغْلُ  
 ذَفَرْتُ فِيهِ أَوْ حَدِيثٍ أَوْ غَزَلٍ      لَا غَابَنِي وَلَا رَأَى مَنِّي زَكَلُ  
 نَحَالُهُ مَكْتَحِلًا وَمَا اكْتَحَلَ      رَاكِبٌ كَفَّ أَيْتَمًا شَاءَ رَحَلَ  
 وَإِنْ مَلَلْتُ قُرْبَهُ مَنِّي اغْتَزَلُ      أَرْقَطُ ذُو لَوْنٍ كَشِيبِ الْمَكْشَلِ  
 وَلَا يَحِلُّ مَوْضِعًا حَتَّى تُحَلَّ      وَهُوَ دَلِيلٌ لِمَقَالٍ وَعَمَلِ  
 يُقِيمُ وَزْنَ الْعَقْلِ حَتَّى يَقْتَدِلَ      وَيُذَكِّرُ الثَّاسِي مَا كَانَ أَصْلُ  
 كَأَنَّهُ يَنْشُرُ عَنْ رَقَمِ الْحُلَلِ      يُخَاطِبُ اللَّحْظَ بِنُطْقِي لَا يَكَلُ  
 وَلَا يَمَلُّ صَاحِبًا حَتَّى يَمَلَّ      فَدَبَّ فِيهِنَّ ذَبَابٌ قَدْ أَكَلَ  
 عَصَا سُلَيْمَانَ فَظَلَّ مُتَجَدِّلُ      يَنْبِي أَنَابِي لَكُ فِيهَا سَبَلُ  
 بِالْمَاءِ وَالطَّيْنِ وَمَا فِيهَا بَلَلُ      مِثْلُ الْعُرُوقِ لَا يَرَى فِيهَا خَلَلُ  
 يَأْكُلُ أَثْمَارَ الْغُفُولِ لَا أَكَلُ      حَتَّى يُرَى الْعَالَمُ مَهْجُورَ الْمَحَلِ  
 يَعُودُ وَقَافًا وَقَدْ كَانَ بَطَلُ      قَدْ فَاتَهُ الْعِلْمُ الْقَدِيمُ فَانْخَزَلَ  
 فَأَوْدَعَ الْقَلْبَ هُمُومًا تَشْتَعِلُ      وَصَيَّرَ الْكُتُبَ سَحَابًا مُتَسَحِّلًا<sup>(١)</sup>

ومن العوامل التي ساعدت على إشعال الجذوة العلمية وإمدادها  
 بوقود جزل لا ينقذ: مناظرات العلماء في المساجد وقصور الخلفاء  
 والوزراء في الكلام وفي الفقه وفي اللغة والنحو وغير ذلك.<sup>(٢)</sup>  
 وهنا يصف ابن المعتز حال صديق كل اهتماماته دنيوية ولا يهتم  
 بما حوله من أمور الخلافة أو مناظرات دينية كالخلاف بين علي ومعاوية،  
 يقول:

(١) الديوان، (٢ / ٢٠٠، ٢٠١)، دار المعارف.

(٢) المعصر العباسي الثاني: د. شوقي ضيف، (ص: ١٢٢).

وَلَسْتُ تَرَاهُ سَائِلًا عَنْ خَلِيفَةٍ      وَلَا قَائِلًا مَنْ يَغْرُلُونَ وَمَنْ يَلِي  
وَلَا صَائِحًا كَالْغَيْرِ فِي يَوْمٍ لَذَّةٍ      يُنَاطِرُ فِي تَفْضِيلِ عُثْمَانَ أَوْ عَلِيٍّ<sup>(١)</sup>

أما عن العلوم التي كان يتلقاها الطلاب في هذا العصر فهي:  
علوم إسلامية وعربية وتشمل الفقه والميراث والتفسير والنحو  
والعروض ورواية الأخبار والشعر.. وغير ذلك.

وربما يوضح لنا ذلك تلك الأبيات التي قالها ابن المعتز. فقد " روى أن البلاذري كان قد سعى عند جدته حتى أذنت له أن يجلس إليه ويؤديه فغضب أحمد بن سعيد الدمشقي - مؤديه الأصلي - واعتزل في داره فكتب إليه الأمير وسنه لا تتجاوز الثالثة عشر يقول:

أَصْبَحْتَ يَا ابْنَ سَعِيدٍ حَزَنٌ مَكْرُومَةٌ      عَنْهَا يَقْصُرُ مَنْ يَخْشَى وَيَتَعَلُّ  
سَرَّيْلَتِي حَكْمَةٌ قَدْ هَدَبَتْ شَيْمِي      وَأَجَبْتُ عَزَبَ ذَهْنِي فَهُوَ مَشْتَعَلٌ  
أَكُونُ إِنْ شِئْتَ قَسًا فِي خَطَابِهِ      أَوْ حَارثًا وَهُوَ يَوْمَ الْحَقْلِ مُرْتَجِلٌ  
وَإِنْ أَشَأْ فِكْرَ زَيْدٍ فِي فِرَاطِهِ      أَوْ مِثْلَ نَعْمَانَ لَمْ ضَاقَتْ الْحَيْلُ  
أَوْ الْخَلِيلَ غَرُوضِيًّا أَخَا فِطْنٍ      أَوْ الْكِسَائِيَّ نَحْوِيًّا لَهُ عِلٌّ<sup>(٢)</sup>

" وهو يعني بقس: قس بن ساعدة الأيادي أشهر خطباء العرب  
وأما الحارث المذكور فهو الحارث بن حلزة، ويعني بزید: زيد بن ثابت  
أبرع من تحدث في الميراث، وأما نعمان فهو أبو حنيفة الفقيه المشهور،  
والخليل والكسائي معروفان في العروض والنحو.<sup>(٣)</sup>

(١) الديوان، (٢ / ٢٩٠)، طبعة دار المعارف.

(٢) معجم البلدان، (١ / ١٣٣).

(٣) ابن المعتز العباسي: ذ. أحمد كمال زكي، (ص: ١٩).

ويشير ابن المعتز إلى رواية الأخبار والنحو والشعر مخاطباً أحد منكري هذه العلوم بقوله:

وَتَوَمَّى إِلَى عِلْمٍ خَفِيَ نَسْرُهُ      مِنْ النَّاسِ مَكْتُومٌ يُصَانُ عَنِ الْجَهْرِ  
وَتَسْخَرُ مِنْ قَالِ إِيَّيْ عَالِمٍ      بِشَيْءِ الْأَخْبَارِ وَالنَّحْوِ وَالشُّعْرِ<sup>(١)</sup>

ويقول عن آخر:

يَسْتَعْمِلُ الْغَرِيبَ فِي خِطَابِهِ      وَغَامِضَاتِ التَّحْوِ فِي كِتَابِهِ<sup>(٢)</sup>

وفي هذا العصر نمت المذاهب الدينية من معتزلة وشيعة ومتصوفة ونشأ ما يسمى بعلم الكلام، وألفت فيه كتب كثيرة. ونجد مصطلحات هذا العلم تفرض نفسها على شعر الشعراء. فنجد ابن المعتز يستخدم بعض مصطلحات هذا العلم في شعره مثل: "الظاهر"، "الباطن" و"القديم" و"الحديث" يقول:

أَطْلَتَ وَعَدْبَتَنِي يَا عَدُولُ      بَلَيْتُ فَذَعَنِي خَدِيدِي يَطُولُ  
هَوَايَ هَوَى بَاطِنٍ ظَاهِرٍ      قَدِمَ، حَدِيثٌ، لَطِيفٌ، جَلِيلٌ<sup>(٣)</sup>

ويستخدم لغة المتصوفة. فيقول:

وَأَتَّبِعُ مِصْبَاحَ الْيَقِينِ فَإِنْ بَدَأَ      لِي الشُّكُّ فِي شَيْءٍ يُرِيبُ تَنَاهَيْتُ<sup>(٤)</sup>

(١) الديوان، (٢ / ٤٤٧)، طبعة دار المعارف.

(٢) الديوان، (١ / ٥٤٠)، طبعة بغداد.

(٣) الديوان، (ص: ٣٢٩)، تحقيق ميشول نعمان.

(٤) الديوان، (١ / ٢٣٩)، دار المعارف.

ونشطت في هذا القرن الكتابات التاريخية، فمن كتابه تاريخ السيرة النبوية والأحداث الإسلامية إلى الكتابة في المدن والتراجم<sup>(١)</sup>.  
ونجد ابن المعتز نفسه يشارك في كتابة التاريخ بأرجوزته التاريخية. ومنها متناولا تاريخ مدينة الكوفة:

وَاسْتَمِعِ الْآنَ حَدِيثَ الْكُوفَةِ	مَدِينَةِ بَعِيْهَا مَعْرُوفَةِ
كَثِيرَةِ الْأَدِيَانِ وَالْأَثْمَةِ	وَهَمُّهَا تَشْتَعِلُ أَمْرَ الْأَثْمَةِ
مَصْنُوعَةٍ بِكُفْرِ بُحْتِ نَصْرِ	وَكُفْرِ نَمْرُودَ إِمَامِ الْكُفْرِ
وَعَشْرِ الشَّمْرِ بِهَا وَقَرْنِهَا	ثُمَّ بَنَى بِأَرْضِهَا وَرَشَّهَا
وَغَرَّقَ الْعَالَمَ مِنْ ثَوْرِهَا	جَزَاءَ شُرْكَانٍ مِنْ شُرُورِهَا
وَقَرَّبَتْ سَفِينَةَ الطُّوفَانِ	مِنْهَا إِلَى الْجُودِيِّ وَالْأَرْكَانِ <sup>(٢)</sup>

(١) العصر العباسي الثاني، د. شوقي ضيف، (ص: ١٤٧).  
(٢) يندد ابن المعتز بالكوفة لتأييدها العلويين من جهة ولأنها كانت في عهد المعتضد مركزا لظهور حركة القرامطة، وواضح أن ابن المعتز في الأبيات التالية يfokus في أعماق التاريخ لينال من الكوفة باعتبار مكان وجودها في أرض بابل.  
بختنصر: هو الملك البابلي الذي خرب بيت المقدس وسبى اليهود وجاء بهم أسرى إلى بابل.  
نمرود: هو نمرود بن كوش بن حام، وكان يلقب بالجبار، وهو أحد ملوك البابليين، وصاحب الصرح الذي ابتناه ليرى إله إبراهيم الخليل فالتفتته الرياح الهاتجة وغرق العالم في تنورها، جاء في الطبري (١ / ١٨٣): "ويزعم أهل التوراة أن الله عز وجل أمر نوحا أن يصنع الفلك من خشب الساج حتى إذا فرغ منه وقد عهد الله إليه حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا أحمل فيها من كل زوجين اثنين (سورة هود) وقد جعل للتنور آية فيما بينه وبينه. وقد اختلف في مكان التنور فقيل كان بالهند وقيل كان ذلك بناحية الكوفة.  
الجودي: جبل مطل على جزيرة ابن عمر شوقي دجلة، من أعمال الموصل استوت عليها سفينة نوح لما نضب الماء. (المراسد: ١ / ٢٥٦).

وقد تقدمت علوم الفلسفة والمنطق في هذا العصر بفضل كثرة الكتب والمترجمة عن اليونانية. وانتشرت المصطلحات الفلسفية في شعر الشعراء، ومن ذلك ما نجده في شعر ابن المعتز. فيشير إلى أحد أعلام الفلسفة بقوله:

وَمَدَحَ أَفْلَاطُونََ وَالْفَلَّاسِفَةَ      وَسَاعَدْتُهُ فِي هَوَاهُ طَائِفَةٌ<sup>(١)</sup>

ويقول مستخدماً لفظ الفيلسوف في أحد تشبيهاته:

ودينار حسن لم ير الناس مثله      تعجب عند النقد منه جهابذه  
يصرفه راع رقيق بمثلته      متى ما يرم مستصفاً فهو آخذه  
تراه كمثل الفيلسوف إذا غدا      وراح ومروان العباد تلامذه<sup>(٢)</sup>

كما نجد ابن المعتز يستخدم مصطلحات علم المنطق الذي تقدم في هذا العصر مثل: الحجة والبرهان، والشك، الصدق، الكذب، يقول:

وَقَدْ أَتَانَا بِبَرَاهِينِهِ      وَمَا كَرَى الْبَرَهَانُ فِي حُجَّتِهِ<sup>(٣)</sup>

ويقول:

لَمْ يُتَقِ مِنْهَا أَلْبَلَى شَيْئًا سِوَى شَبَحٍ      يُجِيلُهُ الْوَهْمُ بَيْنَ الصَّدَقِ وَالْكَذِبِ<sup>(٤)</sup>

وتقدمت في هذا العصر أيضاً العلوم الطبيعية من فلك وصيدلة وكيمياء فقد أخذ خلفاء بغداد يحثون على دراسة علم الفلك والرياضيات ونذكر من أعمال فلكي بغداد ما وصفوه من النقاويم لأمكنة الكواكب

(١) الديوان، (١ / ٥٤٢). طبعة بغداد.

(٢) الديوان، (٢ / ١٧٥)، طبعة دار المعارف.

(٣) نفسه، (٢ / ٤٣٥).

(٤) نفسه، (٢ / ٢١٩).



السيارة وإقدامهم على قياس خط نصف النهار، وتعيينهم مدة السنة بالضبط... وكانت بغداد مركزاً مهماً لمباحث علم الفلك، ولكنها لم تكن المركز الوحيد لهذه المباحث، فالمراسد التي كانت قائمة في البلاد الممتدة من آسية الوسطى إلى المحيط الأطلنطي كثيرة\* (١).

ونجد ابن المعتز يستخدم هذه المراسد في إحدى صوره البلاغية يقول:

يا آل عباس نعا من غيرة لا تركن إلى الغواة الحسد  
إياكم من بعدا إياكم كونوا لها كآراقم في مرصد (٢)

ويقول ذاكرة تقويم الشمس والكواكب والاصطرلاب أحد

الاكتشافات العربية في علم الفلك:

ولا حاسب تقويم شمس وكوكب يعرف أسباب العلو من أسفل  
يقوم كحرباء الظهيرة مائلاً يقلب في اضطرابه عين أخول (٣)

ويقول:

وذكر السعرة والنعوسا والجوهر المعقول والمحسوسا  
وذرغ طول الأرض والأفلاك وكم بلاد الصين والآسراك  
والعرض الظاهر في التجسيم والقول في طلائع التجووم (٤)

وفي علم الكيمياء نجدهم قد عرفوا العديد من المعادن وخواصها

ويستخدم ابن المعتز الزئبق في وصفه للنجوم. يقول:

(١) غوستاف لوبون، (ص: ٤٥٦).

(٢) الديوان، (ص: ١٤١)، تحقيق ميشيل نعمان.

(٣) الديوان، (٢ / ٢٩٠)، طبعة دار المعارف.

(٤) الديوان، (١ / ٥٤٢)، طبعة بغداد.

كَأَنَّ الثَّرِيَّاءَ هَوْدَجٌ فَوْقَ نَاقَةٍ      يَحْتَ بِهَا حَادٍ إِلَى الْغَرْبِ مُرْعَجٌ  
وَقَدْ لَمَعَتْ حَتَّى كَأَنَّ بَرِيقَهَا      قَوَارِيرُ فِيهَا زَبَقٌ يَتَرَجَّرُ<sup>(١)</sup>

أما علم الصيدلة، فقد تقدمت صناعة الأدوية والأشربة. ونجد ابن المعتز يبين لنا بعض الأدوية المستعملة في هذا العصر:

فيشير إلى ( الهاضوم ) وهو دواء يساعد على الهضم:  
وَوَرِثَ الْهَاضِمَ عَنْ جَدِّهِ      وَعَنْ أَبِيهِ فَهُوَ فِي رُتَبِهِ  
ذَاكَ دَوَاءً جَيِّدٌ نَافِعٌ      يُصْلِحُ مَا يَشْكُوهُ مِنْ مَعْدِنِهِ<sup>(٢)</sup>

ويشير إلى ( السعط ) وهو اسم لدواء يوضع في الأنف. يقول:  
فَمَنْ يَكُ ذَا سِلْمٍ فَإِنِّي طَيِّبُهُ      وَمَنْ يَكُ مَجْنُونًا فَعِنْدِي لَهُ سَعَطُ<sup>(٣)</sup>  
ومن هنا يتضح أن ابن المعتز تأثر بما يدور في عصره من قول ودرس في شتى العلوم التي أثمرت بها حضارة الإسلام.

( ١ ) الديوان، ( ٢ / ٣٥٧ )، المعارف.

( ٢ ) الديوان، ( ٢ / ٤٣٥ )، طبعة دار المعارف .

( ٣ ) نفسه، ( ٢ / ٧٧ ) .

### رابعاً: التسامح الديني في الإسلام

إن التسامح الديني من المبادئ السامية التي قامت عليها حضارتنا الإسلامية، " فهي توجب على المسلم أن يؤمن بأنبياء الله ورسله جميعاً، وأن يذكرهم بالإجلال والاحترام، وأن لا يتعرض لأتباعهم بسوء، وأن يكون معهم حسن المعاملة، رقيق الجانب، لين للقول، يحسن جوارهم ويقبل ضيافتهم، ويصاهرهم حتى تختلط الأسرة وتمتزج الدماء وأوجب الإسلام على الدولة المسلمة أن تحمي أماكن عبادتهم وألا تتدخل في عقائدهم ولا تجور عليهم في حكم، وتسويهم بالمسلمين في الحقوق والواجبات العامة".<sup>(١)</sup>

أما عن مظاهر التسامح الديني في شعر ابن المعتز العباس فنجد أصحاب العقائد والديانات الأخرى لهم حق العبادة في أماكن عبادتهم، فالنواقيس تفرع، والمبتهلون في الدير يضحجون مع الصباح بعد أن قضوا ليلاً في الابتهاال والتقديس. يقول ابن المعتز:

والتجم قد لَجَّ في الغروب وقد أنذر بالصُّح قرع ناقوس  
وضَّح في الدير كُلُّ مُبْتَهِلٍ مُنْفَع لَيْلَةً بِتَقْدِيسٍ<sup>(٢)</sup>

(١) من روائع حضارتنا، (ص: ٨٣).

(٢) الديوان، (٢ / ٢٧١). دار المعارف.

ومن يقلب صفحات كتاب " الديارات " يجد الكثرة الكثيرة من هذه الديارات في بغداد، وفي البصرة، وغيرها من المدن الإسلامية، حتى وإن كان عبادها قد اتخذوا منها أماكن مجون ولهو وتسلية، فهي كانت موجودة لم تمد عليها يد قاسية من قبل المسلمين. وفي هذا المجون يقول ابن المعتز متمنيا إعادة ليلة لهو قضائها بدير الموسيقى. يقول:

يا ليالي بالطيرة والكُر      خ وَدِيرِ السُّوسِي بِاللَّهِ عَوْدِي  
كُنْتُ عِنْدِي أَفْوَاجَاتٍ      مِنْ الْجَنَّةِ لَكِنِّهَا بَغِيرِ خُلُودِ<sup>(١)</sup>

ومن مظاهر هذا التسامح أيضا، ترك أصحاب الديانات الأخرى يحتفلون بأعيادهم في حرية تامة، وليس ذلك فقط بل الاشتراك معهم في هذه الاحتفالات، وتقديم التهاني لهم. ففي الاحتفال بعيد النيروز يقول ابن المعتز:

كيف ابتهاجك بالنيروز يا أُملي      فكل ما فيه يحكيني وأحكيه  
نيرانه كاضطرام النار في كبدي      ودمعني كغوالي مائه فيه<sup>(٢)</sup>

وفي الاحتفال بعيد المهرجان يقول:

مهرجوا في السبت      إن السبت يوم المهرجان  
وخذوها من عقار      عتقت صفو الدنان<sup>(٣)</sup>

( ١ ) الديوان، ( ٢ / ٢٤٧ م ).

( ٢ ) الديوان، ( ٢ / ٢٠٧ م ).

( ٣ ) الديوان، ( ٢ / ٣١٨ م ).

ومن هذا التسامح أيضا تأخير جمع الخراج حتى ينتهوا من  
أعيادهم مثلما فعل الخليفة المعتضد في الاحتفال بعيد النيروز  
سنة ٢٨٢ هـ.<sup>(١)</sup>

وفي هذا يقول ابن المعتز العباسي:

تَأَخَّرُ السَّيْرُورُ وَالْحَرَاجَا      وَلَوْ أَرَادَ أَخْلَدَهُ لَرَا جَا  
تَكْرُمًا مِنْهُ وَجُودًا شَامِلًا      وَخَزَمَ تَدْبِيرٍ وَحُكْمًا عَادِلًا<sup>(٢)</sup>

وبعد، فهذا غيظ من فيض تسامح الإسلام، فقد بقي الكثير والكثير  
الذي لم تسعفنا به النصوص الشعرية، حيث لا عد ولا حصر.



(١) تاريخ الطبري حوالت سنة ٢٨٢ هـ، (١١ / ٢٢٤ - ٢٤٦).

(٢) الديوان، (٢ / ٥٥٧)، القسم الثاني. بغداد.

### خامساً، الجهاد في الإسلام

لقد جاء العديد من النصوص الدينية في القرآن والسنة تحث المسلمين على الجهاد. فقد حرص الإسلام على أن يكون المسلمون على استعداد لمواجهة الباطل وقوى الإلحاد، مهما تكن التضحيات في النفس والأهل والمال، فالواجهة بين الحق والباطل ضرورة مؤكدة.

" والجهاد في الإسلام مجرد من كل غاية أرضية، ومن كل دافع شخصي.. ليتمخض خالصاً لله لتحقيق كلمة الله، وإقامة العدل ابتغاء رضوان الله، فإعداد القوة المادية والمعنوية أمر لا بد منه للأمة الإسلامية.. والقوة المعنوية في الإسلام لها تأثيرها وأثرها، فالمجاهد له إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة".<sup>(١)</sup>

والدولة الإسلامية في القرن الثالث الهجري، كان لها من القوة برغم ما فيها من اضطرابات، وخاصة في عهد الخلفاء الأقوياء منهم كالمعتصم، والموفق، والمعتز، والذين وقفوا في وجه الروم، ووجه جميع الثورات الخارجة على الدولة والدين.

والأمة المسلمة مطالبة أن تكون مستعدة للحرب على الدوام وتعد العدة له، كما قال جل شأنه " وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ.. " وفي الاستعداد للحرب في كل وقت حتى في أيام السلم، يبين لنا ابن المعتز

( ١ ) أضواء على الحضارة، ( ص: ١٨٢ ).

العباسي وهو يمدح المعتضد، كيف أنه وهو الخليفة المسلم كان يقود الجيش بنفسه حتى فرح الأعداء بالمسلم معه، ودفعوا الخراج والجزية. وهو في السلم يعد السلاح حتى يرهب أعداء يعلمهم ولا يعلمهم.

يقول ابن المعتز:

يَجْعَلُ الْجَيْشَ إِذَا صَارَ ذِيلاً      جُرْأَةً فِيهِ وَتَأْسًا صُرَاحاً  
فَرَحَ الْأَعْدَاءِ بِالسَّلَامِ مِنْهُ      وَهُوَ فِي السَّلَامِ يُعِدُّ السِّلَاحاً  
فَرَّقَتْ أَيْدِيهِمُ الْمَالَ كَرْهًا      وَلَقَدْ كَانُوا عَلَيْهِ شِحَاحاً<sup>(١)</sup>

والجيش الإسلامي في سبيل إعلاء كلمة الله، يقطع ربوع الأرض من مكان إلى آخر. يقول ابن المعتز:

وَسَارَ مَسِيرَ الشَّمْسِ لَمْ تَبْقَ بَلْدَةٌ      مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا نَحْوَ أُخْرَى يُرِيدُهَا<sup>(٢)</sup>

والمسلمون في جهادهم لا يهتمهم سوى النصر أو الشهادة. ففي سبيل الله ترخص النفس وتهون الروح، فدماء الشهداء عندهم عطر الشباب والرجال، وسهام الأعداء في صدورهم أوسمة العزة والكمال.

يقول ابن المعتز:

وَأُفْرَسَانِ يَرَوْنَ الْقَتْلَ غَنَمًا      فَمَا لَهُمْ لَدَيْهِ مِنْ بَرَاحٍ<sup>(٣)</sup>

أما من حيث الاستعداد للحرب في هذا العصر، فبجانب استخدامهم الأسلحة القديمة كالسيوف والسهام والنبال، فقد استحدثوا أسلحة جديدة مثل المجانيق. يقول ابن المعتز:

(١) الديوان، (ص: ١٤٦)، طبعة بيروت.

(٢) الديوان، (١ / ٢٤٨ م).

(٣) الديوان، (١ / ٢٢٤)، طبعة دار المعارف.

أين السيوف وأين النبل مرسله      يصين ما شئت من قرن وإن بعدا  
 أين الجانيق أمثال الفيول إذا      رمين حائط حصن قائم قعدا (١)  
 وبعد فهذه نبذة بسيطة عن الجهاد في الإسلام كما سمحت بها  
 النصوص الشعرية عند ابن المعتز.





### سادسا، الدعوة إلى العمل

قال الله تعالى: "وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ" فالعمل بوسائله وأنواعه أمر به المسلمون أمرا صريحا، وهذا العمل المأمور به سينظر إليه الله ورسوله والمؤمنون، والله عز وجل يجازي كل مسلم بعمله خيرا بخير وشرأ بشر. وقد انفرد الإسلام بالدعوة إلى العمل؛ لأنه إذا كان العمل مفضلا لدى كل الناس فإنه بالنسبة للمسلمين دين يجازون عليه ويعاقبون على تركه أو التفريط فيه. ومن البديهي أن تقوم الدنيا كلها على العمل، وتنبني عليه، فبدون العمل لن يحصل الإنتاج وبدونه لن يعمر الكون وبالتالي لن يعيش الناس. وإلى هذا يذهب ابن المعتز، يحث على العمل ويحث على الإعداد له إذ أنه من الجهل أن نجلس ونظن أن الرزق يأتينا بدون تعب منا أو بدون أي جهد مبذول، يقول:

وقد كفتني من الدنيا مشارعها إلا ولى ولم يبق إلا الطرق والكد  
إذ لا غد إلى الأشجار أبدينا جهلا ويسقط في أفواهنا النمر<sup>(١)</sup>

ونجد ابن المعتز أيضا يدعو إلى العمل والجهد، لأننا ما خلقنا إلا لنعمل، بل ربط العمل بحياة الإنسان، فالإنسان الذي لا يعمل كال ميت المقبور. ويجب بعد ذلك أن نترك آمالنا لقدر الله سبحانه وقضائه، يقول:

ألا شمر فإن الدهر ذو جمد وتشمير

وعرض أمل النفس      لأسباب المقادير  
 فإن الحى ما لم يك      ذا سعى كمقبور  
 وما الصير إذا أمك      ن الصول بمعذور<sup>(١)</sup>

ومن هنا يتضح أن ابن المعتز قد أقر العمل في شعره، فيقر بذلك إحدى الدعائم التي قامت عليها الحضارة الإسلامية.



### سابعا، الشورى والنصيحة

الشورى مبدأ من المبادئ الأساسية التي كانت أساسا في قيام المجتمع الإسلامي، دعا إليها القرآن وطبقها رسول الله (ﷺ) في أعماله وحكمه ودعوته. يقول الله في معرض ثنائه على المؤمنين: "وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ"، ويقول في تعاليمه لنبيه: "وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ".

وابن المعتز العباسي يقول شعرا يدعو فيه الإنسان إلى المشاورة. ففي المشاورة حل أو تخفيف هم، وضرب على ذلك مثلا رائعا بنهر الفرات الذي لا يستطيع أن يحمل ماء وحده فلا بد أن يدفع به إلى كل نهر يتصل به. يقول:

تَجَاوَزَ عَنْ جَنَابَةِ كُلِّ ذَخِيرٍ      وَصَاحِبِ يَوْمٍ حَادِثَةٍ بِصَبْرِ  
وَإِنْ ثَابِتِكَ نَائِبَةٌ فَشَاوِرِ      فَكَمْ حَمْدُ الْمُشَاوِرِ غِبْ أَمْرٍ  
وَقَسَمَ هُمْ نَفْسِكَ فِي ثُقُوسٍ      وَلَا تَتَفَرَّدَنَّ بِطُولِ فِكْرٍ  
إِذَا كُظَّ الْفَرَاتُ بِمَاءِ مَزْنٍ      أَغَصَّ بِهِ حَلَاقِمُ كُلِّ نَهْرٍ<sup>(١)</sup>

أما النصيحة فقد أوجبها الإسلام حتى لا يقدم أحد المسلمين على تصرفات خاطئة تضر به وبالمجتمع. فقد قال الرسول (ﷺ) في مجمل حديثه عن حقوق المسلم على المسلم: "... وإذا استصحبك فانصح له"، أي إذا طلب منك النصيحة. ويفهم من ذلك أيضا أنه لا يجب أن نفرض النصيحة بل يجب أن نقدمها لمن يطلبها ويتقبلها، يقول ابن المعتز في ذلك:

(١) الديوان، (٢ / ٣٩٩ م).

لا تسمع النصح إلا من تقبله عليك رأيك لي رأيي سيكتفي<sup>(١)</sup>  
ويقول أيضا في هذا المعنى:  
إذا لم يكن للرشد والنصح قابل فسخطكم جهل ولؤمكم محك<sup>(٢)</sup>



( ١ ) الديوان، ( ٢ / ٣١١ م ).

( ٢ ) الديوان، ( ٢ / ٢٨٨ م ).

### ثامناً، الرفق بالحيوان

لم تعرف حضارة من الحضارات قبل الحضارة الإسلامية، اهتمت بالحيوان والرفق به مثلما اهتمت به الحضارة الإسلامية، وقد ورد عن الرسول (ﷺ) الكثير من الأحاديث الصحيحة التي تدعو إلى الرفق بالحيوان والرحمة به.

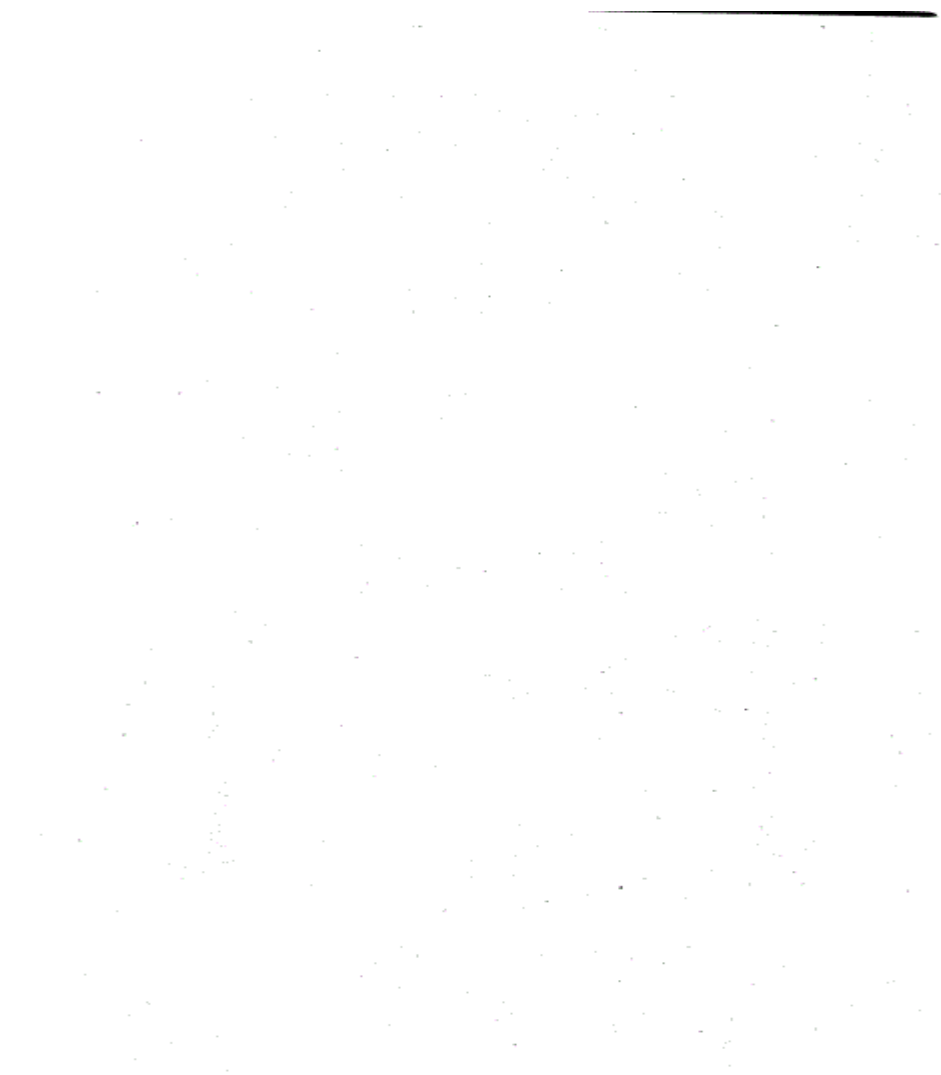
ولكن البحث لم تسعه النصوص الشعرية عند ابن المعتز ليبين هذا الهدف النبيل الذي سمت به حضارتنا الإسلامية فوق جميع الحضارات سابقها ولاحقها، اللهم إلا بيتان يتعاطف فيهما ابن المعتز مع قمرى يبكي فيفجع ابن المعتز لبيكاته، وتذرف الدموع على خديه تأثراً لحاله. يقول ابن المعتز:

ذُعِرْتُ بِقَمْرِيْ أَغْنَى نَسُوْحَ      غَشِيَّةَ رُحَا وَالدُّمُوْعَ مُفْوَحَ  
تَفَجَّعَ لَحْوِي صَوْتُهُ فَتَصَرَّعْتُ      بِدَنَمِي وَأَنْضَاءِ الْمَطِيِّ جُنُوْحَ<sup>(١)</sup>



### الفصل الثالث

مَظَاهِرُ الْحَمَازَةِ الْمَادِّيَةِ  
فِي شِعْرِ ابْنِ الْمُعْتَزِّ



### أولا، الملباني والعمران

إذا كان تقدم الحضارات يقاس بما أنتجته من عمران، فإن الحضارة الإسلامية في القرن الثالث الهجري قد بلغت في ذلك شأوا عظيما. فهذا العصر قد اشتهر بكثرة العمران، ففيه تسابق الخلفاء في بناء القصور التي تخلد ذكراهم وتمجدهم على صفحات التاريخ. وإزاء هذه الحركة العمرانية القذة لم يقف الشعر صامتا أخرس، ولكنه راح يتجول بين هذه القصور مبهورا بدقة صنعها وما استحدثت فيها، تشده إليها بما فيها من عظمة وإعجاز. وابن المعتز العباسي من الشعراء المبدعين في فن التصوير لم يفته أن يصور لنا تلك النهضة العمرانية العملاقة، فإذا به يجعل من شعره قصورا شامخات ذات حدائق فتانة، ويجعل من كلماته أزهارا وورودا تشع منها رائحة عطر أخاذ. ولنرى قصر (الثريا)<sup>(١)</sup> الذي بناه المعتضد شامخا في ديوانه ينطق بما فيه من إعجاز في البناء بحيث لم ير الناس له شيئا من سالف الدهر. وصفه ابن المعتز بما فيه من جنان وأشجار، وجداول وأنهار،

(١) الثريا قصر كبير، يضم أبنية بناها المعتضد بالله لخلافته (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) قرب قصر التاج ببغداد الشرقية وعمل بينهما سردابا تمشي فيه حظايا من القصر الحسنی. عفى أثر الثريا في سنة ٤٦٦ هـ راجع: رسوم دار الخلافة (ص: ٧) معجم البلدان (١ / ٧٧) مادة الثريا.



وميادين لسباق الخيل، وأخرى للحيوانات الأخرى. ولنترك القصيدة تتحدث هي عن روعة هذا القصر. يقول ابن المعتز:

خَلَّتْ الثَّرَيَا خَيْرَ دَارٍ وَتَوَلَّى	فَلَا زَالَ مَعْمُورًا وَيُورِكُ مِنْ قَصْرِ
فَلَيْسَ لَهُ فِيمَا بَنَى النَّاسُ مُشَبَّهٌ	وَلَا مَا بَنَاهُ الْجِنُّ فِي سَائِلِ السَّهْرِ
وَمَا زَالَ يُرَعَاةُ الْإِمَامُ بِرَأْيِهِ	وَبِالْعَزِّ وَالتَّقْدِيمِ وَالتَّهْنِئَةِ وَالْأَمْرِ
فَقَمَّ فَمَا فِي الْحُسْنِ شَيْءٌ يَزِيدُهُ	لِسَانٌ وَلَا قَلْبٌ يَقُولُ وَلَا فِكْرُ
مُتَّبِعِي عَلَيْهِ مِنْ مَحَابِسِنِ قَصْرِهِ	مَدَائِحُ لَيْسَتْ مِنْ كَلَامٍ وَلَا شِعْرِ
جَنَانٌ وَأَشْجَارٌ تَلَاَقَتْ غُصُونُهَا	فَأَوْرَقْنَ بِالْأَشْجَارِ وَالْوَرَقِ الْخَضِرِ
تَرَى الطَّيْرَ فِي أَغْصَانِهِنَّ هَوَاتِفًا	تَنْقُلُ مِنْ وَكْرٍ لَهْنًا إِلَى وَكْرٍ
هَجَرَتْ سِوَاهَا كُلَّ دَارٍ غَرَفَتْهَا	وَحُقِّ لِدَارٍ غَيْرِ دَارِكَ بِأَفْجَرِ
وَتَبَيَّنَ قَصْرٌ قَدْ غَلَّتْ شُرَفَاتُهُ	كَصَفِّ نِسَاءٍ قَدْ تَرْتَعْنَ فِي الْأَزْرِ
وَأَهْمَارُ مَاءٍ كَالسَّلَامِيلِ فُجِّرَتْ	لِطَرِيجِ أَوْلَادِ الرِّسَاحِينَ وَالزَّهْرِ
إِذَا مَا رَأَتْ مَاءَ الثَّرَيَا وَتَبَّعَهُ	نَسِينَ وَتَوْبَ الْكَلْبِ فِيهِنَّ وَالصَّقْرِ <sup>(١)</sup>

ثم نراه يصف هذا القصر في موضع آخر، موضحاً ما يحتوي عليه هذا القصر من عجائب وغرائب يدهش لها العقل. يقول:

(١) الديوان، (١ / ٤٣٤ - ٤٣٦) طبعة بغداد، (١ / ٤٧٧ - ٤٧٨) طبعة دار المعارف.

وَلَا بَنَى بَنَانٍ مِنَ الْخَلَائِفِ      وَلَا مَلُوكِ الرُّومِ وَالطُّوَالِفِ  
 كَمَا بَنَى مِنْ أَعْجَبِ الْبِنَاءِ      لَا زَالَ فِينَا دَائِمَ الْبَقَاءِ  
 فَرَجَعَتْ كَفَاذَةُ كَعَابِ      تَقَرُّ فِيهَا أَعْيُنُ الْأَحْيَابِ  
 فَمَنْ رَأَى مِثْلَ الدُّرْيَا قَصْرًا      كَمْ حِكْمَةٌ فِيهِ تُخَالُ سَحْرًا  
 وَالتَّهَرُّ وَالْإِسْنَانُ وَالْبُحَيْرَةُ<sup>(١)</sup>      قَدْ جَمَعَ الْمَاءُ إِلَيْهَا طَيْرَهُ  
 وَلِلْبُرَاةِ مَعَهَا وَقَائِعُ      فَفَانِصَّ فِي جَوْفِهَا وَوَأَقِيعُ  
 وَبَعْضُهَا يُدْبِحُ فِي الْأَكْفِ      مَأْسُورَةٌ قَدْ رُمِيتْ بِخَنَفِ  
 وَمَا رَأَى الرَّاوُونَ مِثْلَ الشَّجَرَةِ<sup>(٢)</sup>      ذَاتِ غُصُونٍ مَوْرِقَاتٍ مُثْمِرَةِ

(١) جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي، (٣٧٢) قال ابن حمدون للنديم: غرم المعتضد على عمارة البحيرة ستين ألف دينار، وكان يخلو فيها مع جواريه وفيهم محبوبته دريرة فقال ابن بسام:

تسرك الناس بحيرة      وتغلسي في البحيرة  
 قاعدًا يضرب بالظ      بل على حر دريره

فبلغ ذلك المعتضد فلم يظهر أنه بلغه، ثم أمر بتخريب تلك العمارات ثم ماتت دريرة فسي أيام المعتضد فجزع عليها جزعا شديدا. انظر أيضا: معجم الأدباء (١٤ / ١٤٣).  
 (٢) الشجرة: جاء في تاريخ بغداد (١ / ١٠٢) وفي معرض الكلام على استقبال المعتز ابن المعتضد لوفد رومي: "ولما دخل الرسول إلى دار الشجرة ورأها كثر تعجبه منها، وكانت شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم، عليها لطيار مصنوعة من الفضة تصفر بحركات قد جعلت لها، فكان تعجب الرسول من ذلك أكثر من تعجبه من الفضة تصفر بحركات وجاء في (ص: ١٠٣) من المصدر نفسه: ثم أخرجوا من هذه الدار إلى دار الشجرة، وفيها شجرة في وسط بركة كبيرة مدورة فيها ماء صاف وللشجرة ثمانية عشر غصنا لكل غصن منها شامخات كثيرة عليها الطيور والمصالحير من كل نوع مذهبة ومفضضة وأكثر قضبان الشجرة فضة وبعضها ذهب. وهي تتمايل في أوقات ولها ورق مختلف الألوان يتحرك كلما تحرك الريح ورق الشجر.

وَلَمْ تَكُنْ غَرَسًا ثَرَاءُ السَّاءِ      وَلَمْ تَكُنْ مِنْ شَجَرٍ يُسْقَى بِمَاءِ  
لَكُنْهَا تُخْبِرُ عَنْ حَكِيمٍ      مُوقِفِي مُجَرَّبٍ عَلِيمٍ  
كَأَنَّهَا مِنْ شَجَرَاتِ الْجَنَّةِ      أَنْزَلَهَا إِلَيْهَا ذُو الْمَنَّةِ  
وَالْقُبَّةُ الْعَلِيَاءُ وَالْأُتْرُجَةُ<sup>(١)</sup>      مَلَّتْ فِيهَا أَرْبَعِينَ حِجَّةً  
وَبِالزُّيَّادَاتِ فَلَا تُنْسَاهَا      قُرَّةُ عَيْنٍ كُلِّ مَنْ رَأَاهَا<sup>(٢)</sup>

هذه المناظر البديعة التي تزين قصر النريا ولاسيما الشجرة التي لم تغرس في أرض ولم تسق بماء، فهي شجرة ذات أغصان لكل غصن فيها فروع عليها الطيور والعصافير مذهبة ومفضضة، وهذه القبة العليا والأترجة. مما يخبر عن حضارة عمرانية فذة. ولم يتوقف ابن المعتز عند قصور المعتضد فقط، بل وصف قصورا لخلفاء آخرين في عصره، فهو يذكرنا بقصور الخليفة المعتمد والتي منها النل والأحمدي والمعشوق والجوسق. يقول:

(١) جاء في الحضارة الإسلامية لأدم متر (٢/ ٢٠٩) وفي معرض الكلام على قصور الخلفاء العباسيين: "وكان قصر الخلافة يشتمل على دور وبساتين ومساحات مظلمة بالأشجار وعلى قباب وأروقة وكانت تزيد في جماله البرك والأنهار الجارية. وكان من بين القباب قبة الأترجة وقبة الحمار، وفي الهامش قبة الحمار: وهي التي يقصدها ابن المعتز بقوله (والقبة العليا.. ويقال إنها سميت بذلك لأن الخليفة كان يستطيع أن يصعد إلى أعلاها ركباً حماراً).

(٢) الديوان، (ج١، ص: ٥٦٠ إلى ٥٦٢) طبعة بغداد.

والتل والبستان قد بسطت      حضارؤه وأناف جوسقه  
لما أتناه به مشعره      ما كاد من قرح يصدقه  
والأحمدي إليه منتسب      من قبل والمعشوق يعشقه<sup>(١)</sup>

ونراه يذكرنا أيضا بقصري ( التل وعرفات )<sup>(٢)</sup> التي بناها  
المعتصم ( بسر من رأى ) حتى بعد أن وقعت عليهما يد البلى. يقول:  
قد شهدنا عرفات ببطون جاعات      ورأينا التل والخذق قفر العرصات<sup>(٣)</sup>  
ولم يقتصر ابن المعتز على وصف قصور الخلفاء، فهو شاعر  
يعشق الجمال، فيصف كل ما تقع عليه عيناه يقول في قصر بسطام:  
سلامة على غير الديار الساسي      ودمنة ربيع قد تفسر داري  
وهبت سلامي ما حيت لمجلسي      على قصر بسطام أمير المجالسي  
يطل على روضي أليس كالكه      مقارم خضر فوق فرش غرائسي<sup>(٤)</sup>

( ١ ) الديوان، ( ٢ / ٥٠٠ ) طبعة دار المعارف .

( ٢ ) أ- قصر التل: وهو قصر فوق تل اصطناعي مخروطي الشكل يعرف محليا ( بتل  
العليق ) عن سمراء في أذب القرن الثالث الهجري، (ص: ٢٩٩) يونس أحمد السمرائي.  
ب- قصر عرفات: يبدو أن المعتصم حين اتخذ سمراء عاصمة له، حاول أن يكون من  
الأثراك طبقة خاصة فاعتمد عليهم وكون منهم جيشه وأسكنهم في قطائع خاصة ومنع  
الاتصال بهم أو التزوج منهم، ويبدو أنه حاول أن يبني له إيوانات في البرية ولعلها التي  
ورد ذكرها في الشعر باسم عرفات وقد جاء لذكرها في شعر محمد بن عبد الملك الزيت.  
( سمراء في أذب القرن الثالث الهجري، ( ص: ٢٢٧ - ٢٢٨ ) .

( ٣ ) الديوان، ( ٢ / ٥٢٥ ) طبعة بغداد.

( ٤ ) الديوان، ( ٢ / ٢٧٥ ) طبعة دار المعارف، ( ٢ / ٥٢٥ ) طبعة بغداد، والقمر  
نوب من صوف فيه ألوان من العيون وهو صفيق يتخذ سترا، وقيل: هو الستر الرقيق  
والجمع قزم وهو المقرمة والمقرمة محبس الفراش.

ولقد اتخذ الناس وخاصة الأغنياء منهم، وسائل للتبريد والتهوية في بيوتهم أيام الصيف، منها السراييب - واحدها: سرداب، فسرّه القاموس بأنه بناء تحت الأرض للصيف. ولقد غالى الناس بالعناية بها لتكون مريحة في الصيف.<sup>(١)</sup>

وكان أهل الترف في ذلك العصر يستعوضون عن دخول السراييب بنصب قبة من الخيش أو بيت من الخيش المبلل بالماء<sup>(٢)</sup>. يقول ابن المعتز وهو يوصى بلزوم البيت في فصل الصيف:

والزم البيت وامزج الراح بالطلع واطف باخيش نار الحجر<sup>(٣)</sup>

أما عن مواد البناء فكانوا يستخدمون الصخر والجص والآجر وخشب الساج. يقول ابن المعتز في استخدام خشب الساج وهو يشبه فرسه:

فهو مبي كقصر منيف تحته عيدان ساج وصخر<sup>(٤)</sup>

ولم يتركنا ابن المعتز نتخيل أن جميع الناس خاصتهم وعامتهم كانوا يسكنون القصور، ولكنه بين لنا أن هناك أناس كانوا يشتكون من ضيق السكن فيقول:

يا رَبِّ يَبْتَ زُرُّهُ فَكَاكَمَا قَدْ ضَمَّنِي مِنْ ضَيْقِهِ سَجَنُ  
لَمْ يُحْسِنِ الرُّمَّانُ يَجْمَعُ حُبَّهُ فِي قَشْرِهِ إِلَّا كَمَا نَحْنُ<sup>(٥)</sup>

(١) صورة مشرقة من صور الحضارة، (ص: ١٨).

(٢) الحضارة الإسلامية: آدم ميتز، (١ / ٢٠٥).

(٣) الديوان، (٢ / ٢٦٤)، طبعة دار المعارف.

(٤) الديوان، (١ / ٢٦٥) طبعة دار المعارف.

(٥) الديوان، (٢ / ٢٠٦)، طبعة دار المعارف.

وهكذا بين لنا ابن المعتز كيف حققت بغداد وغيرها من أمهات البلدان الإسلامية، أيام ازدهار الحضارة الإسلامية فيها بعدد كبير من القصور الشامخة والدور الفخمة والعمارات الفسيحة، ظل أمرها أحدى الزمان.



### ثانياً، مزايا وخدمات الدولة

لقد اهتم الخلفاء بالعديد من المصالح والخدمات التي تهتم  
الرعية وتعود عليهم بالخير. " ومن هذه الخدمات الاهتمام بالطبابة وبناء  
المستشفيات حيث حبست عليها الأوقاف الدارة ودرب فيها الأطباء  
المهرة، والصيادلة والفراشون وغيرهم. كما جهزت بالأدوية والأشربة،  
ووسائل الرفاهية والراحة والتسلية لتخفف عن المرضى آلامهم  
وأسقامهم<sup>(١)</sup>. ولعلنا في هذا الموضع نستطيع أن نستشف بعض مظاهر  
هذا التقدم من خلال شعر ابن المعتز:

فيصف لنا ابن المعتز عملية جراحية أجريت للخليفة المعتضد،  
وهي عملية " الفصد " - والفصد : هو شق العرق وقطعه - يقول:  
يا دما فاض من ذراع الإمام أنت أذكى من غير ومدام  
قد ظنناك إذ خرجت إلى الطست دموعا من مقلتي مستهام  
إنما غوص الطبيب شب الموضع في نفس ملحة الإسلام<sup>(٢)</sup>

ثم نجده في أبيات أخرى يبين مدى صعوبة هذه العملية حتى  
أنها أصعب من كسر الحديد وتشكيله. يقول:

ليس ما حل بالحديد من الكسر وتلقيم غنده بعجيب  
عجي إذا مددت للفصد كفا كيف لم يتصدع فؤاد الطبيب<sup>(٣)</sup>

( ١ ) صورة مشرفة من الحضارة، بغداد. ( ص: ١١٠ ).

( ٢ ) الديوان، ( ١ / ٥٠٨ ) طبعة دار المعارف.

( ٣ ) نفسه، ( ٢ / ١٥٧ ).

ثم نجد ابن المعتز أيضا يستخدم "تجبير الكسور" في بعض تشبيهاته. فيقول:

والنوى كالضلع الكسرة لم تقومها الجوائر<sup>(١)</sup>

ثم يصف لنا بعض الوصفات الطبية والتي وصفت له عند إصابته بالحمى. يقول:

ولكن عسدي الحمى وطول الهم والفكر

وشرب بعقاقير دواء طعمه مر

وأكل الحنظل والزيت عليه الورق الخضرا<sup>(٢)</sup>

ومن الخدمات التي اهتمت بها الدولة أيضا (مصلحة البريد) وكان البريد في يد الحكومة في بداية الخلافة ثم أصبح تحت تصرف الشعب في الأزمنة التالية وكانت رسائل البريد تشحن عن طريق السفن البريدية، أو الإبل المهرية أو البغال تبعا للبلاد<sup>(٣)</sup> أما عن مظاهر هذا الاهتمام في شعر ابن المعتز، فلم نجد في شعره إلا بيتين ذكر فيهما البريد الذي يحمل نبأ عزل أحمد بن طولون عن الولاية. يقول:

(١) الديوان، (٢ / ٣٤١)، طبعة دار المعارف.

(٢) نفسه، (٢ / ١٧٧).

(٣) الحضارة الإسلامية: جاك. ر. بسار، (ص: ١٣٤).



كَمْ تَالِهَ بِوَلَايَةِ وَبَعْدَلِهِ يَسُدُّ الْبَرِيدَ  
سُكْرُ الْوَلَايَةِ طَيِّبٌ وَخَمَارُهَا صَقَعَ شَدِيدٌ<sup>(١)</sup>

ومن المناقع الهامة الحمامات التي كانت توجد في بغداد حتى قيل: "إنه كان في الجانب الشرقي من بغداد وحده في القرن الثالث الهجري خمسة آلاف حمام"<sup>(٢)</sup>، وابن المعتز تحدث عن هذه الحمامات في غير موضع من شعره، ولكن يبدو أنه كان يذمها في أكثر الأحيان. يقول:

ما هو بالحمام حرا ولا يصلح فيه غير تبريد ماء  
وجدت في الصيف به رعدة فكيف أرجو عرقا في الشتاء<sup>(٣)</sup>

ويقول فيها أيضا:

خَمَامًا كَفَجَسُوذٍ يَشْقَى بِهِ السَّوَارِدُ  
قَبِيَّتَ لَهْ مُنَعِنَ وَتَبَّتْ لَهُ بَارِدُ<sup>(٤)</sup>

ويقول أيضا:

يَا مُدْخِلَ الصَّلَحِ خَمَامًا يَزِيدُهُمْ بِطُولِ مُكْنِهِمْ فِي جَوْفِهِ وَسَخَا  
حَتَّى إِذَا غَرَقُوا مِنْ حَرِّهِ خَرَجُوا وَكُلُّهُمْ بِشُلُوفٍ مِنْهُ قَدْ لُطِخَا<sup>(٥)</sup>

(١) الديوان، (٢ / ٤٤١)، طبعة دار المعارف.

(٢) جغرافية اليعقوبي، (ص: ٢٥٤).

(٣) الديوان، (٢ / ١٥٠)، طبعة دار المعارف.

(٤) نفسه، (٢ / ١٧٢).

(٥) نفسه، (٢ / ٤٣٩).

ومن الخدمات الهامة في الدولة كذلك الشرطة، " وكان للشرطة العباسية مكان خاص بهم يسمى (مجلس الشرطة)، وكانت العقوبات تنفذ في رحبة هذا المجلس أحيانا، فيجتمع العامة لحضورها وبخاصة إذا كان المعاقب مشهورا أو معلوما لدى الجمهور... وفي نهاية هذا العصر أعطيت للشرطة وصاحبها سلطات وصلاحيات جديدة فأخرجت من صيغتها التنفيذية الصرفة. فلقد أصبح لصاحب الشرطة حق إصدار الأحكام القضائية في الجرائم وإيقاع العقوبات مباشرة" (١)

أما عن الشرطة في شعر ابن المعتز، فنجدده يصف لنا أحوال الشرطة والأساليب الانتهازية التي كانت تتبع بعد أن فسدت الأحوال السياسية أو في حالة الضعف السياسي. فأصحاب الشرطة راحوا يجمعون المال بشتى الطرق. حرامه أكثر من حلاله. وفي هذا يبين لنا ابن المعتز في أرجوزته التاريخية المشهورة فيقول عن تعسف الشرطة في عهد الوزير أبو الصقر إسماعيل بن بلبل (٢)

يَأْخُذُ مِنْ هَذَا الشَّقِيِّ ضَيْقَهُ      وَذَا يُرِيدُ مَالَهُ وَخُرْجَهُ  
وَوَيْلٌ مَنْ مَاتَ أَبُوهُ مُوسِرًا      أَلَيْسَ هَذَا مُحْكَمًا مُثْمَرًا  
وَطَالَ فِي دَارِ الْبَلَاءِ سَجْنُهُ      وَقَالَ مَنْ يَدْرِي بِأَلْسِنَةِ  
فَقَالَ جِرَائِي وَمَنْ يَعْرِفُنِي      فَتَنَفَّسُوا سِبَالَهُ حَتَّى قَلِي  
وَأَسْرَفُوا فِي لُكْمِهِ وَدَفَعِهِ      وَخَدَّرَتْ أَكْفُهُمْ فِي صَفْعِهِ

(١) البغداديون أيام زمان: راسم الجميلي، (١ / ٢٦٧).

(٢) هو أبو الصقر إسماعيل بن بلبل استوزره الموفق لأخيه المعتمد سنة ٢٦٥ هـ، ثم قبض عليه المعتمد وحبس وعاقبه ثم قتله في محبسه واستصفى أمواله. (الفخري في الأدب السلطانية لابن الطقطقي، ص: ٢٥٢- ٢٥٣).

وَلَمْ يَزَلْ فِي أَحْيَى الْحُبُوسِ      حَتَّى رَمَى إِلَيْهِمْ بِالْكَبْرِ  
وَسَاجِرِ ذِي جَوْهَرٍ وَمَالٍ      كَانَ مِنَ اللَّهِ بِأَحْسَنِ حَالٍ  
قِيلَ لَهُ: عَيْدُكَ لِلْإِسْلَامِ      وَدَالِغُ غَالِيَةِ الْأَمَانِ  
فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ مَا عِنْدِي لَهُ      صَغِيرَةٌ مِنْ ذَا وَلَا جَلِيلُهُ  
وَلَمَّا رُبِحَتْ فِي الصَّجَارَةِ      وَلَمْ أَكُنْ فِي الْمَالِ ذَا خَارَهُ  
فَدَخَلَتْهُ بِدُحَانِ الْعَيْنِ      وَأَوْقَدُوهُ بِقَالِ اللَّيْنِ  
حَتَّى إِذَا مَلَ الْحَيَاةَ وَحَجَرَ      وَقَالَ: لَيْتَ الْمَالُ جَمِيعًا فِي سَفَرٍ  
أَعْطَاهُمْ مَا طَلَبُوا فَأَاطَقُوا      يَسْتَقِيلُ الْمَشَى وَيَمْشِي الْعَتَقَا<sup>(١)</sup>

والمزدوجة مليئة بهذه الأساليب الإجرامية في الانتهاز. فالشرطة بعد أن تخلت عن وظيفتها الرسمية راحت تنهب الأموال من كل ذي مال يشتكى الطريق، يقبضون عليه ويضعونه في السجن ويستخدمون معه أقصى أساليب التعذيب من وضع الحبال في يده ورجليه ومن تعليقه في الجدار ومن نكف شعره إلى صب الزيت المغلي عليه حتى يتخلى عن جميع أمواله وبعد أن يستكتبوه يشهدوا أنه تنازل عن ماله برضاه ثم يطلقوا سراحه. ولكن لما تولى المعتضد بالله الخلافة عاد الأمن والأمان للدولة من جديد كما يقول ابن المعتز:

قَالَ: زَالَ كُلُّ ذَاكَ أَجْعُ      وَأَصْبَحَ الْجَوْرُ بِعَدْلِ يُقْمَعُ<sup>(٢)</sup>

كما أن الأمر لا يخلو أيضا من وجود بعض أصحاب الشرطة العادلين وقد كتب عبد الله بن المعتز إلى عبيد الله بن عبد الله بن

(١) الديوان، (١ / ٥٣٨ - ٥٣٩)، طبعة بغداد.

(٢) نفسه، (١ / ٥٦٠).

طاهر<sup>(١)</sup> وقد استخلف مؤنس ابنه محمد بن عبد الله على الشرطة ببغداد  
مهنئاً:

فَرَحْتُ بِمَا أَضَافَهُ دُونَ قَدْرِكُمْ      وَقُلْتُ: عَسَى قَدْ هَبَّ مِنْ نَوْمِهِ الدَّهْرُ  
فَرَجَعُ فِيهَا دَوْلَةُ طَاهِرِيَّةٍ      كَمَا بَدَأَتْ وَالْأَمْرُ مِنْ بَعْدِهِ الْأَمْرُ  
عَسَى اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِغَافِلٍ      وَلَا يَدُّ مِنْ يُسْرِ إِذَا مَا انْتَهَى الْعُسْرُ<sup>(٢)</sup>



( ١ ) عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ( ٢٢٣ - ٣٠٠ هـ )، أمير الأندلس الشعراء ولي  
الشرطة ببغداد، ومولده ووفاته. وكان مهيب رفيع المنزلة عند المعتضد، له براعة في  
الهندسة والموسيقى، حسن الترتيل وله تصانيف، وكانت له مراسلات مع ابن المعتز. (عن  
الأعلام ٤ / ٣٥٠).

مؤنس الخادم ( ٢٣١ - ٣٢١ هـ ) : الملقب بالمظفر المعتضدي: أحد الخدام الذين بلغوا  
مرتبة الملوك، كان من خدم المعتضد، وكان أبيض فارساً شجاعاً من الساسة الدهاء بقي  
سنتين سنة أميراً، وندب الحرب المغاربة العبيديين وولي دمشق للمعتز ثم حاربه وقتل  
المعتز وخلفه القاهر بالله فلما تمكن القاهرة قتله ( الأعلام: ٨ / ٢٩٢ ).  
( ٢ ) الأغاني، ( ١٠ / ٢٨٦ )، دار الكتب.

### ثالثاً، المهمن والحرف

كانت بغداد في العصور السالفة منبتاً لطائفة كبيرة من أنواع الصناعات وضروب الفنون، وقد نمت وازدهرت وطارَتْ شهرتها في ديار المشرق والمغرب مدى عصور عديدة.

ونرى ابن المعتز في هذا الموضع يستخدم في شعره من الإشارات والتشبيهات التي تدل على الكثير من هذه الصناعات. فيشير في شعره إلى صناعة الحلّي والصواعة. يقول في حديثه عن الخمر:

فاخرج بالمزالٍ منها سيكةً كما قلّ الصواغُ خلخاله فتلاً<sup>(١)</sup>

وكذلك نالت صناعة العطور والدهون والطيب والمعاجين ونحوها عناية كبيرة من أئمة المؤلفين والعلماء والأطباء.<sup>(٢)</sup>

وكذلك نفنن القوم ببغداد في صناعة النجارة فصنعوا ضروب الآلات وكثيراً من آلات البيت<sup>(٣)</sup>

وعن صناعة العطور وصناعة النجارة يشير ابن المعتز في بعض تشبيهاته:

يا مسكة القطارِ وحال وجه التهاجر  
ولعبة أحكمتها عناية التجار<sup>(٤)</sup>

(١) الديوان، (٢ / ٢٩٣)، طبعة دار المعارف.

(٢) صورة مشرقة من حضارة بغداد، (ص: ٣٤).

(٣) نفسه، (ص: ٢٤).

(٤) الديوان، (٢ / ١٨٠)، طبعة دار المعارف.

" وكذلك تغنن العراقيون في صناعة الزجاج، فقد صنع البللور المصفى لأول مرة.. كما يتصدر الخزف العباسي المحلى بزخارف ذات بريق معدني المكانة بين زخارف العالم"<sup>(١)</sup> ويشير ابن المعتز إلى الصناعات الخزفية التي تقدمت في هذا العصر فيقول، في حديثه عن الكرم:

فَلَمَّا تَدَلَّتْ كَالْذِيَّ وَأَصْبَحَتْ عَلَى الْقَصَبِ الْمَعْرُوشِ مُنْبَعِثَاتٍ  
أَضِيَّتْ إِلَى قَارِيَةِ خَزْفِيَّةٍ مُصَبَّغَةٍ بِالسَّطِينِ مُعْتَجِرَاتٍ<sup>(٢)</sup>

وأما عن ضرب النقود " فلقد ضربت بغداد المدورة بعد أن انتهى أبو جعفر المنصور من بنائها في مكان أطلق عليه دار الضرب. وقد انتشرت دور الضرب ببغداد الغربية والشرقية في خلافة العباسيين ومن جاء بعدهم وكان يطلق عليها أيضا دور الصرغ"<sup>(٣)</sup>

وعن هذه الصناعة يشير ابن المعتز في بعض تشبيهاته:  
وَكَانَ الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ دِينَا رَجَلَتَهُ حَذَائِدُ الصَّرَابِ<sup>(٤)</sup>  
ويبدو أنه كانت هناك عملة ورقية وهذا ما يفهم من قول ابن

المعتز:

مَا زِلْتُ أَنْتَقِدُ الْوُجُوهَ بِنَظَرِي لَقَدْ الصَّيَارِفُ جَيِّدُ الْأَوْرَاقِ<sup>(٥)</sup>

( ١ ) الحضارة الإسلامية: جاك. من رمسيس.

( ٢ ) الأغاني، ( ١٠ / ٢٨٦ )، دار الكتب.

( ٣ ) البغداديون راسم الجميلي، ( ١ / ١٦ ) .

( ٤ ) الديون، ( ٢ / ٢٥٥ )، طبعة دار المعارف.

( ٥ ) الديون، ( ١ / ٣٩٦ )، طبعة دار المعارف.

كما أشار في أحد تشبيهاته إلى وجود بعض العملات المزيفة.

يقول:

كَأَنَّ نَجْمَ اللَّيْلِ فِي حِجْرَانَا      دِرَاهِمَ زَيْفٍ لَمْ يَجُزْ عَلَى النِّقْدِ<sup>(١)</sup>  
 \* وَلِصَّنَاعَةِ الْحَيَاكَةِ وَالنَّسِيجِ وَمَا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ الصَّدَارَةُ  
 بَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ الصَّنَاعَاتِ وَالْفُنُونِ الَّتِي اشتهرت بها بغداد في عصورها  
 الزاهرة أيام بني العباس، وكان النسيج في العراق ينسجون الثياب من  
 القطن والحريير والصوف والكتان ويتقنون في صنعها<sup>(٢)</sup>. وعن صنائه  
 حلج القطن يشير ابن المعتز وهو يصف فرسه:

أَصْبَحَ شَيْءٌ سَوِيًّا إِذْ تَرَكْتُهُ      تَحَالَهُ وَالنَّقْعُ يعلو أصهبه  
 كَالْقُطَنِ الْمُنْدُوفِ طَارَ عَطْبُهُ      وَالْجُرَيْمِيُّ يَرْمِي مَاءَهُ وَيَحْلُبُهُ<sup>(٣)</sup>

ويقول أيضا:

ضَمِنَ اللَّقَاءَ زَوَاجُ نَاجِيَةٍ      مَقْدُوفَةٍ بِالتَّحْضِي كَالزَّعَنِ  
 زَبَدُ اللَّغَامِ يَطِيرُ مِنْ قَمِيهَا      تَفْضُ التَّوَادِفِ نَاعِمَ الْقُطَنِ<sup>(٤)</sup>

أما عن صناعة نسج الملابس، فنراه يشير إلى نسج الدروع<sup>(٥)</sup>

وهو يصف أحد سقاء الخمر:

(١) الديوان، (٢ / ٦١)، طبعة دار المعارف.

(٢) صورة مشرقة، (ص: ٣٨).

(٣) الديوان، (٢ / ١٥٨)، طبعة دار المعارف.

(٤) نفسه، (١ / ٢٩٠).

(٥) الدروع والدرايع جمع دراعة: جبة مشقوقة المقدم تعمل من الدباج أو الدبقي أو  
 العسوف يلبسها الرجل كما تلبسها المرأة. صور مشرقة، (ص: ٤٥).

له شعر مثل نسج الدروع وطرف سقيم إذا مارنا<sup>(١)</sup>  
 وإلى صناعة الحبال يشير ابن المعتز في إحدى تشبيهاته. يقول  
 في وصف حاله الفراق بعض منازلها:  
 وفي القلب من حسرة لفراقه يلزمه كرب لها غير منجلى  
 كقوة جبل ما يفارق قرة أجادها كف الصانع المقتل<sup>(٢)</sup>  
 "وأدى انتشار التعليم وإقبال الناس على اقتناء الكتب إلى قيام  
 سوق واسعة لها. وذكر أنه كان في بغداد في القرن الثالث الهجري  
 سوق للوراقين كان فيه أكثر من مائة حانوت".<sup>(٣)</sup>  
 وكان الوراقون ينسخون بناء لطلب زبائنهم ومنهم من يقوم  
 بنسخ الكتب الراجعة".<sup>(٤)</sup>

ولقد أشار ابن المعتز إلى هذه المهنة:  
 كان الندامي حين كظوا بشره محابر وراقين قد ملئت حبر<sup>(٥)</sup>  
 "كما انتشر البقالون في بغداد في حوانيتهم الصغيرة، وعند  
 إخراج الأسواق من مدينة المنصور إلى الكرخ أبقى الخليفة حانوتا في  
 كل ربع من أرباع المدينة على ألا يبيع إلا الخل والبقل وحده... وقام  
 البقالون في محلات بغداد بالقرب من منازل الناس ومنهم من كان

(١) الديوان، (١ / ٢١٧) طبعة دار المعارف.

(٢) الديوان، (٢ / ٢٨٩)، طبعة دار المعارف. (٢ / ١٩٥)، طبعة بغداد.

(٣) تاريخ بغداد، (٢ / ٢٨٩).

(٤) العلامة في بغداد، فهمي عبد الرازق سعد، (من: ١٥٨).

(٥) الديوان، (٢ / ٢٦٣)، طبعة دار المعارف.



يتجول بين الأحياء لبيع سلعته<sup>(١)</sup>. يقول ابن المعتز عن زواج البقال من شريفة:

زوجوا ويلهم شريفة بالـ      قال يا حسنها ويا قبح بعلي  
سيح الناس إذ رأوا درة الملك      مع البيض عند صاحب بقل  
قلت ما كان مهرها ؟ قيل      من بسر ومن كامخ وزيت وغل<sup>(٢)</sup>



( ١ ) العامة في بغداد، ( ص: ١٤٤ - ١٤٥ ).  
( ٢ ) الديوان، ( ٢ / ٤٦٠ )، طبعة دار المعارف.

### رابعاً، الملابس

شأن اللباس والثياب والأزياء ببغداد في العصر العباسي شأن جدير بالعناية والدرس، لما فيه من الفوائد والطرائف. فقد تعددت الأزياء، وكان لكل صنف من الناس زي خاص يتميزون به. وقد أشار ابن المعتز إلى العديد من أنواع الملابس في شعره فيشير إلى (القباء) - وهو لباس أسود أو بنفسي يصل إلى الركبة وكان يلبسه الخلفاء<sup>(١)</sup> يقول في مدح المكتفي:

مَا زَأَتْ عَيْنِي كَفْطِي زَارِي فِي يَوْمٍ عَمِدَ  
فِي قَبَاءٍ فَاسْخِي الْـ لَوْنٍ مِنْ لَبْسٍ جَدِيدٍ<sup>(٢)</sup>

ويقول أيضاً:

فَأَذِنَا زَحَى السُّرُورِ قِدَارَتْ بِخِرَامٍ مُشْبِهٍ بِالْحَلَالِ  
مِنْ يَدِي عَسْكَرِيَةِ الزَّيْ تَمَشِي فِي قَبَاءٍ مَشْعَرِ الْأَذْيَالِ<sup>(٣)</sup>

وأشار ابن المعتز إلى لباس (الطيلسان) - وهو لباس أخضر، لحمته وسداه من صوف يلبسه الخواص من العلماء والمشايخ والقضاة، جمعه الطيلاسة<sup>(٤)</sup> يقول ابن المعتز في وصف ناقته:

(١) صور مشرقة، (ص: ٤٢).

(٢) الديوان، (١ / ٤٧٤)، طبعة دار المعارف.

(٣) نفسه، (٢ / ٢٩٧).

(٤) صور مشرقة، (ص: ٤٣).

مَلَأَتْ دَلَاءً تَسْتَقِيلُ بِحَمْلِهَا قُدَّامَ كُلِّكِلْهَا كَصُغْرَى الْحَنْظَلِ  
وَعَدَّتْ كَجُلْمُودِ الْقِدَافِ يُقْلَهَا وَافٍ كَمِثْلِ الطَّلَسَانِ الْمُحْمَلِ<sup>(١)</sup>

كما أشار ابن المعتز إلى لبس الدروع. فيقول:

لَهُ شَعَرٌ مِثْلُ نَسَجِ الدَّرُوعِ وَطَرَفٌ سَقِيمٌ إِذَا مَا رَنَّا<sup>(٢)</sup>

كما كان من الرسوم المتبعة عند دخول الناس على الخلفاء وعلى الأمراء وعلى السادة والعظماء، أن يدخلوا وهم معممين \* لأن ذلك أشبه بالاحتفال وبالتعظيم والإجلال، وأبعد من التبذل والاسترسال وأجدر أن يفصلوا بين أنفسهم في منازلهم ومواضع انقباضهم<sup>(٣)</sup>.

ويبدو أن الوزراء والأمراء كانوا يلبسون عمامة سوداء. يقول ابن المعتز عن بدر المعتضدي - أحد قادة جيش المعتضد:

مَلَأَ النُّفُوسَ مَهَابَةً وَحِبَّةً بَدَرَ بَدَا مَتَعَمِّمًا بِسَوَادٍ<sup>(٤)</sup>

كما أشار ابن المعتز إلى (الإزار) وهو لباس كان يلبسه

الزنوج. يقول في أحد تشبيهاته عن الكرم:

ظَلَّتْ عَنَاقِيدُهَا يَخْرُجْنَ فِي وَرَقٍ كَمَا اخْتَبَأَ الزُّنْجُ فِي خُضْرِ مِنَ الْأُزْرِ<sup>(٥)</sup>

ثم يشير إلى لباس (الديباج)، وهو ثوب سداه ولجمته حرير يقول وهو يصف فرسه:

(١) الديوان، (ص: ٣٢٤)، بيروت.

(٢) الديوان، (١ / ٢١٧)، دار المعارف.

(٣) البيان والتبيين للجاحظ، (٣ / ٧٧)، تحقيق السندوبي.

(٤) الديوان، (١ / ٤٧١)، طبعة دار المعارف.

(٥) الديوان، (٢ / ٢٠١)، طبعة دار المعارف.

وَإِذَا بَدَأَ تَحْتَ الرِّجَالِ حَسْبَتُهُ مُتَسَرِّباً قُبُوراً مِنَ الدِّيَارِ<sup>(١)</sup>

كما أشار إلى اللباس (المعصر)، يقول في غزله:

يَا عَاذِلِي كَمْ لِحَالِكِ اللَّهُ تَلْحَايِي فِي حُبِّ بَدْرِ عَلَى غُصْنٍ مِنَ الْبَانِ

قَدْ مَرَّ بِي وَهُوَ يَمْشِي فِي مُعْصَفَةٍ عَشِيَّةً وَسَقَايَ ثُمَّ حَيَايَ<sup>(٢)</sup>



( ١ ) الديوان، ( ص: ١١٧ )، بيروت.

( ٢ ) الديوان، ( ١ / ٤٣٦ )، طبعة دار المعارف.

### خامساً، الأطعمة

أما من ناحية الأطعمة " فقد نال فن الطبخ عناية كبيرة من جانب المؤلفين حتى نجد أبا الحسن علي بن هارون المعروف بالمنجم، وكان ممن يجالس الخلفاء وإبراهيم المهدي، وكان أميراً يحسن الغناء وحفظه وكان شاعراً مجيداً، نجدهم جميعاً يؤلفون كتباً في فن الطبخ في القرن الثالث الهجري<sup>(١)</sup>.

وإلى بعض هذه الأطعمة يشير ابن المعتز العباسي مخاطباً

أصحابه عن طعام يوم العيد:

وتأتكم إذا جمعتم	صفار المعز الشعر
وحدث كسكريات	لها من ذهب قشر
وبنى وشبوط	ذراع عرضه شير
وأصناف من الحلوا	ء ما عن مثلها صير
إذا ما فتحت عنها	ضخام السفر والسر <sup>(٢)</sup>

كما يشير ابن المعتز إلى تقنينهم في شواء اللحم. يقول:

يَقُولُ أَكَلْنَا لَحْمَ جَذِي وَنَطَّةٍ وَعَشْرَ دَجَاجَاتٍ شِوَاءً بِالْوَانَ<sup>(٣)</sup>

(١) آدم متز، (١ / ٢٣٦).

(٢) الديوان، (٢ / ١٧٦)، طبعة دار المعارف، (٢ / ٥٧٠)، طبعة بغداد -

والكسك: كورة واسعة كانت مشهورة بالدجاج، والبنى والتبوط: أنواع من الأسماك.

(٣) الديوان، (١ / ٧٣١)، طبعة بغداد.

كما اهتم الناس أيضا بتبريد الشراب في أيام الصيف، مما يجعلهم يولعون بالتلج. فكانت قصور الخلفاء والأمراء والأعيان لا تخلو من خزائن يخزن فيها الثلج.<sup>(١)</sup>

وإلى استعمال الثلج في التبريد يشير ابن المعتز، يقول:  
والزم البيت وامزج الشراب بالثلج واطف بالحيش نار المهجير<sup>(٢)</sup>



(١) صور مشرقة، (ص: ١٩).

(٢) الديوان، (٢ / ٢٦٤)، طبعة دار المعارف.

### سادسا: الأعياد والمناسبات والحفلات

نقد كان الخلفاء والمسلمون يحتفلون بالأعياد الإسلامية - عيدي الفطر والأضحى - احتفالا دينيا... فكان الخليفة يوم الناس في الصلوة ويلقى خطبة بليغة في فضائل العيد فيحث المسلمين على التمسك بتعاليم الإسلام. وكانت بغداد تسطع بالأنوار في ليالي العيد وتتجاذب أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير وتزدحم دجلة بالزوارق المزينة بأبهى الزينات<sup>(١)</sup>. ولم يفت ابن المعتز العباسي أن يوضح لنا كيفية هذا الاحتفال في شعره. فنراه يبين لنا قدوم عيد الفطر المبارك والاستعداد له. يقول:

قَدْ قَرَّبَ اللَّهُ مَنَا كُلَّ مَا امْتَنَعَا      فَلَا نَ قَاعُدُ عَلَى الْمَدَامِ وَتَكْرُرُ  
فَتُخَذَ لِفِطْرِكَ قَبْلَ الْعِيدِ أَهْبَتُهُ      فَإِنْ شَهْرَكَ فِي الْوَاوَاتِ قَدْ وَقَعَا<sup>(٢)</sup>

ويقول أيضا مرحبا بعيد الفطر:

أَهْلًا بِفِطْرِ قَبْدِ أَنْارِ هَلَالِنَا      كَأَنِّي بِهَلَالِ الْعِيدِ قَدْ طَلَعَا  
وَانْظُرْ إِلَيْهِ كَزَوْزَقٍ مِنْ قُضَا      قَدْ أَثْقَلَتْهُ حُمُولَةٌ مِنْ عَبْرٍ<sup>(٣)</sup>

كما يشير ابن المعتز إلى الأضحى في عيد الأضحى وكيف أن الناس يضحون بالشاة والبقر. يقول:

(١) العرب والمضارة، د. الخربوطلي، (ص: ٢٥٣).

(٢) الديوان، (٢ / ١٩١)، طبعة دار المعارف.

(٣) نفسه، (٢ / ١٨٥).

إن كان ضحى الورى بالشاة والبقر فكل يوم يضحى بدر بالبدر<sup>(١)</sup>  
 " وكان الاهتمام بشهر رمضان يجري على الصعيدين الرسمي  
 والشعبي، فكانت الحكومة تبادر عند حلوله إلى توزيع الصدقات على  
 الفقراء والمحتاجين وتعنى بالمساجد فتضيئها ليلاً بالمصابيح<sup>(٢)</sup> كما كان  
 المسلمون يهتمون بالاحتفال بهذا الشهر المبارك ويكثر فيه من العبادة  
 ويهتفون بعضهم بقدومه. يقول ابن المعتز مهذا الوزير القاسم بن  
 سليمان بشهر رمضان:

أدامَ المهيمُ عزَّ الوزيرِ وَزادَ الحسودَ غَلِيهَ هَوانا  
 وَعَرَفَهُ يُمنَ شهرِ الصيامِ وَأَعْطاهُ مِن كُلِّ سوءِ أمانا<sup>(٣)</sup>

وكان الغاؤون من المسلمين يمتنعون عن ارتكاب الموبقات في  
 شهر رمضان وكانوا يقضون الشهر الكريم في الصيام والصلاة. يقول  
 ابن المعتز مبينا الامتناع عن الشراب في هذا الشهر والاجتهاد في  
 العبادة:

قم فاحي بالكاسِ قوماً ماتوا صلاةً وصوماً  
 لم يَظفموا لذةَ العيِّ شئَ مد ثلاثين يوماً<sup>(٤)</sup>

ولقد وضح ابن المعتز كيف أن إبليس نفسه ينفي في شهر رمضان .  
 يقول:

( ١ ) نفسه، ( ١ / ٤٥٣ ) .

( ٢ ) البغداديون أيام زمان، ( ١ / ١٣٥ ) .

( ٣ ) الديوان، ( ١ / ٥٢١ ) ، طبعة دار المعارف .

( ٤ ) الديوان، ( ٢ / ٣٠٩ ) ، طبعة دار المعارف .



ووجدنا الشيخ إبليس مقيما بالعلافة . قد نفاه شهر نسك وصيام وصلاة<sup>(١)</sup> وفي بداية موسم الحج يتوافد الحجاج من كل فج متجهين إلى بيت الله الحرام، ليقوموا شعائر الحج، وإلى جانب الحج يقومون ببعض الأعمال التجارية التي تجلب عليهم الكسب والمنفعة، يقول ابن المعتز موضحا ذلك في أرجوزته التاريخية:

فَكَمْ مُلَّبٌ أَشَقَّتْ قَدْ أَحْرَمَا      يَرْجُو مِنَ اللَّهِ الْعَطَاءَ الْأَعْظَمَا  
جَاءَ إِلَى الْكَعْبَةِ مِنْ أَرْمِينِيهِ      وَمِنْ غُرَاسَانَ وَمِنْ إِفْرِيقِيهِ  
وَعَابِدٌ جَاءَ مِنَ الشَّامَاتِ      قَدْ سَارَ فِي الْبَرِّ وَفِي الْفُرَاتِ  
وَتَاجِرٌ مَعَ حَجَّهِ وَغُمْرِكِهِ      يَطْلُبُ رِبْحَ مَالِهِ فِي سَفَرَتِهِ  
مُقَدِّرٌ فِي الرِّيحِ أَضْعَافَ الْقَمَنِ      مِنْ قَاصِدٍ صَنَعَ إِلَى أَرْضِ عَدَنٍ<sup>(٢)</sup>

ولم يكتف المسلمون بالاحتفال بالأعياد والمناسبات الإسلامية فقط بل كانوا يحتفلون بأعياد الفرس والديانات الأخرى مجاملة لرعاياهم ومن أشهر هذه الأعياد النيروز والمهرجان. "أما النيروز فهو أول أيام السنة عند الفرس، وكانت العامة يتبادلون فيه الهدايا.. وكان أصحاب السماجات يظهرون بين يدي الخليفة فينثر عليهم الدراهم"<sup>(٣)</sup>.

وعن الاحتفال بعيد النيروز يقول ابن المعتز:

فَاشْرَبَ غَدَاةَ النَّيروزِ صَافِيَةً      أَيَّامُهَا فِي السُّرورِ سَاعَاتُ

(١) نفسه، (٢ / ١٦٧).

(٢) الديوان، (١ / ٥٦٩ - ٥٧٠)، طبعة بغداد.

(٣) آدم متر (١ / ٢٨٧).

قَدْ ظَهَرَ الْجِنُّ بِالنَّهَارِ لَنَا      مِنْهُمْ صُنُوفٌ مُرَدَّةٌ غِيَّاتُ  
تَمِيلُ فِي رَقَصِهِمْ قُدُودُهُمْ      كَمَا تَأَلَّتْ فِي الرِّيحِ سُرُوتُ  
وَزَكَبَ الْقُبْحُ فَوْقَ حُسْنِهِمْ      فِي سَمَاجَاتِهِمْ مَلَاحَاتُ<sup>(١)</sup>

أما عيد المهرجان، " فكان يعتبر أول أيام الشتاء، وظل إلى جانب النيروز أكبر الأعياد، وكان الناس يتهاون فيه أيضا.. وكان العامة يغيرون فيه الفرش والآلات وكثيرا من الملابس".<sup>(٢)</sup>

ويقول ابن المعتز في الاحتفال بعيد المهرجان:

مَهْرَجُوا فِي السَّبْتِ      إِنْ السَّبْتِ يَوْمَ الْمَهْرَجَانِ  
وَحَذَوْهَا مِنْ عَقَارٍ      عَتَقَتْ صَفْوُ الدَّنَانِ  
وَاسْتَخَصُوا كُلَّ عَوْدٍ      وَاقْصَدُوا قَصْدَ الْمُنَانِ  
إِنَّمَا الْعَيْشُ شَرَابٌ      وَسَمَاعٌ مِنْ قِيَانِ<sup>(٣)</sup>

كما كانوا يحتفلون بعيد (الشعانيين) وهو من أعياد القبط ومعناه بالعربية التسبيح، يعملونه في سابع أحد من صومهم<sup>(٤)</sup> يقول عنه ابن المعتز:

إِنَّ فِي قَلْبِي مِنَ الظَّيِّ كَلُومٍ      فَدَعْ اللَّوْمَ فَإِنَّ اللَّوْمَ لَوَمٌ  
حَيًّا يَوْمَ الشَّعَانِينَ وَمَا      نَلْتُ فِيهِ مِنْ سُرُورٍ لَأَيَّدُومُ<sup>(٥)</sup>

(١) الديوان، (ص: ١٠٧). طبعة بيروت.

(٢) آدم متز، (١ / ٢٩٠).

(٣) الديوان، (٢ / ٣١٨)، طبعة دار المعارف.

(٤) صبح الأعشى، (٢ / ٤١٥).

(٥) الأغاني، (١٠ / ٢٧٩)، دار الكتب.

\* وكذلك كانت حفلات الختان والزواج من أشهر الحفلات في قصور الخلافة<sup>(١)</sup> وعن زواج جعفر بن الخليفة المعتضد بابنة بدر، وتزويج الهلال بابنة القاسم ابن عبيد الله الوزير. يقول ابن المعتز مهنئاً بهذا الزواج:

قُلْ لِلْأَمِيرِ سَلِمَتْ لِي	دُنْيَا وَشَعْبٌ صُدِّعِهَا
قَدْ نِلْتَ مَهْرَ خِلَافَةٍ	لَمْ تَخْطُ حُسْنَ صَنِيعِهَا
وَحَوَّيْتَ بِنْتَ وَزَارَةٍ	كَالْتَمَسِ حِينَ طُلُوعِهَا
إِنَّ الْأَصُولَ تَفَرَّقَتْ	فَتَعَانَقَتْ بِفُرُوعِهَا <sup>(٢)</sup>



(١) آدم مئز، (١ / ٢٩٥).

(٢) الديوان، (١ / ٤٧٦)، طبعة بغداد.

### سابعا، الموسيقى والغناء والشراب ووسائل اللهو والمرح

من الصور الطريفة التي كان لها الصدارة في عصور بغداد السالفة المزدهرة: فنون الغناء والموسيقى. فقد كانت آلات الموسيقى في أغلب الأحيان: العود، والطنبور، والقانون، والمزمار، والجثك. وكانت الجوارى يغنين من وراء ستارة. وإذا بالغ رب البيت في إكرام ضيوفه، طلب إليهن أن يغنين بين يدي الستارة، حيث يصيح بهن: ما هذا الاحتشام لأضيافنا أعزهم الله، اخرجن، فيهتك الستارة، فيخرجن، وهن ما بين: عوادة، وطنبورية، وزامرة، وصناجة، ورقاصة، ودقاقة، وكراعة. وكلهن بفاخر الثياب ونفيس الحلى<sup>(١)</sup>. فالموسيقى تقدمت تقدما كبيرا وألفت فيها الكتب. وعن بعض

أدواتها يحدثنا ابن المعتز العباسي. فيقول:

أما ترى أربعا للهو قد جمعت      جثك وعود وقانون ومزمار<sup>(٢)</sup>

ويقول أيضا:

ومجلس فيك لست ناسيه      حسن به مزر ومزمار<sup>(٣)</sup>

(١) صور مشرقة، (ص: ٨٧)، والكراعة: مغنية تغنى على طبل صغير.

(٢) الديوان، (ص: ٢٢٢)، بيروت.

(٣) الديوان، (٢ / ٢٥٥)، طبعة دار المعارف.

أما عن الغناء فقط ارتبط أكثر ما ارتبط بالشراب، ففي دور الشراب وحانات الخمر كانت تجتمع قريحة الشعراء، وحناجر القيان المغنيات، وصخب السكارى، وقرقة الكئوس والدنان فواحد يطلب سماع إبراهيم الموصلي والآخر يرغب سماع غناء عريب - والقيان حريصات على إرضاء الجميع. وهؤلاء القيان من طبيعة مهنتين يتوددن إلى صاحب المال ويبدن غوايتهن له ويعمدن إلى جميع الوسائل المغربية لإيقاعه في أحابلهن<sup>(١)</sup>.

وعن الغناء يقول ابن المعتز:

عندنا سيدي نديم وزيجنا ن وَكَّاسٌ وَقَيْسَةٌ وَحَيْبُ  
وَمُغْنٌ يَقُولُ مَا تَعَجُّزُ الْأَلْ فَاظْ عَنْهُ حُلُوُ الْحَدِيثِ أَدِيبُ<sup>(٢)</sup>

وكثيرا ما كان يصحب المغنى فرقة موسيقية من الجوارى والقيان فهذه عوادة تضرب على العود، وطنبورية، وزامرة.. وغيرهم، يقول ابن المعتز يصف زامرة:

وَأَسْوَدٌ فِي كَفِّ مَجْدُولَةٍ لَطِيفٌ لَهُ خِلْقَةٌ مُنْكَرَةٌ  
إِذَا اسْتَوْدَعَتْ سِرَّهَا عِنْدَهُ فَأَحْسَنُ مَا فِيهِ أَنْ يُظْهِرَهُ<sup>(٣)</sup>

أما عن أرض الشراب فكانت تفرش بالورود والرياحين، وشتى أنواع الزهور. يقول ابن المعتز:

(١) البغداديون أيام زمان، (ج ١ / ١٥١).

(٢) الديوان، (٢ / ١٥٧)، طبعة دار المعارف.

(٣) نفسه، (٢ / ١٨٥).

يَسْقِيهَا حَيْثُ الْخَاطِطُ ذُو حَيْفٍ      كَانَ الْخَاطِطُ أَفْرَقَنَ مِنْ دَاءٍ  
عَلَى فِرَاشٍ مِنَ الْوَرْدِ الْجَنِيِّ وَمَا      تَذَلَّتْ مِنْ تَفْحَاتِ الْوَرْدِ بِاللَّاءِ<sup>(١)</sup>

أما عن الشراب نفسه فقد تعددت أنواعه وأسماؤه، من خمر وخنديس، وسلافة، وقهوة صفراء، ودوشاب، ونبيذ وغيرها، كما كثرت أدواته أيضا، من أباريق ودنان وكثوس وأقداح ومبذال. يقول ابن المعتز في الشراب:

أنا في لذة وفي طيب عيش      فأغنى اليوم من شراب الزبيب  
واسقى من سلافة الكرم ربا      إن للراح راحة في القلوب  
قهوة تجلب السرور وتنفسى      كل هم إذا بدا للكيب  
شاب منها الماء لون اصفرار      فلها لون عاشق مكروب  
وصغت فهي ليس تشبه      به إلا خلق الماجد الكريم النجيب  
فإذا ما كرعت فيها      تلقتك لها ضمه كضم الحبيب<sup>(٢)</sup>

وإلى أنهم كانوا يقصدون البساتين للشراب فيها حيث الجمال والخضرة، يقول ابن المعتز:

اشرب على الورد في البساتين      وغضرة الآس في الميادين  
من قهوة في الدنان مسكنها      يا صاح رطلا ملاء واسقني  
إن كان ورد الربيع من زهر      فإن ورد الخدود من (نسرين)<sup>(٣)</sup>

(١) نفسه، (٢ / ٢٠٩)، طبعة دار المعارف.

(٢) الديوان، (٢ / ٢١٥)، طبعة دار المعارف، وللمزيد عن الشراب انظر: الفصل الأول من القسم الثاني في الخمر.

(٣) الديوان، (٢ / ٢٠٧ م)، طبعة دار المعارف.

## الفصل الثالث

أما عن وسائل اللهو فقد عرف العصر العديد من الألعاب مثل  
سباق الخيل والصولجة<sup>(١)</sup> والصيد ولعب الشطرنج وغيرها. وعن  
الصولجة وسباق الخيل يقول ابن المعتز يصف معركة سباق:

وكم غدوت بفتيان تسيل بهم	سوابق أحكمتهن المضامير
مكشفات بأذان نواصيها	كما يشق عن الطلع الكوافير
ترو كراقم في كل معسكر	كما يطير من الذعر العصافير
كان سرجي على فتحاء ضاربة	مخضبات دما فيها الأظافير
تحال آخره في الشد أوله	وفيه عذو وراء السقي مذخور
أن يدق الصخر بهشمه بحافره	كأنه من علاه القين منقور
يملا (ميادينه) واخيل ناقصة	وذبحا فيه عند القوم مغفور <sup>(٢)</sup>

وإلى لعبة الصولجة يشير ابن المعتز في إحدى تشبيهاته يقول:

وَأَصْفَتِ الْعَقْرَبُ لِلرُّغَابِ يَذْكَبُ كَصَوْلُجَانِ اللَّاعِبِ<sup>(٣)</sup>

كما يشير إليها أيضا وهو يصف ساقى خمر:

وَسَاقٍ مُطِيعٍ لِأَخْيَابِهِ	عَلَى الرُّقْبَاءِ شَدِيدِ الْجَرَةِ
له شعر كجناح الغداف	يسيل على عرة مقمرة
وفي غطفة الصُّنْعِ خَالٌ لَهُ	كَمَا اسْتَلَبَ الصَّوْجَانُ الْكُرَةَ <sup>(٤)</sup>

(١) للصولجة هو ضرب كرة من ظهور الخيل، وأصلها فارس وكان الخلفاء يلعبون  
بالصولجة في ميادين خاصة في قصورهم \* آدم مقرر (١ / ٢٥٦).

(٢) الديوان، (٢ / ١٦٩)، طبعة دار المعارف.

(٣) نفسه، (٢ / ٣٦٨)، طبعة دار المعارف.

(٤) نفسه، (٢ / ٢٥٥)، طبعة دار المعارف.

أما عن الصيد، فقد احتفظ بمقدمة وسائل اللهو والمرح. وابن

المعتر يصف لنا رحلة صيد، يقول:

وَلَا صَيْدَ إِلَّا بِوَقَائِبَةٍ      تَطِيرُ عَلَى أَرْبَعٍ كَالْعَذَبِ  
وَأِنْ أَطْلَقْتَ مِنْ قِلَادَاتِهَا      وَطَارَ الْغَبَارُ وَجَدْتَ الطَّلَبِ  
فَزَوْبَقَةٌ مِنْ بَنَاتِ الرِّيحِ      تُرِيكَ عَلَى الْأَرْضِ شَيْئًا عَجَبِ  
تَضُمُّ الطَّرِيدَ إِلَى نَحْرِهَا      كَضَمِّ الْحَبِّ لِمَنْ قَدْ أَحَبِ  
أَلَا رَبُّ يَوْمٍ لَهَا لَا يُدْخِلُ      أَرَأَيْتَ دُمًا، وَأَغَابَتْ سَعْبِ  
لَهَا مَجْلِسٌ فِي مَكَانِ الرَّدِيفِ      كَرَكِيَّةٍ قَدْ سَبَتْهَا الْقَرْبِ  
وَمُقَلَّتْهَا سَائِلٌ كَحُلِّهَا      وَقَدْ جَلَّتْ سَبَجًا مِنْ دَقَبِ  
فَطَلَّتْ لُحُومٌ طِبَاءَ الْفَلَاةِ      عَلَى الْجَمْرِ مُعْجَلَةً تُنْتَهَبِ  
وَطَافَتْ سُقَاتُهُمْ يَمْرُجُونَ      بِمَاءِ الْغَدِيرِ بَنَاتِ الْعَتَبِ  
وَحَنُّوا التَّدَامِي بِمَشْمُولَةٍ      إِذَا شَارِبٌ عَبٌّ فِيهَا قَطَبِ  
فَرَاخُوا نِشَاوِي بِأَيْدِي الْمَدَامِ      وَقَدْ نَشَطُوا عَنْ عِقَالِ الثَّعَبِ  
إِلَى مَجْلِسِ أَرْضُهُ نَرْجِسَ      وَأَوْتَارُ عِيدَانِهِ تَصْطَخِبُ<sup>(١)</sup>

وعادة ما تنتهي رحلة الصيد بشواء اللحم والشراب. كما نفهم

من الأبيات السابقة.

ويشير ابن المعتر إلى أنهم كانوا يستخدمون السفن في الصيد

من البحر يقول مخاطباً أصحابه في مظاهر الاحتفال بالصيد:

فَإِنْ أَلْزَمَ الصَّيْدَ      فَهَذَا الْبَرُّ وَالْبَحْرُ  
فَإِنْ شَتَمَ فَحَمَرُ الْوَحْشِ      وَالظُّلْمَانُ وَالْعَفْرُ

(١) الديوان، (ص: ٥٨ - ٥٩)، طبعة بيروت.



وإلا فالسـمـنـدات وطرير الماء والغـر<sup>(١)</sup>

أما عن لعبة الشطرنج فقد " كان الناس يلعبون بها وخصوصاً الخلفاء لهوا كبيراً. وكانوا يعدونه في ذلك العصر من الآداب. وكان المتوكل يرى نداماء يلعبون الشطرنج بين يديه، وكذلك أولع بالشطرنج المعتضد، وقد كانوا يشترطون في النديم أن يكون شطرنجياً، وإذا كانت القينة شطرنجية زادت قيمتها وزادت الرغبة فيها، نظراً لجمعها بين الأثوثة والمنادمة<sup>(٢)</sup>."

وقد أشار ابن المعتز إلى لعبة الشطرنج في إحدى تشبيهاته، يقول:

وَسَلَّكَ فِي شَوَارِعِ خَالِيَاتٍ      أَخْلَى اللَّيْلُ فَبَيْنَ الثَّغَاتِ  
وَحَيْطَانِ كَشِطْرَنْجٍ صُفُوفٍ      فَمَا تَنْقَلُبُ تُضْرِبُ شَاةَ مَا<sup>(٣)</sup>



(١) الديوان، (٢ / ١٧٦)، طبعة دار المعارف.

(٢) للبغداديين أيام زمان، (١ / ١٤٨).

(٣) الديوان، (٢ / ١٦٣)، طبعة دار المعارف.

### ثامناً: التجارة والزراعة ووسائل الانتقال

" لقد نالت التجارة جانبا عظيما من عناية العباسيين ورعايتهم فقد اتسعت الدولة العباسية وأصبحت أعظم دول العالم في ذلك الحين، وشملت أقاليم متنوعة البيئات والمناخ. وأدى هذا التنوع إلى تنوع في المحصولات الزراعية واختصاص كل إقليم بأنواع خاصة من المصنوعات وقامت حركة تبادل على نطاق واسع بين ولايات الدولة العباسية تحقيقا لسياسة الاكتفاء الذاتي، كما قامت حركة تجارية عالمية، ترمي إلى تبادل أنواع التجارة المختلفة مع دول العالم".<sup>(١)</sup>

ولكن يبدو أن التجار كانوا غير آمنين في معظم عصر ابن المعتز. فعن التجارة واستخدام السفن في نقل البضائع، وكيف كان الصغار ورجاله يهددون أمن التجارة يقول ابن المعتز في أرجوزته التاريخية:

وَجَزَعَتْ مِنْ خَوْفِهِ الْفَرَاغَةَ	وَأَصْبَحَتْ سَفُنُ الْبَحَارِ آمِنَةً
وَكَانَ فِي دَجَلَةِ أَلْفِ مَاخِرٍ	لَمْ يَعْينَهَا إِلَّا جَنَاحُ طَائِرٍ
يَجِيُونَ كُلُّ مُقْبِلٍ وَمُدْبِرٍ	مُجَاهِرِينَ بِالْفِعَالِ الْمُنْكَرِ
كَمْ تَاجِرٍ رَاوَعَهُمْ بِزَوْقِهِ	فَأَغْمَدُوا سُيُوفَهُمْ فِي مَقْرِقِهِ
وَقَرَّتِ الْأَعْرَابُ فِي السِّبْلَادِ	وَعَهْلِكُوا إِهْلَاكَ قَوْمِ عَادٍ <sup>(٢)</sup>

(١) العرب والحضارة، د. الخربوطلي، (ص: ٢٤٠).

(٢) الديوان، (١ / ٥٤٦ - ٥٤٧)، طبعة بغداد.

ولكن ابتزاز التجار والاستيلاء على سفنهم قلب في عهد المعتضد حيث انتشر الأمن والأمان كما تقول الأرجوزة:

فَالآنَ زَالَ كُلُّ ذَاكَ أَجْعُ وَأَصْبَحَ الْجَوْرُ بِعَدْلِ يُقْمَعُ<sup>(١)</sup>

أما عن الزراعة فقد "لقيت اهتماما كبيرا في عهد الخلفاء العباسيين لأن عاصمتهم بغداد كانت تقع في أحسن البقاع في ذلك السهل الخصيب المعروف باسم السواد، وفضلت العباسيون إلى أن الزراعة من أهم موارد الدخل في الدولة. وكانت فلاحة الأرض يقوم بها السكان الوطنيون الذين تحسنت حالتهم في ظل الدولة العباسية"<sup>(٢)</sup> وكانت حاصلات العراق الرئيسية في العصر العباسي تتكون من الشعير والأرز والبلح والسمسم والقطن والكتان<sup>(٣)</sup>.

"وكانت الحنطة أكثر مما يزرع، وكان ارتفاع أسعار القمح يذكر دائما دليلا من دلائل غلاء المعيشة. وكان الكروم أكثر مما يزرع من الفاكهة. وقد أضاف القرن الثالث فاكهتين - الأترج والنانج وكذلك وجد البطيخ والتفاح والرمان والتمر، وكان من الأطعمة المحبوبة التين الذي يؤكل في آخر الطعام"<sup>(٤)</sup>.

ويحصى ابن المعتز العديد من هذه الحاصلات الزراعية في

ديوانه.

يقول في القمح مثلا:

(١) الديوان، (١/٥٦٠)، طبعة بغداد.

(٢) تاريخ العرب، (ص: ٤٢٩).

(٣) نفسه، (ص: ٤٤٠).

(٤) أتم متر، (١/٣٠١).

أودعت قمحاً فلما بُررت      كُلتُ أرضي أنبتت شوك القناد<sup>(١)</sup>

وفى النخل:

ولقائح في الطين باركة      لا تشكى حلا ولا رحلا<sup>(٢)</sup>

ويقول في الجزر:

أنظر إلى الجزر الذي      يحكي لنا لهب الحريق

كمدبة من سندس      وبها نصاب من عقيق<sup>(٣)</sup>

ويقول في النارج:

وكألما السارنج في أغصانه      من خالص اللهب الذي لم يخلط

كرة زماها الصولجان إلى الهوا      فتعلقت في جوه لم تسقط<sup>(٤)</sup>

ويقول عن التفاح:

وتفاحة صفراء حمراء غضة      كخذ محب فوق خد حبيب

أحيا بها طورا وأشرب مثلها      من الراح في كفي أغن ربيب<sup>(٥)</sup>

وقال في الرمان:

ولاح رماننا فزيتنا      بين صحيح وبين مفشوت

من كل مصفرة مزغفرة      تفوق في الحسن كل متغشوت

( ١ ) الديوان، ( ٥٨ / ٢ )، طبعة بغداد.

( ٢ ) نفسه، ( ٦٢٨ / ٢ ) .

( ٣ ) الديوان، ( ٦٢٢ / ٢ ) . طبعة بغداد.

( ٤ ) الديوان، ( ٦١٠ / ٢ )، طبعة بغداد.

( ٥ ) الديوان، ( ٤٨٠ / ٢ )، طبعة دار المعارف.

كأنها حَقَّةٌ فَإِنْ فُتِحَتْ فَصُرَّةٌ مِنْ فُصُوصٍ يَأْقُوتُ<sup>(١)</sup>

وقال في القثناء:

انظر إليه أنابيبًا منضدة  
إذا قلبت اسمه بانت ملاحته  
من الزمرد خضرًا ما لها ورق  
وصار مقلوبه أبي بكم ألق<sup>(٢)</sup>

وقال في الليمون:

كأنما الليمون لثًا بدا  
مداهن من ذهبٍ أطيقت  
للعين في أوراقه الحضر  
على زكي المسك والخمر<sup>(٣)</sup>

وقال في اللتين:

أنعم بين طابَ طعامٍ واكتسى  
في برد تلج في نقا تبرٍ ولي  
حسنا وزان مخرجا من منظر  
ريح العبير وطيب طعم السكر  
يحكى إذا ما صب في أطباقه  
خيما ضروب من الحرير الآخر<sup>(٤)</sup>

وقال في الفستق :

وفستق مستلذ  
كانه حين ترسو  
من بعد شرب الرحيق  
حق من العاج يحوي  
إليه عين الرموق  
زمرداً في عقيق

( ١ ) الديوان، ( ٢ / ١٦٦ ) .

( ٢ ) الديوان، ( ٢ / ٦٢٣ ) ، طبعة بغداد .

( ٣ ) الديوان، ( ٢ / ٥٩٩ ) ، طبعة بغداد .

( ٤ ) نفسه، ( ص : ٥٩٥ ) ، وما بعدها .

وكانت زراعة الورد متقدمة جداً، فهناك الورد والنرجس والثقيق والباقلاء والكافور والبهار والأقحوان والسوسن والبنفسج والياسمين والخيري والنوار.<sup>(١)</sup>

وتزخر كتب التراث العربي بأخبار الأزهار والأشجار والبساتين والمشهور في التاريخ، أن أكثر القوم عناية بأمر إنشاء البساتين يوم ذلك، والولوع في تنسيقها، هم الخلفاء والأمراء والسلطين والوزراء وأعيان الناس وأماثلهم من ذوى المال والغنى.<sup>(٢)</sup>

وابن المعتز العباسي كان يهتم بزراعة البساتين، فنراه يذم بستانه لأنه لا يخرج زرعا، يقول:

إذا ما سقى الله البساتين كلها سجال سحاب دائم الورق فسكب  
فأعطش بستانى الإله ولا سقى له طاقة ما لآخ نجم وما غرّب  
كثوم لحب البذر ليس بساتين وأشرب من زملاي يترين لا شرب  
ومرسي لغرس الآس والثقل حلق بترية الجرباء من أخت الشرب  
أصق في حنرة قلها وقد كنت أزوجو أن أصق من طرب<sup>(٣)</sup>

ويقول في البنفسج:

ولازوردية أوفت بزرقها بين الرياض على زرق البواقيت  
كألها فوق طاقات ضغن بها أوائل الثار في أطراف كبريت<sup>(٤)</sup>

(١) آدم مئز، (١ / ٢١٣).

(٢) صور مشرقة من حضارة بغداد، (ص: ٩٥).

(٣) اللديون، (٢ / ١٥٤)، طبعة دار المعارف.

(٤) نغمه، (ص: ١٨٦).

ويقول في الدرجس:

الرجس الغض الجني عيونه      حدق بلا هذب ولا أشفار  
حدقت به فوق الزبرجد فضة      تحكي شعاع كواكب الأسفار

ويكفي أن نقرأ أرجوزته التي قالها في ذم الصبوح؛ لنرى ونشم<sup>(١)</sup> ذلك البستان الجميل المليء بشتى أنواع الورد. يقول في مقدمتها:

أما ترى الإنسان كيف نورا      وتشر المنور نردأ أصفرا  
وضحك الورد على الشقائق      واعتق القطر اعتاق الوامق  
في روضة كحللة العروس      وخدم كهامة الطاووس  
وياسمين في ذرى الأغصان      منتظما كقطع المقيان<sup>(٢)</sup>

أما عن وسائل الري في هذا العصر، فقد كانوا يستخدمون السواقي، حيث أن المياه كانت متوفرة. وفي الساقية يقول ابن المعتز:

كأنما ناعورة غنت لنا      معدد يكي على ألف هجر  
كأنما الدولاب في ترجيعه      عصاة تلو المزامر سحر<sup>(٣)</sup>

كما كانوا يستخدمون الآبار في الري. إذ كانت الأرض بعيدة عن مجرى المياه. يقول ابن المعتز في صفة بئر:

وبئر هديت بها غلبة      وطفل التبات بها منعش  
فقت بها جيب كافورة      من الأرض جدولها منكمش

(١) نفسه، (ص: ١٦٨).

(٢) الديوان، (٢ / ٥٤٠)، طبعة بغداد.

(٣) الديوان، (١ / ٣٦٩)، طبعة دار المعارف.

نَمَزَقُ رِيًّا جُلُودَ الثَّمَا      رِ إِذَا مَصَّ مَاءَ الثَّمَارِ الْعَطَشَ  
كَفِيلَ لِأَشْجَارِهَا بِالْحَيَا      إِذَا مَا جَرَى خِلَتُهُ يَرْتَعِشَ  
وَدَبَّتْ سَوَاقِيهِ فِي رَوْضَةٍ      حَمَاحِمُهَا كَرُؤُوسِ الْحَيَشِ<sup>(١)</sup>

أما عن وسائل الانتقال في هذا العصر فكان لكتراء الحمير وسيلة قريبة للانتقال تستعملها الطبقة الوسطى من أهل المدن، وكان أكبر محل يقف فيه الحمارون بحميرهم ببغداد عند باب الكرخ، وهو مدخل القسم التجاري وأما في المدن التي تقوم عليها الأنهار كبغداد والبصرة فقد كان الانتقال بالقوارب أيضا، وقد أحصيت السمريات والعبرائيات بدجلة أيام الخليفة المعتمد فكانت ثمانين ألفا يقدر كسب ملاحيتها في كل يوم بتسعين ألف درهم<sup>(٢)</sup>.

ويقول ابن المعتز عن سفينة:

زُلْجِيَّةٌ كَرْدِيَّةٌ الْخَلِي فَوْقَهَا      جَنَاحٌ لَهَا فَرْدٌ عَلَى الْمَاءِ يَخْفِقُ  
يُؤَدِّبُهَا أَوْلَادُهَا بِمَصِيَّتِهِمْ      فَتَحْبَسُ قَسْرًا كَيْفَ شَاءُوا وَتُطْلَقُ<sup>(٣)</sup>



(١) الديوان: (٢ / ٦٠٦). طبعة بغداد.

(٢) آدم متر: (١ / ٢٧٢).

(٣) الديوان: (٢ / ٦٠٦).



البابُ الثَّانِي  
الاستخدامات الفنية لصور الحضارة  
في  
شعر ابن المعتز

♦ الفصل الأول:

أثر الحضارة في الموضوعات الشعرية

♦ الفصل الثاني:

أثر الحضارة في البناء الفني للقصيدة

♦ الفصل الثالث:

أثر الحضارة في التصوير الفني





## الفخر

والافتخار كما يقول ابن رشيقي: "هو المدح نفسه إلا إن الشاعر يخصص به نفسه وقومه، وكل ما حسن في المدح حسن في الافتخار، وكل ما قبح فيه قبح في الافتخار".<sup>(١)</sup> وإنه لما كانت فضائل الناس، من حيث أنهم ناس، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان، على ما عليه أهل الألباب، من الاتفاق في ذلك، إنما هي: العقل، والشجاعة، والعدل، والعفة؛ كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيباً، والمادح بغيرها مخطئاً... ومن أقسام العقل: ثقافة المعرفة، والحياء، والبيان، والسياسة، والكفاية، والصدع بالحجة، والعلم، والحلم عن سفاهة الجهلة، وغير ذلك مما يجري هذا المجرى.

ومن أقسام العفة: القناعة، وقلة الشره، وطهارة الإزار، وغير ذلك مما يجري مجراه.

ومن أقسام الشجاعة: الحماية، والدفاع، والأخذ بالتأر، والنكاية في العدو والمهابة، وقتل الأقران، والسير في المهامة الموحشة، وما أشبه ذلك. ومن أقسام العدل: السماحة، ويرادف السماحة التغاين، وهو من أنواعها وإلا فظلام والتبرع بالفائل، وإجابة السائل، وقرى الأضياف، وما جانس ذلك".<sup>(٢)</sup>

(١) العمدة، (ص: ٣٥٥).

(٢) نقد الشعر: لقدامة بن جعفر، (ص: ٩٦-٩٨).

هذا بالإضافة إلى أن الإسلام أدخل العديد من المفاهيم والصفات  
لتى ينبغي أن يتمتع بها المسلم. ومن خلال ذلك نريد أن نعرف بماذا  
افتخر ابن المعتز وكيف رأى نفسه. وذلك بتناول البناء العقلي لشخصيته ثم  
البناء المعنوي. فمن البناء العقلي: صدع الحجة والبيان، كما يذهب قداسة  
ومن ذلك يقتخر ابن المعتز بنفسه. يقول:

وَفَتَحْتُ أَسْمَاعَ الْخُصُومِ بِحُجَّةٍ بَيِّنَةٍ تُبْرِئُ الْبَيِّنِ الْأَكْمَهَا<sup>(١)</sup>

ومن افتخاره بأدبه وصواب رأيه واكتفاء نفسه بقوتها:

لَا تَلْتَقِي بِي طُرُقُ الْمَاهِلِ وَلَا أَرَى فَرَسَةَ لَاكِيلٍ

مِنْ مَعْتَرِهِمْ جِلَّةُ الْقَبَائِلِ مُنْفَرِّدًا بِخَبِّ وَنَائِلِ

وَأَذْبٍ يُكَيِّرُ غَيْظَ الْجَاهِلِ وَقَوَتْ نَفْسِي كَانَ غَيْرَ وَاصِلِ

يُقْعِدُنِي عَنْهُ قِيَامُ السَّائِلِ وَيَقْتَدِينِي مِنْ رَجَاءِ الْبَاحِلِ

وَرَأَيْ قَلْبِي كَأَخْصَامٍ فَاصِلِ مَهْذَبٍ يَرْسُبُ فِي الْمَفَاصِلِ<sup>(٢)</sup>

وعن صواب رأيه يقول:

وَرَأَيْتُ كَمْرَةَ الصَّنَاعِ أَرَى بِهِ سَرَائِرَ غَيْبِ الدُّهْرِ حَيْثُ مَا سَعَى<sup>(٣)</sup>

ويفتخر بحلمه والذي قال عنه رسول الله (ﷺ): "الحلم سيد الأخلاق".

يقول ابن المعتز:

أَنَا مَنْ تَعْلَمُونَ أَسْهَرُ لِلْمَجْدِ دِذَا غَطَّ فِي الْفِرَاشِ اللَّتِيمُ

وَمَلِي بِصَمْتِهِ الْحِلْمُ إِنْ طَلَا رَتَّ سَرِيعًا مِثْلَ الْفِرَاشِ الْحُلُومِ<sup>(٤)</sup>

(١) الديوان، (١ / ١٩٣)، طبعة بغداد.

(٢) الديوان، (١ / ١٥٣)، طبعة بغداد.

(٣) الديوان، (١ / ١٣٩)، طبعة بغداد.

(٤) نفسه، (١ / ١٧٣).

ويفتخر بالحلم عن سفاهة الأعداء والسياسة. فيقول:

أَلَا رُبَّ دَسَاسٍ إِلَى الْكَيْدِ حَامِلٍ ضَابَّ حُقُودٍ قَدْ عَرَفْتُ وَدَارَيْتُ  
قَعَادَ صَدِيقًا بَعْدَمَا كَانَ شَانِنَا بَعِيدَ الرِّضَى عَنِّي فَصَافِي وَصَافِي<sup>(١)</sup>

وهذا مصداق لقوله تعالى: "خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ  
الْجَاهِلِينَ"<sup>(٢)</sup> وقوله تعالى: "وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ  
فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ"<sup>(٣)</sup>

أما عن البناء المعنوي ويشمل: الأخلاق والدين والسلوك، فنجد أن  
ابن المعتز يفتخر بتقواه وذلك بجانب علمه. والتقوى قال الله عنها في كتابه  
الكریم: "وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى"<sup>(٤)</sup>

يقول ابن المعتز:

فَإِنْ مِتُّ فَأَنْعِمْنِي إِلَى الْمَجْدِ وَالتَّقَى وَلَا تُسْكِنِي دُمْعًا إِذَا قَامَ نَائِحٌ  
وَقَوْلِي هَوَى عَرْشُ الْمَكَارِمِ وَالْعُلَى وَغَطَّلَ مِيزَانَ مِنَ الْعِلْمِ رَاجِحٌ<sup>(٥)</sup>

وفي مكان آخر يرد نفسه للتقوى ويفتخر ببذل المال:

رَدَدْتُ إِلَى التَّقَى نَفْسِي فَقَسَرْتُ كَمَا رَدُّ الْحَامِ إِلَى الْقِرَابِ  
وَمَالٍ قَدْ سَخَّوْتُ بِهِ وَجَاهٍ وَجِيهٍ لَا يَخَافُ أَذَى الْحِجَابِ

(١) نفسه، (١ / ١٧٣).

(٢) سورة الأعراف، (الآية : ١٩٩).

(٣) سورة فصلت، (الآية : ٣٤).

(٤) سورة البقرة، (الآية : ١٩٧).

(٥) الديوان، (١ / ٢٧٨)، طبعة دار المعارف.

وَكَيْفَ تُصَانُ عَنْ أَجْرِ وَحْمِدٍ      وَجُودَةٌ سَوْفَ تُبْذَلُ لِلشَّرَابِ<sup>(١)</sup>  
وينبغي أن نفرق بين بذل المال هنا وبذل المال والكرم في  
الجاهلية، فالكرم في الجاهلية مجال للمباهاة والشهرة أما الفخر ببذل المال  
في الإسلام كما صوره ابن المعتز ليس إلا حمدا لله وابتغاء الاجر والثواب  
منه.

ثم يفتخر بإيثاره بخير ما عنده وترك القليل لنفسه. مصدقا لقوله  
تعالى: "وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ"<sup>(٢)</sup>

يقول ابن المعتز:

وَمَالٌ قَدْ خَلَّتْ الْوَعْدَةُ عَنْهُ      إِذَا انْعَقَدَتْ بِهِ نَفْسُ الْبَخِيلِ  
وَأَوْثَرُ صَاحِبِي بَفَضْلٍ زَادِي      وَأَحْيَى النَّفْسَ بِالْبَلْلِ الْقَلِيلِ<sup>(٣)</sup>

وهذا العطاء لا يتبعه بالمن والأذى، يقول:

أَبَاعِدْ بَيْنَ مَنِيَّ وَالْعَطَاءِ      وَأَجْمَعْ بَيْنَ بَرْقِي وَالسَّجَامِ<sup>(٤)</sup>

ويفتخر بصبره على المصائب: وهو جمع بين العقل والشجاعة كما

يذهب قدامة:

وَدَهْرٌ مُؤَاتٍ قَدْ مَلَكَتْ نَعِيمُهُ      وَأَعْطَيْتُ مِنْ خَلَوَاءِ عَيْشِي وَأَعْطَيْتُ  
وَأَخَّرْتُ يُشْجِي صَبْرَتْ لِمَقْصِدِهِ      وَكَمْ مِنْ شَيْءٍ نَحْتُ التَّصَبُّرِ قَاسِيَتُ<sup>(٥)</sup>

(١) الديوان، (٥٨/١)، طبعة بغداد.

(٢) سورة الحشر، (الآية: ٩).

(٣) الديوان، (١٦١/١).

(٤) نفسه، (١٦٩/١).

(٥) نفسه، (٦٢/١).

ويقتخر باتقائه شر الشبهات عملا بقول الرسول (ﷺ): "اتقوا شر

الشبهات"، يقول:

وَأَتَيْتُ مَصْبَاحَ الْيَقِينِ فَإِنْ يَدَا لِي الشُّكُّ فِي شَيْءٍ يُرِيبُ تَنَاهَيْتُ<sup>(١)</sup>

ويقتخر بإغاثة المظلوم فيقول:

وَيَا رَبُّ يَوْمَ لَا تُؤَاوِى مُجْرِمُهُ مَدَدْتُ إِلَى الْمَظْلُومِ فِيهِ يَدَ الثَّصْرِ<sup>(٢)</sup>

وبالسرعة في نداء المكروب يقول:

وَذِي كَرْبٍ إِذْ دَعَانِي أَجَبْتُ فَلَبَّيْتُ مُسْرِعًا إِذْ دَعَا<sup>(٣)</sup>

ومن سلوكه عدم النفاق في جميع موافقة يقول:

وَيَتَخَفُ شَيْطَانُ الْإِنْفَاقِ مَوَاقِفِي وَإِذَا رَأَى حَاضِرًا لَمْ يَوَغَّ<sup>(٤)</sup>

ومن سلوكه كتمان السر، عملا بقول الرسول (ﷺ): "استعينوا على

قضاء حوائجكم بالكتمان"، يقول:

وَسِرْ طَوْتَهِ النَّفْسِ لِي وَلِصَاحِبٍ فَمَا أَظْهَرَتْهُ بَوَاحَةً مُنْذُ أُخْفِيتُ<sup>(٥)</sup>

ويقول:

وَرَبُّ سِرِّ كَنَارِ الصَّخْرِ كَامِنَةٌ أَمْتُ إِظْهَارَةٍ مَتَى فَاحْيَانِي<sup>(٦)</sup>

ومن سلوكه صلة الرحم حتى مع من يقطعونه. يقول:

( ١ ) الديوان، ( ٦٢ / ١ )، طبعة بغداد.

( ٢ ) نفسه، ( ٩٤ / ١ ) .

( ٣ ) نفسه، ( ١٤ / ١ ) .

( ٤ ) الديوان، ( ٨٣ / ٢ )، طبعة دار بغداد.

( ٥ ) الديوان، ( ٦٤ / ١ )، طبعة بغداد.

( ٦ ) نفسه، ( ١٨٣ / ١ ) .

وَمِنْ عَجَبِ الْأَيَّامِ بَغْيُ مَعَاشِرٍ      غَضَابٍ عَلَى سَبْقِي إِذَا أَنَا جَارَيْتُ  
يَصُدُّونَ عَنْ شُكْرِي وَتُهْجَرُ سُنَّتِي      عَلَى قُرْبِ عَهْدٍ مِثْلَ مَا يُهْجَرُ الْبَيْتُ  
لَهُمْ رَحِيمٌ ذِيَاهُمْ يَعْرِفُونَهَا      إِذَا أَفْكَوْهَا بِالْقَطِيعَةِ أَبْقَيْتُ  
فَذَلِكَ ذَابُ الْبِرِّ مَتَى وَذَاهِبُهُمْ      إِذَا قُتِلُوا لِعِمَائِي بِالْكَفْرِ أَحْيَيْتُ<sup>(١)</sup>

ثم ينتقل ابن المعتز إلى الفخر بآبائه وأجداده. يقول ابن رشيق:  
"وإنما طريقة المدح أن يجعل الممدوح يشرف بآبائه والآباء تزداد شرفاً به  
فجعل لكل واحد منهم حظاً في الفخر، وفي الممدوح نصيباً... وإذا  
حصلت الحقائق كان النصيبان مقسومين بل كان الكل خالصاً لكل فريق  
منهم، لأن شرف الوالد جزء من ميراثه ومنقول إلى ولده كانتقال ماله فإن  
رعي وحرس ثبت وازداد وإن أهمل وضع هلك وباد، وكذلك شرف الولد  
يعم القبيلة، وللوالد منه القسم الأوفر والحظ الأوفر"<sup>(٢)</sup>.

ولكن ابن المعتز عند فخره بنسبه لم يرد أن يفخر فخراً قبيلاً؛ لأن  
الإسلام قضى على العصبية فقال الله تعالى: "إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ"<sup>(٣)</sup>  
وقال الرسول الكريم (ﷺ): "لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى".

فابن المعتز عند فخره بنسبه يريد أن يفتخر بعراقته في الإسلام،  
ولذلك نجده عندما يفتخر بقبيلته بني هاشم لا يفتخر بها ولكن بالبيت  
المخصوص الذي نزل فيه الرسالة يقول:

(١) نفسه، (١ / ٦١).

(٢) الممدوح، (ص: ٣٥٧).

(٣) سورة الحجرات، (الآية: ١٣).



هاشمي إذا نسبت ومنعصو من بيت من هاشم غير عار<sup>(١)</sup>  
ثم يفخر بأن الإسلام تصدر للدنيا كلها من عندهم؛ ولم لا أيسوا  
أهل الرسول (ﷺ)؟ يقول:

أَيُّهَا السَّائِلِي عَنِ الْحَسَبِ الْأَطْ	يَبِ مَا قُوَّةُ لِخَلْقِي مَزِيدُ
لَحْنُ آلِ الرَّسُولِ وَالْعِزَّةُ الْحِ	قُ وَأَهْلُ الْقُرْبَى فَمَاذَا تُرِيدُ
وَأَنَا مَا أَضَاءَ صُبْحَ عَلَيْهِ	وَأَهْلُهُ آيَاتُ لَيْلِي مُودُ
وَمَلَكَ رِقِّي الْإِمَامَةِ مَسِيرَا	ثُمَّ لَمَنْ ذَا عَثَا بِفَخْرِي يَحِيدُ
وَأَبُونَا حَامِي النَّبِيِّ وَقَدْ أَدَّ	بَرَّ مَنْ تَعْلَمُونَ وَهُوَ يَسْدُودُ
وَسَعَى لِلثَّيِّ فِي بَيْعَةٍ تَمُّ	بِهَا الدِّينُ وَالْعِيُونَ رُقُودُ <sup>(٢)</sup>

وهو هنا إلى جانب فخره بأن الرسول منهم يفخر بأحقيتهم بالخلافة؛ لأنهم قدموا للإسلام الكثير منذ وقوف جده العباس بن عبد المطلب بجانب الرسول بحضوره بيعة العقبة، وإخفائه إسلامه مع بقاءه في مكة ينقل الأخبار إلى الرسول، ووقوفه بجانب الرسول في غزوة حنين وهذا معنى مخصوص في الفخر لبني العباس.

ومن فخره أيضا فخره بالبيت الحرام حيث كان عبد المطلب بن هاشم مسئولاً عنه قبل الإسلام، ويشير إلى موقعة الفيل وكيف أن الله نصرهم بالطير الأبابيل، حيث قال الله تعالى: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ

(١) الديوان، (١ / ١٠٣)، طبعة بغداد.

(٢) نفسه، (١ / ٨١).

بأصحاب الفيل (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا  
 أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) \* (١)  
 كما يفتخر أيضا بالرسول الكريم حيث أسري به من المسجد  
 الحرام إلى المسجد الأقصى ممطليا البراق ثم عرج به إلى السموات العلى.  
 يقول:

حسي مكاني من أسرة كرمت	من فخرها أحمد وجبريل
وزمزم ركضة الملائك والـ	طير ذوات الخصى الأبايل
وكلما أجذب السورى فينا	صرار خلف السماء محلول
وبين أبنائنا بمكة بيت	الله لم يكن مثله جيل
محجب تغفر الجياه له	في كل عام بالبحر موصول
ومن مطاياتنا البراق إذا	هملج تحت الاكاسر فيل (٢)

ومن هنا كان فخر ابن المعتز بنسبه مرتبط بقربه من الرسول  
 (ﷺ)، أي هو فخر إسلامي أيضا.



(١) سورة الفيل، (الآيات: ١ - ٥).  
 (٢) الديوان، (١ / ٢٨٥)، طبعة دار المعارف.

## المديح

يعد المديح أبرز غرض فني في الشعر العربي، ويعني المديح بصفات الممدوح المادية والمعنوية (الخلقية) التي تجعله مثلاً عالياً وصورة يقتدى بها... وهي صفات تبعث في نفس الممدوح الشعور بالرضا والارتياح لخصاله التي يتمتع بها وما ينبغي أن يكون عليه. "وتقوم معاني المديح على المثل الخلقية التي يعتد بها العربي منذ جاهليته من مروءة وسماحة، وحزم، وعفة، وعزة نفس، وإباء، وشجاعة، وكرم."<sup>(١)</sup>

وفي الإسلام صار المديح الإسلامي يدور حول قيمة هداية الرسالة وصلتها بالله والإيمان بقيادة الرسول، والعدل في السيرة والالتزام بالحق والمساواة بين الناس والصدق في الدعوة، وتبليغ الرسالة وتطبيق أحكام القرآن."<sup>(٢)</sup>

وفي العصر العباسي "برز الإلحاح على المعاني الإسلامية بخاصة في مدح الخلفاء والوزراء على نحو لم يعهد من قبل، حيث كان المفروض وفقاً لنظرية العباسيين في الحكم أن الخليفة الذي يرعى شؤون الحياة هو

(١) التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول: د. مجاهد مصطفى بهجت، (ص: ٢٢٩).

(٢) دراسات في الأدب الإسلامي: د. سامي مكي العالقي، (ص: ٧٤).

في الوقت نفسه إمام للمسلمين وحامي حمى الإسلام<sup>(١)</sup>، كما صارت للمعاني الإسلامية مكانة كبيرة، وقيمة يمتدح بها عليّة القوم<sup>(٢)</sup>. وتبلغ المدائح عمقها وسعتها الحقيقية في الاتصال بالقيم الإسلامية والمظاهر الدينية عندما يمتدح هارون الرشيد، إذ كان حريصاً على مثل هذه المثل في سلوكه وخلقه، يتحراها فيما يمتدح به، فيذكر "أن الشعراء اجتمعوا ببابه، فقال الرشيد للخاجب: أخرج إليهم، فقل لهم: من اقتدر أن يمدحنا بالدين والدنيا في ألفاظ قليلة فليدخل"<sup>(٣)</sup>.

"ولهذا كان للإسلام أثره الواضح في شعر المديح في العصر العباسي إذ ألهم الشعراء أن يضيفوا في مديح الخلفاء والوزراء مثالية رفيعة في الحكم، فتغنى لهم بتقوى الله والتمسك بالشرعية وبالعدالة التي لا تصلح حياة الأمة بدونها هذا إلى جانب المثالية في الشيم والطباع<sup>(٤)</sup>.

وبهذه المعاني الإسلامية وجدنا ابن المعتز العباسي يقدم المدائح للممدوحيه كل يأخذ منها حسب منزلته، ولذلك تدرج المديح من مديح للخلفاء ومديح لآل البيت ومديح للوزراء والقادة ومديح للعلماء وغير ذلك، وإن كانت بينهم خلاقات يسيرة هي مناسبة للممدوح لكنها تدور حول المعاني الإسلامية.

(١) في الشعر العباسي، الروية والفن: د. عز الدين إسماعيل، (ص: ٣٥٩).

(٢) التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول، (ص: ٢٣٠).

(٣) طبقات الشعراء: لابن المعتز، تحقيق عبد الفتاح فراج، (ص: ١٥٠).

(٤) التيار الإسلامي، (ص: ٢٣٢).

### (مدح الخلفاء)

نجد ابن المعتز عندما يريد أن يمدح الخليفة فيقول عنه: "بأنه يصلح الفاسد ويمنع الفاحشة، ويأمر بالعدل والإحسان بالسيدين... ويجمع الأمة على حبه والإخلاص له ويقوم بسداد أمورهم، فيدفع عن ثغورهم الأعداء، ويبسط الأمن في البلاد."<sup>(١)</sup>

فنجد ابن المعتز يمدح الخليفة المعتضد بأنه أصلح ما فسد وأنه أعاد الهدى لحكمه بين الناس بالعدل يقول:

لَقَدْ شُدَّ مُلْكُ نَسِي هَاشِمٍ وَأَبْدَلَهُ بِالْفَسَادِ الصَّلَاحَ  
إِمَامٌ أَعَادَ الْفُتَى غَدْلُهُ وَلَا قِيَّ بِهِ الْمُرْتَجُونَ كِبَاحًا<sup>(٢)</sup>

ويمدحه بأنه يحكم بالعدل وأعاد المهابة للملك فيقول:

يَا إِمَامَ الْهُدَى وَيَا أَحْكَمَ النَّاسِ يَبْدُلُ فِي الْقَفْرِ أَوْ فِي الْعِقَابِ  
يَا مُعِيدًا لِلْمُلْكِ يَا مُلْجَأًا لِلْأَسَدِ حَتَّى تَصْبَحَ بِالْأَذْنَابِ<sup>(٣)</sup>

كما يمدحه بأنه يتخذ التقوي منها في حياته يقول:

رَفَعَتْ يَدِي أَسْتَوْهِبُ اللَّهَ صِحَّةً لِيُخَيِّرَ إِمَامًا سَالِكًا فِي الثَّقَى نَهْجًا<sup>(٤)</sup>

كما يمدحه بالاستقامة والهداية والعدل:

صراط هدي يقضي على الجور عدله ونور عكبي الدنيا من الحق ساطع<sup>(٥)</sup>

(١) نفسه، (٢٣٣).

(٢) للديوان، (١ / ٤٢٢-٤٢٣)، مطبعة بغداد.

(٣) نفسه، (١ / ٤١٦).

(٤) نفسه، (١ / ٤١٦).

(٥) نفسه، (ص: ٧٤٢).

ويمدحه بالشكر على النعم، والصبر عن المصائب، فيقول، وهو يعزیه فی وفاة زوجته:

أَلَيْتِ عَلَّمْتَنَا عَلَى النَّعْمِ الشُّكْرَ      سَرَّ وَعِنْدَ الْمَصَائِبِ التَّسْلِيمَ<sup>(١)</sup>

ويمدحه بالسماحة والكرم والعفو في غير حدود الله وحسن الرأي والشجاعة وتقدم الجيش في الحروب. وإعداد العدة للحرب وقتت المسلم. عاملاً بقوله تعالى: "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ"<sup>(٢)</sup>، فكان من نتيجة ذلك فرح أعداءه بالسلم معه وإعطائهم ما عليهم من مال يقول:

جَمَعَ الْحَقُّ لَنَا فِي إِمَامٍ	قَتَلَ الْبَحْلَ وَأَحْيَا السُّمَاحَا
إِنْ عَفَا لَمْ يُلْغِ اللَّهُ حَقًّا	أَوْ سَطَا لَمْ تُخَشِ مِنْهُ جُنَاحَا
أَلَفَ الْمُهَاجِرَاءَ طِفْلاً وَكَهْلاً	تَحَسَّبَ السَّيْفَ عَلَيْهِ وَشَاحَا
وَلَهُ مِنْ رَأْيِهِ عَزَمَاتٌ	وَصَلَّ اللَّهُ ضِمْنَهُنَّ كَجَاحَا
يَجْعَلُ الْجَيْشَ إِذَا صَارَ ذَيْلاً	جُرْأَةً فِيهِ وَتَبَاساً صُرَاحَا
فَرَحَ الْأَعْدَاءُ بِالسَّلَامِ مِنْهُ	وَهُوَ فِي السَّلَامِ يُعِدُّ السِّلَاحَا
فَرَّقَتْ أَيْدِيَهُمُ الْمَالَ كَرْهًا	وَلَقَدْ كَانُوا عَلَيْهِ شِاحَا <sup>(٣)</sup>

كما يمدحه بقيادة الجيش في الفتوح لا يبالى القلاع والحصون

يقول:

سَحَبَ الْجُيُوشَ فَكَمَ بِهَا فَتَحَتْ      بَعْدَ التَّمُتُّعِ بِلَدَةً بِكْرُ

(١) نفسه، (ص: ٥٠٠).

(٢) سورة الأنفال، (الآية: ٦٠).

(٣) الديوان، (١ / ٤١٩).

مَا رَدَّ عَنْ مُتَحَصِّنٍ يَدَهُ إِلَّا وَقْلَعَتْهُ لَهُ قَيْرُ  
مُتَنَائِدَةٍ فِي الْحَرْبِ هَيْئَةً قَدَامَهُ وَالْقَتْلُ وَالْأَسْرُ<sup>(١)</sup>

ويمدحه بإحقاق الحق والسير على شئون الرعية:

وبالحق يستعش قوما به وبالحق يهلك قوما به  
ويسهر والناس في غفلة لأمر يفكر في غيه<sup>(٢)</sup>

وبهذا ينال الخليفة حب الرعية. فيقول في مدح الخليفة المكتفي

الذي ولي الخلافة بعد أبيه، المعتضد. يقول:

بِالْمُكْتَفِيِّ كُفِّي الْأَنَامُ هُمُومُهُمْ وَغَدَا عَلَيْهِمْ طَالَعُ مَسْعُودٍ  
جَاءَوكَ يَحْشُرُهُمْ إِلَيْكَ عَجَبَةً طَوْعًا وَسَيْفَكَ عَنْهُمْ مَغْمُودٍ  
وَلَطَالَمَا ظَمِئَتْ إِلَيْكَ نَفُوسُهُمْ وَطَرِيقُ بَابِكَ عَنْهُمْ مَسْدُودُ<sup>(٣)</sup>

"ولم تكن همّة الخلفاء منصرفة إلى الدين دون الدنيا لأن التصور الإسلامي للحياة قائم على أنها خلافة وعصاة ولنا فيها حظ".<sup>(٤)</sup> قال تعالى: "وَاتَّبِعْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا"؛<sup>(٥)</sup> ولذلك جاء منيخ الخلفاء بحرصهم على صلاح الدنيا قدر حرصهم على صلاح الدين. يقول ابن المعتز:

(١) نفسه، (١ / ٤٤٨).

(٢) نفسه، (١ / ٣٩٧).

(٣) الديوان، (١ / ٤٢٩).

(٤) التيار الإسلامي، (ص: ٢٤٣).

(٥) سورة القصص، (الآية: ٧٧).

واعترض الدين والدنيا بمعضد بالله في الله ما أعطى وما صنعاً<sup>(١)</sup>  
 كما يمدح ابن المعتز الخليفة المعتمد بما تم في عصره من بناء  
 وعمران وتشبيد قصور. يقول:  
 والتل والبستان قد بسطت      حضارته وأثار جوسقه  
 لما أتاه به مشره      ما كاد من فرح يصدقه  
 والأحمدي إليه متسب      من قبل والمعشوق يعشقه<sup>(٢)</sup>

\*\*\*\*\*

### (مدح آل البيت)

وخرج ابن المعتز على غير عادة العباسيين يمدح آل البيت  
 وخاصة الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. يروي عنه أبو بكر  
 الصولي راوي ديوانه يقول: "إنه كان يذكر عليه أصحاب رسول الله (ﷺ)  
 لا يذكر له أحداً إلا عدد فضائله وناضل عنه ونصره، إلا أنه كان يقدم بني  
 هاشم ويفضلهم... ثم حدث في آخر أيامه شعر فيه مفاخرة لأهله وبني  
 عمه الطالبين، وكان يرى أنهم يناقضونه الشعر فكان قوله يمضي على  
 ذلك، وتمر له أبيات يتأول فيها شيئاً فيتأول أعداؤه غير ذلك، ويحتمل  
 الشعر المعنيين. حتى اجتمع إليه جماعة من الطالبين منهم أبو الحسين  
 محمد بن الحسن المعروف بابن البصري وكان يجالسه على قديم الأيام.

(١) الديوان، (٤٧٤/١)، طبعة بغداد.

(٢) الديوان، (٤٨٣/١)، طبعة بغداد. (التل والبستان والجوسق والأحمدي والمعشوق)  
 أسماء لقصور في سر من رأى.



ومنهم القاسم بن إسماعيل فحلفوا له أنه ما يقول هذه الأشعار أحد منهم، فتقدم على ما كان من قوله... ثم عمل أشعاراً يعتذر فيها ويمدح أمير المؤمنين علياً وولده، وأعطى الله عهداً ليقولن باقي عمره في هذا الفن".<sup>(١)</sup> فنراه يمدح علياً بن أبي طالب بما أثر عنه من محاسن جمّة وخصال حميدة، من سبق في الإسلام، وتأيد ونصر للرسول (ﷺ)، وشجاعة وبلاء حسن في قتال الكافرين واليهود في بدر وأحد والأحزاب وخيبر وبني قريظة. كما يشير إلى فيض علمه وتمكنه في القضاء وزواجه من خيرة النساء العالمين، ثم يشير إلى الحسين بن علي وما صنع به يقول:

مُجَلِّي الكُرُوبِ وَكَيْثُ الحُرُوبِ	في الرّجح الساطع الأشهب
وَبَحْرُ العُلُومِ وَغَيْظُ الحُصُومِ	مَنْ يَصْطَرَعُ وَكَمْ يَغْلِبُ
يُقَلِّبُ فِي فَمِهِ مَقُولاً	كَشْفُ شَقَةِ الحَمَلِ المَصْعَبِ
وَأَوَّلُ مَنْ ظَلَّ فِي مَوْقِفِ	يُصَلِّي مَعَ الطَّاهِرِ الطَّيِّبِ
وَكُفُّوا لِيخِرَ نِسَاءَ العِبَادِ	مَا بَيْنَ شَرْقٍ إِلَى مَغْرِبِ
وَأَقْضَى القَضَاةَ بِفَصْلِ الحِطَابِ	وَالْمُنْطِقِ الأَعْدَلِ الأصُوبِ
وَفِي لَيْلَةِ العَارِ وَقَى التَّيْسِ	عِشَاءً إِلَى القَلْبِ الأشْهَبِ
وَبَاتَ ضَجِيعاً بِهِ فِي الفِرَاشِ	مُوطِنَ نَفْسٍ عَلَى الأصْعَبِ
وَعَمَرُوْا بَنَ عَبْدٍ وَأَحْزَانَهُ	سَقَاهُمْ حَسَا المَوْتِ فِي يَثْرِبِ
وَنَسَلَ عَنْهُ خَيْرَ ذَاتِ الحُصُونِ	لِنَحْتَرِكَ عَنْهُ وَعَنِ مَرْحَبِ
وَبِطْطَاهُ جَلُّهُمَا أَحَدٌ	فَلَمَّا لَجَّ لِحْدُهُمَا وَالْأَبِ
وَلَا عَجَبٌ غَيْرَ قَتَلَ الحَبِيبِ	ظَمَانَ يَقْصِي عَنْ المَشْرَبِ
لَيْسَ كَانَ رَوْعَنَا لَفَقْدُهُ	وَلَا جَانَا مِنْ حَيْثُ لَمْ يُحْصَبِ

(١) أشعار أولاد الخلفاء: أبي بكر الصولي، (ص: ١٠٧-١٠٨).

فَكَمْ قَدْ بَكَيْنا عَلَيْهِ ذَمًّا بِسْمِ مُنْفَقَةِ الْأَكْمَبِ<sup>(١)</sup>

\*\*\*\*\*

### (مديح القادة الوزراء)

راج فن المديح في هذا العصر واتسع، فخرج من الخلفاء إلى قادة الحروب والمعارك... فكان مديح الأبطال لونا جديدا من المديح إذ غابرت معانيه معاني مدائح الخلفاء... فالشعراء يمدحون فيهم البطولة والمروءة ومواقف القتال والحرب.

"ويكثر هذا المديح لمن اتصلوا بالحرب اتصالا مباشرا بقيادة الجيوش أو اتصالا غير مباشر بأن يكونوا من أبناء القواد أو من الخلفاء والولاة الذين تسيّر الجيوش باسمهم إلى ميادين القتال".<sup>(٢)</sup> فنجد ابن المعتز يمدح الموفق عمه وقائد الجيش على عهد الخليفة المعتمد وأبا الخليفة المعتمد، يمدحه بنصرة الدين والإسلام وهازم الزنج ومعيد مجد الخلافة الدارس.

فيمدحه بنصرة الإسلام بعد أن تخلى عنه أهله. يقول:

يا ناصِرَ الإسلامِ إِذْ خَذَلْتَ	ذَعْوَانِي فَأَبْغَلْ وَانْقَشَا
لَمَّا اسْتَعَاثَ وَقَلَّ ناصِرُهُ	كَيْفَهُ وَسَعَيْتُ مُنْكَمِشَا
كَالَّذِي لا يُبْقِي مُعَالِيَهُ	يَدًا لِجَارِحَةٍ إِذَا بَطَّشَا <sup>(٣)</sup>

(١) الديوان، (١/٤١٠ - ٤١١ - ٤١٢)، طبعة بغداد.

(٢) ظاهرة التنكسب وأثرها في الشعر العربي ونقده: د. درويش الجندي، (ص: ١٤٤).

(٣) الديوان، (١/٤٦٢)، طبعة بغداد.

ويقول فيه أيضا: مادحه بنصرة الدين وقيادة الجيش وسياسة أمور

الملك:

يا ناصر الدين إذ هُذَّت قواعِدُه      وأصْدَقَ الناسَ في بُؤْسٍ وإلغام  
وقائد الخيل مذ شُدَّت مآزِرُه      مذلَّلَاتٍ بِأَسْرَاجٍ وإلغام  
وسائسَ الملك يَرْعَاهُ وَيَكْلِسُوهُ      إذا خَلَا القَمَضُ في أجفانِ نِوَامٍ<sup>(١)</sup>

وربما يشير في الشطر الثاني من البيت الأخير إلى الخليفة المعتمد الذي كان خليفة بالاسم فقط أما تدبير أمور الخلافة وقيادة الجيش كانت في يد الموفق لذلك جاءت مدائحه مشابهة لمدح الخلفاء.

وربما يتضح الفرق بين مدحيه في الموفق وبين مدحيه في بقية القواد عندما يمدح بدر المعتضدي. وهو كان أحد أمراء الجيش العباسي في عهد الخليفة المعتضد وكان جوادا شجاعا محبا للعلماء<sup>(٢)</sup>، فيمدحه بصندوق نصيحته للخليفة وحسن المنادمة في غير أيام الحرب، وفي الحرب ليست غاب وكأنه خلق كما يريد الخليفة، يقول:

ما رأينا لِلْمُلْكِ أَنْصَحُ مِنْهُ      أينَ ذا مِنْ أَوْلَيْكَ الْأَصْحَابِ  
تَابِعَ ما لِحِبِّ في كُلِّ شَيْءٍ      وَلَمَّا لا لِحِبِّ ذُو اجْتِنَابِ  
مُؤَنِّسَ يَوْمٍ لَسَدَةٍ وَكَسَدِمٍ      وَهُوَ في حَوْمَةِ الْوَعْيِ لَيْثٌ غَابِ  
هُوَ خُلِقَ كما أَرَدْتَ وَحَظَّ      مِنْ عَطَايا الْمُهَيَّمِينَ الْوَقَابِ<sup>(٣)</sup>

(١) نفسه، (٥٠٢/١-٥٠٣).

(٢) تاريخ بغداد، (١٠٥/٧).

(٣) الديوان، (٤٠٢/١)، طبعة بغداد.

أما معظم مدائحه في الوزراء كانت من نصيب بني وهب، ولا عجب فقد وزر ثلاثة منهم لبني العباس في فترات متعاقبة وكان اتصال الشاعر قويا بعبيد الله بن سليمان وابنه القاسم، وفي آل وهب يقول:  
 لآل سليمان بن وهب صنائع إليّ ومعروف لـديّ تقسّما  
 هموا علموا الأيام كيف تـسـريّ وهـم غـسـلوا عـن تـوبـّ والـديّ الدّما<sup>(١)</sup>

" وإن دل موقف الشاعر من بني وهب، ومدائحه فيهم على شيء، فعلى أن البلاط العباسي كان مليئا بالفتن والفساد، وأن حياة البارزين من أفراد الأسرة الحاكمة وحريتهم كانت دائما في خطر، وإن أقل وشاية كانت كافية للإطاحة برؤوسهم، أو لإقائهم في غياهب السجون والمعتقلات، مما اضطر صاحبنا - رغم أنه أمير وابن الخليفة - إلى أن يتطامن أمام بني وهب إبقاء على حريته وحرصا على حياته".<sup>(٢)</sup>

فيقول يمدح القاسم بن عبید الله، بالوزارة بعد جده وأبيه ويمدحه بحسن الرأي وحسن تدبير الأمور، وأسلوبه وبيانه أن الوزارة كانت حريصه عليها، لأنها تجد فيه خير من يليها:

يا ثالث الوزراء كم من خلقه	للكرّ والاحزان قد فرجتها
وخفية بالفكر قد ناجتها	وعواقب بالرأي قد أبصرتها
وعزيمة أمضيتها، وكرهية	صابرها، ومكيدة قد كدتها
ولزب معنى حكمة أفرغت	في قالب من لفظة أوجرتها
مثل القروس تزفها لك نفسها	جاءتك مسرعة وما أمهرتها <sup>(٣)</sup>

(١) الديوان، (١/٥١٠)، طبعة دار المعارف.

(٢) عبد الله بن المعتز العباسي: محمد عبد العزيز الكفراوي، (ص: ٧١).

(٣) الديوان، (١/٤١٥ - ٤١٦)، طبعة بغداد.

كما نجاه يمدح عبید الله بن سليمان بأن الله عمر الوزارة به وأنها  
قد قرب قرارها بعد أن وليها وكانت قبله غير مستقرة. يقول:

لَقَدْ عَمَرَ اللَّهُ الْوِزَارَةَ بِاسْمِهِ      وَزَدَ إِلَيْهَا أَهْلَهَا بِعَدِّ إِفْسَارِ  
وَكَاثَتْ زَمَانًا لَا يَقْرَأُ قَرَارُهَا      فَلَا تَلَتْ نَصَابًا نَابِتًا غَيْرَ غَوَارِ<sup>(١)</sup>

\*\*\*\*\*

### (مدح العلماء والصالحين)

"ومن المدح الإسلامي ما جاء حافلا بالإشادة بالعلماء والصالحين،  
إذ كانوا وجوه الأمة وأطوادها... وكان من جلالهم وهيبتهم أن اتجه إليهم  
الشعراء ليشهدوا لهم، ويكرموا مقامهم ومنزلتهم... ومظهر الصدق في هذا  
المدح أوضح مما مضى، لصدق بواعثه وعدم إثباته بمصلحه خاصة مما  
يؤمله الشاعر تجاه الآخرين".<sup>(٢)</sup>

ومن الطبيعي أن يمدح التلميذ أستاذه بما يجد فيه من خلق وعلم  
كبيرين. ولهذا "كان عبد الله بن المعتز يحب لقاء أبي العباس أحمد بن  
يحيى ثعلب ويعلمه ذلك، وكان أبو العباس أحمد بن يحيى يعتذر إليه في  
تخلفه عنه بأنه ضعف عن أن يمضي إلى أحد.  
فكتب إليه عبد الله يعرفه شوقه إليه، ويصف مقداره في العلم،  
ويعتذر من ترك إتيانه؛ لأن الركوب ليس بسائق له:

(١) أشعار أولاد الخلفاء، (ص: ١٢٦).

(٢) التيار الإسلامي، (ص: ٢٦٦).

ما وَجَدُ صادٍ في الحبال مُوتقٍ      بماء مُزَنٍ بارِدٍ مُصَفَّقٍ  
بالريحِ لَمْ يُطَرْقَ وَلَمْ يُرْتَقِ      جاذِبَةٍ بِهِ أَخْلَافُ ذَجْنٍ مُطْبِقِ  
بِصَخْرَةٍ إِنْ قَرَّ شَمْسًا تُسْرِقِ      فَهَوَ عَظْمُهَا كَالزُّجَاجِ الْأَزْرَقِ  
صَرِيحٍ غَيْثٍ خَالِصٍ لَمْ يُمَدَّقِ      إِلَّا كَوَجْدِي بِكَ لَكِنْ أَتَقْسِي  
يَا فَاتِحَا لِكُلِّ عِلْمٍ مُغْلَقِ      وَصَمِيرًا نَالِدًا لِلْمَنْطَقِ  
إِنْ قَالَ هَذَا يَهْرَجُ كَمْ يَنْفَقِ      إِلَّا عَلَى الْبُعَادِ وَالْتَفَرَّقِ

تلتقي بالدكر وإن لم تلتق<sup>(١)</sup>

### (مدح المدين)

لقد ظهر هذا الاتجاه عند شعراء القرن الثاني الهجري وجرى شعراء القرن الثالث مجراهم، ولهذا نجد أن ابن المعتز يكثر من مدح (سر من رأى). فيقول من ذلك:

أَلَمِيعِي يَا سُرَّ مَنْ رَأَى صَبَاحًا      وَإِذَا غَاذَاكَ غَيْثٌ قَرَّاحًا  
دَيْمًا فِي كُلِّ يَوْمٍ وَوَبَاحًا      وَأَغْيَاثًا بِالْقَدَى وَاصْطَبَاحًا  
كُلُّ مَنْ يَتَأَى مِنَ النَّاسِ عَنْهَا      فَهَوَ يَرْتَاخُ إِلَيْهَا إِرْتَبَاحًا  
لَا أَرَى مِثْلَكَ مَا عَشْتُ دَارًا      رِبْوَةً مُخَضَّرَةً أَوْ بِطَاحًا  
كُو خَلَلْنَا وَسَطَ جَنَّةِ عَدْنٍ      لَا تَقْرَحَاكَ عَلَيْهَا اقْتِرَاحًا  
تَفْقَا عَنْ رِيَّاحِينَ رَوْضٍ      يَسْحَبُ اللَّيْلُ عَلَيْهَا الرِّيحَا  
وَإِذَا مَا ذُرَّتِ الشَّمْسُ فِيهَا      فَتَحَّتْ أَعْيُنَ رَوْضٍ مِلَاحًا  
فِي تَرَى كَالْمِلْبَكِ شَيْبَ إِسْرَاحٍ      كُلَّمَا أَنْبَتَهُ الْقَطَرُ لَاحًا<sup>(٢)</sup>

(١) لشعراء أولاد الخلفاء، (ص: ١١٤-١١٥).

(٢) للديوان، (١ / ٤٤٢)، طبعة دار المعارف.

## الرشاء

لعل أصدق الفنون شعورا، وأحقها عاطفة فن الرشاء الصادر من قلب ملتاح ونفس فقدت أثيرا وخليلا - فتفيض منه المشاعر ألما وحزنا ودموعا وبكاء. ويتضمن الرشاء:

- ١- معنى الندب بالنواح على الميت والبكاء عليه بالألفاظ المحزنة.
  - ٢- معنى التأبين بالثناء على الميت وذكر محامده ومناقبه.
  - ٣- معنى التعزية والمواساة لأولياء الميت بالصبر والرضا بقضاء الله<sup>(١)</sup> إقتداء بقوله تعالى: "وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِلَيْهِ رَاجِعُونَ" (٢).
- ولقد رثى ابن المعتز العباسي العديد من الشخصيات التي تأثر بها في عصره وكان رثاؤه لهم صادقا في أحاسيسه. تتم كلماته عن تفجع وحسرة لفراقهم، مما يدل على تأثره البالغ بمن رثاهم وصنقه في رثائه.
- فنجد ابن المعتز يندب ويبكي عبيد الله بن سليمان بكاء حارا، فكم قدم له هذا الرجل من معروف وحماة من غوائل الأيام ولذلك نجد ابن المعتز متأثرا جدا لفراقه حتى إنه لم يصبر على رحيله. يقول:
- حب الإله جواره فأحله      في جنة نفست على الدنيا به  
ومضى كما يمضي الربيع بمنزله      غراء آخر غيشه وسحابه

(١) التبار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول، (ص: ٢٨١).

(٢) البقرة، (الآيتان: ١٥٥ - ١٥٦).

يس النبات الغض بعد لراقه      من ظل ضحوته وبرد شرابه  
قالوا تصير قد ألبت بفقدته      يا ليتني حي مكان نوابه<sup>(١)</sup>

وفي أبيات أخرى يصور لنا ابن المعتز تفجعه عليه وأنه بقي حيًا  
بعده رغمًا عنه فهو كان يتمنى أن يعزى هو إليهم لا يعزون إليه يقول في  
أبيات مملوءة بالحرارة والصدق:

يا ابن وهب بالكثرة متي بقيت      عجي يوم مت كيف خيبت  
أيها الدهر ليس يحسن أن تـ      حسن ما للكرام منك بخوت  
أين أهلي وأين أحباب نفسي      ليهم بي عزوا وما عزيت  
كل يوم كأنهم وكأني      ورق هز غصنه محتوت  
حسرة ما احتسبها في عبيـ      سد الله قلبي بحرها متكوت  
إنما طيب الناء الذي خلفت      لا منك نخك المقصوت  
واختصرت الطريق بعدك للمو      ت فلاقته ولست أفرقت  
يا فما فجعة تغطت بآما      لي حتى يومها فوجيت  
ذكروه بكان يرجه الله      في لفظة بما قد شجيت  
إن تكن فتني فالبكرة مني      وما يعلو الظنين ابتليت<sup>(٢)</sup>

ومن المعاني الإسلامية الواضحة ندب الشعراء أنفسهم وكأنهم  
ينعونها بقرب الرحيل والأجل " وهذا من بديع الرثاء، وتأثيره في النفس  
ووقعه عليها لا يخفى؛ ذلك أن الشاعر يذكر نفسه بالموت، ويهيئها له،  
ويعد العدة لاستقباله، وهذا يهيج عواطف من حوله عليه<sup>(٣)</sup> ويأتي الشعر

(١) الديوان، (٣٢٤/٢)، طبعة دار المعارف.

(٢) الديوان، (٣٢٨-٣٢٧/٢)، طبعة دار المعارف.

(٣) التزام في الشعر: ناصر عبد الحمن الخليل، (ص: ٢٦٥).



هنا حاملا معاني التوبة والإنابة، والتطوع وطلب العفو والرحمة من الله تعالى على ما فرضوا في جنبه.

وهنا نجد ابن المعتز يندب نفسه مبينا سلطة الموت القوية فهو يستطيع أن يأخذه في أية لحظة، كما أنه ينقص من قوته كل يوم حتى يسائر به في النهاية. يقول:

من ترى من عايش خالد	كم ترى من هالك مات فاني
لو أعت العين إذ أبصرت	واعظاني بفؤادي كفاني
كيف والدنيا لها ممسك	بعاني إن عدلت عصاني
أي شيء أنقسي والردى	بين جنبي بعيني يراني
يعنر الموت بأسقامه	وهو من دون القام دهاني
كل يوم ناقص قوة	من بقائي جاذب عساني
قد قسا العيش على أهله	وبدت أخلاق هذا الزمان
ورأيت الموت مستائرا	بالذي تكره نفسي عساني
والأقيه بلا جنة	فإن شاء حبي زماني <sup>(١)</sup>

ويتجاوز اللندب الأحبة والأقرباء إلى المدن حين تشتد بها المحن وتحيق بها المخاطر \* فرثاء المدن في العصر العباسي كان يمثل موقفا جديدا لشاعر العصر، فرضته عليه ظروف الحياة في المدينة وارتباطه الوجداني بها، إلى جانب الأحداث والظروف السياسية الداخلية التي عرفها ذلك العصر وإن لم يكن تراثه الشعري لتقديم تقاليد فنية راسخة لمثل هذا الرثاء، كان عليه أن يعول على نفسه في ابتكار الأطر المعنوية والفنية

(١) الديوان، (٢ / ٣٦٩ - ٣٧٠)، طبعة بغداد.

التي يصوغها فيها<sup>(١)</sup>، ونجد ابن المعتز يندب (سر من رأى) بعد أن صارت أطلالا دوائر، ومزقتها أكف البلى. يقول من قصيدة طويلة:

أشجنتك بغد الحى من	زلة وأطلال دوائر
وكأنما سجت علي	ها الريح أطراف المآزر
حق عفت آياها	فكانها ترقيش ساطر
وسحابة مملوءة	حلا رواياها مواقر
تدع السماء كأنها	وشل تكدره الأعاصر
لم يسق منها غير آيا	ت لذكراها غوابر
والنوى كالضلع الكب	رة لم تقومها الجبار
ومليب بالجبل أش	بعث غير مدهون الغدائر
شبح الولا تد رأسه	بالقهر وهو لمن صابر
فكان حر الشوق لم	يقبل بكانها انجاور <sup>(٢)</sup>

"وحيث يتجه الشاعر في شعره إلى تأبين الميت بذكر مناقبه ومحامده يعرض لخصاله التي عرف بها في حياته من شجاعة وكرم ووفاء، وسماحة وسيادة وشرف مما كان يمتدح به في حياته، ويسبغ عليه الأخلاق الإسلامية مما اختص واقترب بالإسلام من مثل وقيم دينية. فيؤينه بالعدل والتقوى والزهد في الحياة، وإخلاص الوجه لله والجهاد والعمل الصالح"<sup>(٣)</sup>. ومن ثم فإننا نتوقع أن يكون مدار الرثاء على المعاني التي

(١) في الشعر العباسي، الروية والنن: د. عز الدين إسماعيل، (ص: ٣٧٨).

(٢) الديوان، (٣٤١/٢)، طبعة دار المعارف.

(٣) التيارات الإسلامية، (ص: ٢٨٦).

تبرز في الوقت نفسه في قصيدة المدح\*<sup>(١)</sup> فليس بين الرثاء أو المدح فرق إلا أن يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به ميت مثل كان أو عدنا به كيت وكيت أو ما يشاكل هذا ليعلم أنه ميت.<sup>(٢)</sup> وأول ما نلاحظه في تأبين ابن المعتز هو مناسبة الرثاء لمن يرثيهم، مثلما كان يناسب بين المديح والممدوح تماما.

### (تأبين الخلفاء)

فابن المعتز يؤين المعتضد بما كان يمدحه من قبل وحسبنا أن نقرأ هذه القصيدة لنرى فيها الخليفة المعتضد بما عرف من القروسية، والعدل، والمهابة، والوقار، والقضاء على الثروات، والبناء والعمران وغير ذلك. يقول ابن المعتز:

يا دهر وبحك ما أبقيت لي أحدا	وأنت والد سوء تأكل الولدا
أستغفر الله بـل ذا كله قلدر	رضيت بالله ربا واحدا صمدا
يا ساكن القبر في غبراء مظلمة	بالظاهرة مقصى الدار منفردا
أين الجيوش التي قد كنت تحبها	أين الكنوز التي لم تحصها عددا
أين السرير الذي قد كنت تملؤه	مهابة من رأسه عنه ارتعدا
أين الأعادي الألي ذللت صعبهم	أين اللبث التي صرقتا بعدا
أين الرجاء الذي قد كنت تصحبه	أين أمانيك في الدنيا غدا وغدا
أين الوفود على الأبواب عاكفة	ورد القطا صفو ماء جال واطردا
أين القصور التي شيدتها فملئت	ولاح فيها سقى الإبريز فاتقدا

(١) في الشعر العباسي: الرؤية والفن، (ص: ٣٦٢).

(٢) العمدة لابن رشيق، (ص: ٣٥٨).

أين الجنان التي تجري جداولها  
أين الرجال قياما في مراتبهم  
أين الوصائف كالغزلان رابحة  
أين الجياد التي جعلتها يدم  
أين الرماح التي غديتها مهجاً  
أين السيوف وأين النبل مرسله  
أين الجانيق أمثال الفيول إذا  
أين الوفوف إلى الأعداء مبيتا  
ما زلت تقسر منهم كل قصورة  
ثم انقضت فلا عين ولا أثر

وتستجيب إليها الطائر الفرد  
من راح منهم ولم يظمره فقد سعدا  
يسجن من حلل موشية جددا  
وكن يحملن منك الضيفم الأسد  
مذمت ما وردت قلباً ولا كبد  
يصين ما شئت من قرن وإن تعدا  
رمن حائط حصن قائم قعدا  
صلاح ملك بني العباس إذ فدا  
وتخبط العالي الجبار معتمدا  
حتى كأنك يوماً لم تكن أحدا<sup>(١)</sup>

أظن أن الدارس لتاريخ الخليفة المعتضد بالله لو قرأ هذه القصيدة بدون أن يعرف - مسبقاً - أنها رثاء له، لكتب عنوانها وحده "في رثاء المعتضد".

ومن تأبينه لأهل البيت، نجده يرثي الحسين بن علي كرم الله وجهه، ويصفه بالتقوى والشجاعة ويصف الأمويين بالفدر والخيانة. يقول:

حر أنفاسي ليوم حين  
لك نفسي من قيل وقلت  
مستضيف مشروع الماء يقرى  
كنت حللاً برغم الأعادي  
وخلا اغراب من عامريه  
أسد قلت شياه النايما

وإليه حين وفد مقالي  
يوم يدعوا المعلمون نزال  
حبة النصل ووقع النبال  
وعلى القرن جريء الصيال  
ولقد يمسى بكم غر عالي  
فأصابته صروف الليالي

(١) النيران، (٢/ ٣٣٠ - ٣٣١)، مطبعة دار المعارف.

من خيل عصيت تحت نفع      كدخان طار عن حجر صالي  
من خصم عزم الشر فيه      تلقح العاقر بعد الخيال  
يا خليلي ألقيا عبد شمس      بمقال ناطق عن فعال  
كنتم بالعدو أولى وكنا      بتقاضى النبل أولى الموالي  
فجزينا الكيل صاعا بصاع      ولكم نقص على كل حال<sup>(١)</sup>

أما تأبينه للوزراء، فنجده يرثي عبيد الله بن سليمان بالحلم والعلم والعقل وصواب الرأي، وهي أثناء كان يمدحه بها. يقول:

لما شفى مرض الخلافة رأيته      بصواب أمري: عفوه وعقابه  
مستظهرا قبل الخطوب بعده      والسيف يشهد قبل غير ضرابه  
وأضاء من تدبيره ملك دجا      زما وذلت أسده لكلايه  
والفاض عدلا للبرية شاملا      ليست تروع شأوه بذنايه  
ودعا اللوث فجتن من آجامها      فإذا بدا يصعن تحت ركابه  
حب الإله جواره فأحله      في جنة نفت على الدنيا به<sup>(٢)</sup>

ويقول:

لِلّهِ مَا ضَمَّنَ مِنْكَ الْقَرْبُ      حِلْمٌ، وَعِلْمٌ، بَارِعٌ، وَكِبَرٌ<sup>(٣)</sup>

ومن رثاء للعلماء والأدباء.

تأبينه للحسين بن ثوابة الشاعر، يقول منها مشيرا إلى شعره وقوافيه وحسن أسلوبه وكتابته:

(١) الديوان، (٣٥٣/٢)، طبعة دار المعارف.

(٢) الديوان، (٣٢٤/٢).

(٣) نفسه، (٣٢٣/٢).

ليس شيء لصحة وذوام  
وتوكلني أبو الحُسين حيناً  
كانَ ربحانة التداوي وميزاً  
ومكان الفهم الذي لا يَرى الشـ  
ساحر السوحي في القراطيس لا  
وإذا ما رأيته خلّلت في كَفـ  
نفس، صبراً لا تجزعني إن هذا

غلب الدهر حيلة الأقوام  
فعلى رُوحه أجل السلام  
ن القوالي شعراً ويخر كلام  
سكٌ ولا يسطع بالالفهام  
تحبس عنه أعنة الأقسام  
فيه صُبحاً منقّباً بظلام  
خلق من علاسق الأيام<sup>(١)</sup>

" وفي العزاء وقف الشعراء عند فكرة الاحتساب والرضا بما عند الله والصبر على قضائه".<sup>(٢)</sup> كما قال ابن المعتز يعزي المعتضد عن جارية له تعرف بديره، وهي أم إبراهيم ابنه:

يا إمام الهدى بنا لا بك المـ  
أنت علمتنا على النعم الشكـ  
فاسل عما مضى فإن التي كا  
قد رضينا بأن نموت ونحيا  
إن يكن ساءك الفراق بألف  
فكذا الدهر لا أعاد إليك  
من يمت طائعاً لديك فقد أعـ

م وأفتتنا وعشت سليما  
سر وعند المصائب التسليما  
نت سروراً صارت ثوابها عظيما  
إن عندي في ذاك خطاً جسيما  
بعد ما سرك التلاقي قديما  
الله شرّاً ولا أراك هومـ  
طي نوراً ومات موتاً كريماً<sup>(٣)</sup>

( ١ ) الديوان، ( ٣٦٦/٢ )، مطبعة دار المعارف.

( ٢ ) التيار الإسلامي، (ص: ٢٩٢)

( ٣ ) الديوان، (١/ ٥٠٠ - ٥٠١ )، مطبعة بغداد.

وفي النهاية نضيف هذه الفضائل الإسلامية التي تصاحب الميت وسجلها الشعر. من هذه الفضائل ( الصلاة على الميت ) . يقول ابن المعتز في رثاء المعتضد:

قضوا ما قضوا من أمره ثم قدموا إماماً لهم والنمش بين يديه  
فصلوا عليه عاشعين كأنهم قيام صفواً للسلام عليه<sup>(١)</sup>

ومن هذه الفضائل الدعاء للميت بالمغفرة. يقول ابن المعتز يرثي

بعض الإخوان:

فضمان الله بالفقر لكم ورضا الله رحيب المشرع  
لا تظنوا أنني قد فكم سوف آتيكم وإن لم أسرع<sup>(٢)</sup>

ويقول في رثاء الموفق:

تلقاه غفر الله من ميت ثوى ومن يلقه غفراته فهو فائز<sup>(٣)</sup>

وقال في رثاء آخرين، يدعو برضا الله ونخول الجنة:  
علل السقى لأقربكم ورضا الله ويرد الجنان



( ١ ) الديوان، ( ٣٧٥/٢ )، طبعة دار المعارف.

( ٢ ) نفسه، ( ٣٥٠/٢ ) .

( ٣ ) نفسه، ( ٣٤٥/٢ ) .

## الهجاء

فن شعري وغرض من أغراض الشعر الغنائي عند العرب، يجرى فيه الشاعر المهجو من القيم والمثل والأخلاق، ويكشف عن عيوبه ونقائصه بقصد إهائته والازدراء به.

" فإذا كان المديح تعبيراً عن الفضائل، وإظهاراً لعظمتها في شخص المتصف بها، وكان الهجاء ضد المديح، فإن الهجاء تعبير يبرز الرذائل في صورة بغیضة تنسب إلى المهجو وتلصق به".<sup>(١)</sup>

وكلام قدامة بن جعفر ومقاييسه هنا في فن الهجاء مبني على كلامه في فن المديح فيقول: " إنه قد سهل السبل إلى معرفة وجه الهجاء، وطريقة ما تقدم في قولنا في باب المديح وأسبابه، إذ كان الهجاء ضد المديح، فكما كثرت أضداد المديح في الشعر كان أهجى له، ثم تنزل الطبقات على مقدار قلة الأهاجي فيها وكثرتها".<sup>(٢)</sup>

"والهجاء على أنواع، منه الهجاء الشخصي: وفيه يتناول الشاعر المهجو في عرضه ونسبه، وخلقه، وخلقه، والهجاء السياسي: الذي ينال من القبيلة والسلطان والسياسة، والهجاء الديني: يعرض للعقيدة والمذهب

(١) قدامة بن جعفر والنقد الأدبي: د. بدوي طبانة، (ص: ٣٥٣).

(٢) نقد الشعر: لقدامة بن جعفر، تحقيق د. خفاجي، (ص: ١١٣).



والدين، والهجاء الاجتماعي: يصف الأخلاق العامة وطبقات الأمة ويرسم تحليلها<sup>(١)</sup>.

ويهمنا من الهجاء، ما كان متصلاً بأثر الحضارة عليه أي الهجاء الديني بجانب المستجدات الحضارية. فنجد في الحقيقة أن الإسلام ينكر ويلغي الهجاء في المجتمع الإسلامي، ويوصد باب التهجي بين المسلمين؛ لأن موضوعه يدخل فيما نهى الله عنه بقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْقُسُوفُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ"<sup>(٢)</sup>.

فأما الهجاء المتصل بالقيم الإسلامية والمثل الدينية "فالشاعر حين يعيب على المهجو انحرفاً في دينه وعزوفه عن الاستقامة، وانصرافاً إلى الآراء والأفكار والقيم الوافدة يكون هجاؤه دينياً إسلامياً.. ويلاحظ أن الآثار والسمات الإسلامية في هذا الغرض ضئيلة بالنسبة لغيرها من الأغراض، لكن هذه الملامح لا نفقدها ولا يتجرد عنها هذا الغرض الشعري"<sup>(٣)</sup>. ومن أجل إظهار هذه الملامح نبدأ بسلب الصفات الحسنة التي أقرها الإسلام ثم بالصفات المنافية للإسلام<sup>(٤)</sup>.

(١) الهجاء، د. سامي الدهان، سلسلة فنون الأدب، دار المعارف، (ص: ١١).

(٢) سورة الحجرات، (آية: ١١).

(٣) للتيار الإسلامي، (ص: ٢٧٠).

(٤) وقد أشار الأستاذ زعلول سلام على الباحث بذلك.

وابن المعتز العباسي لم يكن هجاء بمعنى هذه الكلمة، فلم يكن هجاءه إلا بعض النواذر والدعابات، فابن المعتز \* كان يرتفع بنفسه عن هذا الفن الذي يستحيل في أيدي الشعراء مهاجمة خصومهم، ولم يكن له خصوم<sup>(١)</sup>. كما \* أن نفسه لم تنطوي على الحقد للناس والمجتمع وهو عنصر مهم في هذا الفن، كما انطوت نفوس غيره من شعراء هذا النوع من الشعر، كبشار ودعبل وابن الرومي<sup>(٢)</sup>. ولذلك نجد أن معظم شعر ابن المعتز في فن الهجاء مقطوعات قصيرة، أما القصائد المطولة في الهجاء فقليلة.

ومعظم هجاء ابن المعتز يستمد من المعاني الإسلامية فنراه ينفي الصفات الحسنة من المهجو. فإذا كان القرآن يأمرنا بالخشوع في الصلاة فقد أفلح المؤمنون (١) الذين هم في صلاتهم خاشعون (٢).<sup>(٣)</sup> فنجد ابن المعتز يهجر من لا يتقن صلاته ولا يخشع فيها ويتسرع

في أدائها. يقول:

أنا إمامٌ ثَقِيلٌ	خَفِيفٌ رُوحُ الصَّلَاةِ
يُظَلُّ يَرْكُضُ فِيهَا	تَقْرَأُ بِقَمَرِ قَرَاةِ
كَرَاحِبٍ وَتَرَاةِ	مُسْتَعْجِلًا بِزَرَاةِ <sup>(٤)</sup>

ويقول في رجل آخر:

- (١) العصر العباسي الثاني: د. شوقي ضيف، (ص: ٢٢٩).  
 (٢) شعر ابن المعتز: القسم الثاني: د. يونس السامرائي، (ص: ١٧٠).  
 (٣) سورة المؤمنون، (الآية: ٢٢١).  
 (٤) الديوان، (١/ ٦١١)، طبعة بغداد.

أَخَفُ مِنْ لَا شَيْءَ فِي سَجْدَتِهِ كَأَنَّهُ يَلْمَسُ فِي جَنَّتِهِ<sup>(١)</sup>  
وإذا كان الصيام ركن من أركان الإسلام\* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ<sup>(٢)</sup> نجد ابن المعتز يسخر من رجل يشك في إنه صائم. يقول:

جاء شهر الصيام يا ابن علي قبل الله منك إن صمت فيه  
لا تغالط فإننا قد علمنا ليس يحفي عنا الذي تأتبه<sup>(٣)</sup>

وإذا كانت التقوى هي عماد الأمر كله في الإسلام، يقول تعالى:  
"وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى"<sup>(٤)</sup>، والأخلاق هي أساس الدعوة المحمدية.  
يقول (رحمته): "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، نجد ابن المعتز ينقسي في هجائه لأحد الرجال هاتين الصفتين. يقول:

عُرِيَانُ مِنْ خُلِّلِ الْجَلَالَةِ وَالتَّقَى لَمْ يَحِمْ مِنْ كَرَمِ الْخَلَائِفِ مَوْرَثًا<sup>(٥)</sup>  
وإذا كان ديننا الحنيف يأمرنا بالإتفاق في سبيل الله. يقول تعالى:  
"أَنْ تَتَّخِذُوا الْبِرَّ حَتَّى تُتَفَقَّهُوا مِمَّا تُحِبُّونَ"<sup>(٦)</sup>، نجد ابن المعتز يهجو رجلاً بالبخل وعدم الإتفاق. يقول:

يَا بَخِيلًا لَيْسَ يَشْرِي مَا الْكَرَمُ حَرَّمَ النَّوْمَ عَلَى فِيهِ نَعْمَ

(١) نفسه.

(٢) سورة البقرة، (الآية: ١٨٣).

(٣) الديوان، (٤٦٨/٢)، طبعة دار المعارف.

(٤) سورة البقرة، (الآية: ١٩٧).

(٥) الديوان، (٤٣٦/٢)، طبعة دار المعارف.

(٦) آل عمران، (الآية: ٩٢).

خَذُّوْنِي عِنْدَ فِي الْعِيدِ بِمَا سَرَّيْ مِنْ لَفْظِهِ فِيمَا حَكَمَ  
قَالَ: لَا قَرَّتْ إِلَّا بِدَمِي ذَاكَ عَتَرَ مِنْ أَحَابِي الْقَتَمِ<sup>(١)</sup>

وإذا كان الإسلام يأمرنا بالوفاء بالعهد، فقال الله في كتابه الكريم  
في مجمل حديثه عن البر "وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا"<sup>(٢)</sup> نجد أن ابن المعتز  
يهجو رجلا بعدم الوفاء بالعهد. يقول:

وَصَاحِبٌ يَسْخَرُ فِي مَوْعِدِهِ وَأَخَذَ اللَّهَ وَلَا أَحَدَهُ  
زَرْعُ الْمَنَى يَقُولُهُ لَفْظَةً ثُمَّ مِطَالٌ بَعْدَهُ يَحْصُدُهُ<sup>(٣)</sup>

وإذا كان الإسلام يأمرنا بالنظافة حتى قال الرسول الكريم (ﷺ):

"النظافة من الإيمان" نجد ابن المعتز يهجو رجلا بعدم النظافة. يقول:

قَدْ تَنَزَّ الْمَجْلِسُ مُدْجِئًا فَكُلُّ مَنْ مَرَّ بِهِ يُصْفَقُ  
وَكُلُّ مَنْ مَرَّ بِهِ عَالِدٌ بِاللهِ مِنْهُ كَالْحِجَابِ يُصَفَّقُ  
فَقَدْ يُطَيِّقُكَ وَاشْبَعُهُمَا فِي الصَّيْفِ بِالْمَرْتَكِ يَا أَحْمَقُ  
وَلَا تَقُلْ مَا فِيهِمَا حِيلَةٌ فَالْحُشُّ قَدْ يَكُنُّ أَوْ يُطَيِّقُ<sup>(٤)</sup>

أما عن الهجاء بالصفات المنافية للإسلام والتي نهى الإسلام عنها

فنجد أنه إذا كان الإسلام يمنع الكبر حتى قال الرسول (ﷺ): "لا يدخل الجنة  
من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر". نجد ابن المعتز يهجو رجلا بهذه الرذيلة.  
يقول:

(١) الديوان، (٧١٨/١)، طبعة بغداد.

(٢) البقرة، (الآية: ١٧٧).

(٣) الديوان، (٦٤٤/١)، طبعة بغداد.

(٤) الديوان، (٦٩٥/١)، طبعة بغداد.

يَا جَاهِلًا فَعَلَ الْإِلَٰهَ أَلَمْ يَكُنْ يَخْلُقُكَ مِنْ صِفْرِ فَلَمْ تَتَكَبَّرْ<sup>(١)</sup>

وإذا كان وعد الله سبحانه وتعالى الذين يكتزون الذهب والفضة بالعذاب الأليم: «وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقِدُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ»<sup>(٢)</sup> نجد ابن المعتز يهجو إسماعيل بن بلبل وزير الخليفة المعتمد بالاستيلاء على أموال المسلمين وكنزها. يقول:

أين الجوائز غير جائزة والجهل في الإمضاء والفسخ  
وأخذت مال الله تكوره في الأرض كبر العظم للمخ<sup>(٣)</sup>

وإذا كان الإسلام قد نهى عن النفاق وجاء في القرآن الكريم: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»<sup>(٤)</sup> نجد ابن المعتز يهجو جماعة بمعنى هذه الرذيلة. يقول:

بَلَوْتُ أَهْلَاءَ هَذَا الزَّمَانِ فَأَقْلَلْتُ بِالْهَجْرِ مِنْهُمْ نَصِيحِي  
وَكُلُّهُمْ إِنْ تَصَفَّحْتُهُمْ صَدِيقُ الْقِيَانِ عَدُوُّ الْمَغِيبِ<sup>(٥)</sup>

وإذا كان الإسلام نهانا عن قول الزور، نجد ابن المعتز يهجو بهذه الرذيلة أيضا يقول فيمن زعم أن ابن المعتز هجا عليا بن أبي طالب رضي الله عنه:

قِيلَ إِنِّي لَعَلِّي مُبْغِضٌ مُصٌّ مَنْ يَزْعُمُ هَذَا وَدَخَلَ

(١) نفسه، (١/٦٦١).

(٢) للتوبة، الآية: ٣٤.

(٣) للديوان، (١/٦٣٩)، طبعة بغداد.

(٤) سورة النساء، (الآية: ١٤٥).

(٥) نفسه، (١/٧١٤)، طبعة بغداد.

لَعَنَهُ اللهُ عَلَى مُبْعِضِهِ      كَلَّمَا صَلَّى مُصَلٍّ وَاتَّهَلَّ  
وَالَّذِي زَوَّرَ قَوْلًا كَاذِبًا      أَثَبَّتَ اللهُ لَهُ قَرْنًا وَعَلَّ  
وَهُوَ عِنْدِي فَرَحٌ سَوْءٍ حَمَلَتْ      أُمُّهُ لَا شَكَّ مِنْ ذَلِكَ أَلْعَمَلِ<sup>(١)</sup>

أما عن التطورات الجديدة في الهجاء فنجد "ميله إلى الشعبية في معانيه وأسلوبه.. وهذا الاقتراب من الشعبية كان يقترب بالميل إلى الهزل والمرح والترفيه لأن هذه العناصر جزء لا يتجزأ من الطبيعة الشعبية في كل زمان وفي كل بيئة".<sup>(٢)</sup>

وابن المعتز يبين لنا هذا الاتجاه الشعبي في الشعر ولكنه لا يبلغ في ذلك شأواً معاصره ابن الرومي مثلاً، يقول في مقطوعة كتبها للنميري وقد دخلت إليه قبينة قصيرة على بغلة:

قَدْ رَأَيْتُ خَيْرَ الْمَجْدِ      لَيْسَ وَالْيَوْمِ الْعَجِيبُ  
وَرَأَيْتُ نَصْفَ يَهْلٍ      فَوْقَهُ نَصْفُ حَيْبٍ  
أَكْرَى إِبْلِيسَ يَرْضَى      بِبُيُوتِ الدُّنُوبِ<sup>(٣)</sup>

ومن التطورات الجديدة في الهجاء أيضاً هجاء المدن، وهذا ابن

المعتز يهجو (سر من رأى) بعد أن خربت وذهب أهلها:

أَلَمْ تَرْنِي رُبَطْتُ بِخَرٍّ أَرْضِي      فَهَلْ أَنَا وَاجِدٌ مِنْهَا الْفَلَاحُ  
وَصَارَتْ سِرٌّ مِنْ رَأْسَاءِ مِنْ رَأْسَاءِ      فَلَا سَقِيَتْ وَلَا كَيْتَ نَبَاتَا  
إِذَا مَا الْمَرْءُ أَصْبَحَ سَائِلُوهُ      وَقَالُوا كَيْفَ بَتْ وَكَيْفَ بَاتَا

(١) نفسه، (٧١٤/١)، طبعة بغداد.

(٢) اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري، (ص: ٤٤٩).

(٣) الديوان، (١٤٦/١)، طبعة بغداد.

يُخَلِّيهِ الْمَجَاوِزُ وَهُوَ دَانٌ      وَيَأْتِيهِ إِذَا مَا اللَّصُّ فَاثَا  
وَكُمُطْرُنَا لِيَالِيهَا بَعُوضًا      يَذُبُّ التَّوَمَ عَتَا وَالسُّبَا  
وَكَسَلُكَ فِي شَوَارِعِ خَالِيَاتٍ      أَخْلَى اللَّؤْلُ فِيهِنَّ الشَّيَا  
وَحَيْطَانِ كُشِطَرْنَجٍ صُغُوفٍ      فَمَا تَتَفَكَّرُ تُضْرِبُ شَاةَ مَاثَا<sup>(١)</sup>

كما تطور فن الهجاء \* باتجاهه ناحية شخصية في الغالب وتناوله للفرد بوصفه فردا في مجتمع لا شأن لقبيلته به على الإطلاق، مثلما كان الحال في شعر الهجاء القديم حتى في القرن الأول، حيث كان الشاعر ينظر إلى نمب المهجو ومخازي قبيلته أساسا لهجائه، ولا ريب أن هذا التغير كان نتيجة للتحضر الذي بلغه المجتمع واكتمال الشخصية الاجتماعية لأفراده واستقلالها إلى حد كبير عن القبيلة وعلائقها المختلفة<sup>(٢)</sup> هذا بالإضافة إلى أن الإسلام قضى على العصبية القبلية، كما منع الهجاء مطلقا، " فقد قال الرسول (ﷺ): "من قال في الإسلام هجاء مقزعا فلسانه هدر"<sup>(٣)</sup> ولم يبلغ ابن المعتز درجة الفحش والإقذاع إلا في القليل النادر، فنراه يستخدم أسلوب تأنيث المذكر في هجاء النميري بعد أن انقطع عنه. يقول من قصيدة مطلعها:

قَدْ غَضِبْتَ بِنْتُ التَّمِيرِ      وَلِي سِوَاهَا أَلْفُ سُرَيْه<sup>(٤)</sup>

( ١ ) الديوان، ( ١٦٣/٢ )، طبعة دار المعارف.

( ٢ ) اتجاهات الشعر في القرن الثاني، ( ص: ٤٥٠ ).

( ٣ ) العمدة، ( ص: ٣٨٠ ).

( ٤ ) الديوان، ( ٣٧٨/١ ).

## الشعر السياسي

اتضح عند الحديث عن حياة ابن المعتز أنه كان يدافع عن ملك بني العباس والخلافة العباسية دفاعاً مستميتاً. وعللنا ذلك بأنه كان لا يريد أن تخرج الخلافة من البيت العباسي فعساها أن تعود إليه يوماً ما، ولأكثر ما طال انتظاره لها، ولكنها قد جاءت أخيراً ولكن معها ملك الموت قابض الأرواح الذي قبض روح عبد الله بن المعتز بعد ليلة واحدة قضاهها خليفة. وعندما يتناول الباحث شعره السياسي في دفاعه عن الخلافة يجد أنه يدور على أربعة نقاط:

الأولى: وقوفه في وجه العلويين الذين كانوا يرون أنهم أحق بالخلافة من العباسيين برغم ما نكل بهم.

الثانية: الأتراك الذين سيطروا على الخلافة وعاثوا في عاصمة الخلافة الفساد وقتلوا الخلفاء والوزراء وخرّبوا البلاد.

الثالثة: المناوئين للخلافة والخارجين عليها من رافضة وقرامطة وغيرهم، والذين أزهقوا الخلافة إرهاباً شديداً حتى قضى عليهم.

والرابعة: الشعوبيين الفرس، الذين كانوا يقاتلون من شأن العرب ويتغنون بأمجادهم وحضارتهم الكسروية القديمة. وعند دراسة هذا الشعر عند ابن المعتز نجد أنه يحتوي على الكثير من الأحداث الإسلامية الكبيرة والتي حدثت في عصره وقبل عصره.



فإذا تناولنا موقف ابن المعتز من العلويين سنجد أنه لم يكن هو الشاعر الأول الذي وقف يدافع ويزود عن ملك بني العباس بل سبقه غيره من الشعراء الآخرين مثل مروان بن أبي حفصة الذي جند نفسه للدفاع عن العباسيين، بل استطاع أن يؤثر في ابن المعتز فيما بعد في استناده على الأسانيد والحجج الدينية والفقهية.

فقد قال مروان بن أبي حفصة يمدح المهدي موجهها الكلام

للعلويين:

هَلْ تَطْمِسُونَ مِنَ السَّمَاءِ لُجُومَهَا      بِأَكْفَكُمْ أَمْ تَسْتُرُونَ هَلَالَهَا  
أَمْ تُجَحِّدُونَ مَقَالَءَ عَنْ رَبِّكُمْ      جَبْرِيلُ بَلَّغَهَا التَّيِّ فَقَالَهَا  
شَهِدْتَ مِنَ الْأَنْفَالِ آخِرَ آيَةٍ      بِرَأْيِهِمْ فَأَرَدْتُمْ إِبْطَالَهَا<sup>(١)</sup>  
وهو يشير إلى الآية التي تقول: "وَأَكْلُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ  
فِي كِتَابِ اللَّهِ."<sup>(٢)</sup>

ويقول أيضا مادحا المهدي:

يَا ابْنَ الْأَدِيِّ وَرِثَ التَّيِّ مُحَمَّدًا      دُونَ الْأَقَارِبِ مِنْ ذَوِي الْأَرْحَامِ  
الْوَحْيِ بَيْنَ بَنِي النَّبَاتِ وَبَيْنَكُمْ      قَطَعَ الْخِصَامَ فَلَاتَ حِينَ خِصَامِ  
مَا لِلنِّسَاءِ مَعَ الرِّجَالِ فَرِيضَةٌ      نَزَلَتْ بِذَلِكَ سُورَةُ الْأَنْعَامِ  
أَنِّي يَكُونُ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِكَائِنٍ      لَبَنِي النَّبَاتِ وَرَأَتْهُ الْأَعْمَامِ<sup>(٣)</sup>

(١) تاريخ بغداد، (١٣/ ١٤٢).

(٢) سورة الأنفال، (الآية: ٧٥).

(٣) الأغاني، (٢٠/ ٧٥).

وهكذا انتهج ابن المعتز هذا النهج باستناده على الحجج الفقهية والأحداث التاريخية في موقفه من العلويين، يقول مخاطباً العلويين:

نصحت بني رَحمي لَو وَعَوَا      نصيحة برّ بالسابها  
وقد ركبوا بغيتهم وارتقوا      بزلاء لردى بركابها  
وراموا فرائس أسد الشرى      وقد كثبت بين أنيابها  
دعوا الأسد تفرس ثم اشبعوا      بما تذغ الأسد في غابها  
قتلنا أمية في دارها      ونحن أحن بأسلابها  
وكم غصية قد سقت منكم الـ      خلافة صاباً بأكوابها  
إذا ما ذلوتكم تلقى كنكم      زبوناً وقسرت بخلابها  
ولما أبي الله أن تملكوا      كهضاً إليكم وقمابها  
وما رد حجابها والدا      لنا إذ وقفا بأبوابها  
كقطب الرحي وافقت أختها      دعونا بها وعليا بها  
ونحن ورثنا باب النبي      فلم تجدون بأهدابها  
لكم رجم يا بني بنيه      ولكن أرى القم أولى بها  
به غل الله محل الحجاز      وأبرأها بعد أوصابها  
ويوم حنين بدا عيكم      وقد أبدت الحرب عن نابها  
فلما علا الحبر أكفائكم      هوى مئلك بين أبوابها  
فتمهلاً بني غمنا إلها      عطية رب حبانها  
وكالت تزلزل في العالمين      فشئت إلينا بأطنابها  
وأقسم ألكم تعلمون      بأننا لها خير أربابها<sup>(١)</sup>

(١) الديوان، (٢١/١)، وما بعدها، بغداد.

ويقول أيضا:

أبو الفضل أولى الناس بالفضل كلهم  
ويوم حين حين صاح وراءكم  
ويا معشر الأنصار من كان عاقدا  
لولا ما قررت بطيئة هجرة  
أقام بدار الكفر غنا على المدى  
ولولا بلوغ الشمس منه وكفها  
لأعطى أبا حفص يديه عنائها  
ألم ترة من قبل حين أقامه

ويقول أيضا:

يا بني غمنا إلى كم وحتى  
أبدا فارغين إن نطمعوا الملل  
أبهر طالب كمثل أبي الفضل  
سائلوا مالكنا ورضوان عن ذا  
وعلى فكأبسه غير شك  
فدعوا الملل نحن بالملك أولى

ومن استقراء المقطوعات السابقة نستطيع أن نصل إلى الحجج التي  
كان يستند عليها ابن المعتز في أحقية العباسيين للخلافة وتستلخص في  
الآتي:

(١) الديوان، (١ / ٩٦)، وما بعدها، بغداد.

(٢) نفسه، (١ / ١٧٣).

١- إن العباسيين هم الذين قضوا على الأمويين المقتصبين للخلافة؛ ولذلك كان من حقهم أن يرثوا الخلافة عنهم، كما أشار إلى عدم مقدرة العلويين الأخذ بثأر الحسين.

٢- تبعاً لنظام الوراثة الإسلامي فالعم أولى من ابن العم في الميراث وكذلك من البنت، فكان العباس أولى بالخلافة من علي بن أبي طالب؛ ولذلك فالعباسيون أحق بالخلافة من العلويين.

٣- إن للعباس عم الرسول (ﷺ) من المآثر ما يؤهل أحفاده أن يرثوا الخلافة. منها:

أ- حضوره بيعة العقبة الأولى والذي فيها بايع الانتصار الرسول (ﷺ) والاستعداد لاستقباله في المدينة. وكان العباس يومها لم يسلم ولكنه كان يريد أن يطمئن على ابن أخيه.

ب- مكوثه في مكة مدة طويلة وهو يخفي إسلامه، وينقل أخبار الكفار إلى الرسول (ﷺ)، مما جعل المسلمين يستعدون للكفار في غزواتهم والانتصار عليهم في أكثر من موقعة.

ج- وقوفه بجانب الرسول (ﷺ) في غزوة حنين بعد أن ولي المسلمون، وكادت أن تكون الهزيمة محققة لولا أن الرسول الكريم (ﷺ) طلب من عمه العباس أن ينادي في المسلمين للجهاد من جديد وكان ذلك فاجتمع المسلمون وبذلك تحقق النصر لهم.

د- ما يرويه ابن عبد ربه بأن عمر بن الخطاب جمع المسلمين لصلاة الاستسقاء في عام الرمادة. وخرج معه العباس ماشياً فخطب عمر قائلاً: اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك وبقية آبائه وكبار رجاله، فما

برحوا حتى علقوا الحذاء وقلصوا المآزر وطلق الناس بالعباس  
يقولون: هنيئا لك يا ساقى الحرمين".<sup>(١)</sup>

هـ- إن العباس جد العباسيين كان مسلما حنيفا فهو في الجنة أما أبو طالب جد العلويين مات على كفره فهو في النار. ويعلق الدكتور مصطفى الشكعة على ذلك فيقول: "ويستبد الحماس بابن المعتز لبني قومه فيخرجه حماسه عن الجادة حين يتورط تورطا غير كريم في إجراء مقارنة بين أبي طالب والعباس عمي الرسول، ويلمح إلى أن أبا طالب في النار والعباس في الجنة، وأعطى لنفسه ما ليس من حقه، فانه وحده يعلم أين الرجل العظيم الذي كفل محمدا اليتيم من بعد جده ورعاه شابا وحمى رسالته نبيا والمنسوب إليه قوله:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينًا

ولكنها السياسة وجاء الملك والحرص عليه تدفع بعض الناس إلى التهاون في حقوق العظماء والتعريض بهم من حيث يستحقون الإجلال والإعظام"<sup>(٢)</sup>

والباحث ليس مع ابن المعتز في ذلك، لأن أبا طالب إن كان مات على كفره فعلي بن أبي طالب هو من هو، فلا يصح أن يكون كفر أبي طالب معايرة للعلويين، أما تعاطف الدكتور مصطفى الشكعة الشديد مع أبي طالب، حتى قال فانه وحده يعلم أين الرجل العظيم؟ فيه شيء كبير من

(١) العقد الفريد، (٤ / ٦٤ - ٦٥).

(٢) الشعر والشعراء في العصر العباسي، (ص: ٧٤٩).

التجاوز؛ لأن أبا طالب مات على كفره، رغم موقفه المشرف من الرسول ومصير الكافرين معروف، فالجنة محرمة عليهم، ولا يغفر الله لهم كما ورد في القرآن الكريم.

وموقف ابن المعتز من العلويين كان يتغير بمرور الزمن واتضح

الرؤية، بعد أن كان يقول يهجوهم:

وَعَاظَهُمُ الْمَجْدُ الَّذِي لَا يَنَالُهُ      لَيْمٌ وَلَا وَإِنْ ضَعِيفَ عَنِ الْوَتْرِ

فتراه يمدح علياً بن أبي طالب في قصيدة، طويلة يعدد فيها أمجاده

ومآثره، فيقول منها:

رَكِبْتُ الْحَجِيجَ فَقَالَ الْغَدَا	عُ سَبَّ عَلِيًّا وَبَنَاتِ النَّبِيِّ
عَلَى يَطْلُونِ بِي بُلْعُضُهُ	فَهَلَا سِوَى الْكُفْرِ ظَنُوءُهُ بِي
إِذَا لَا مَقَاتِي غَدَا كَفُّهُ	مِنْ الْخَوْضِ وَالْمَشْرِبِ الْأَعْدَبِ
بَلَى قَرْنُفَتَيْنِ مَثُوا إِلَيَّ	بِـ بِالنَّسَبِ الْأَفْجَرِ الْأَكْذَبِ
مَتَّبَعْتُ فَمَنْ لَا مَنِي فِيهِمْ	فَلَسْتُ بِمَوْصِي وَلَا مُقْتَبِ
مُجَلِّي الْكُرُوبِ وَكَيْتُ الْخُرُوبِ	فِي الرَّهَجِ السَّاطِعِ الْأَسْهَبِ
وَتَحَرُّ الْغُلُومِ وَغَيْظُ الْخُصُومِ	مَنْ يَصْطَرِّعُ وَفَمُ يَغْلِبُ
يُقَلِّبُ فِي قِمِيهِ مَقُولًا	كَحَقِيقَةِ الْجَمَلِ الْمَصْبِ
وَأَوَّلُ مَنْ هَلَّ فِي مَوْقِفِي	يُصَلِّي مَعَ الطَّاهِرِ الطَّيِّبِ
وَكَانَ أَحَا لِبَيْيَ الْهُدَى	وَحَصْرُ بِلَاكٍ فَلَا يُكْذِبِ
وَكُفُّوا لِحَرِّ بَسَاءِ الْعِبَادِ	مَا بَيْنَ شَرْقٍ إِلَى مَغْرِبِ
وَأَقْصَى الْقَضَا بِفَصْلِ الْخَطَابِ	وَالْمُنْطَبِقِ الْأَمْدَلِ الْأَصَوْبِ
وَفِي لَيْلَةِ الْعَارِ وَقَى النَّبِيَّ	عِشَاءً إِلَى الْقَلْبِ الْأَسْهَبِ
وَبَاتَ حَاجِمًا بِهِ فِي الْفِرَاشِ	مُوطِنٌ لَفْسِي عَلَى الْأَصْبِ

وله غير ذلك قصائد كثيرة يقول صاحب كتاب الأوراق: "وله بعد هذا اعتذار كثير في قصائده إلا أنه خلط الاعتذار ببعض الاحتجاج فلم أنكره، والذي ذكرته عنه هو آخر ما قاله وعليه فارق الدنيا".<sup>(١)</sup>، وقال أبياتا:

رَغِمَتْ يَأْكِي يَا مُبْعَضُ مُبْعَضٍ      عَلَيَّ فَمَا فَخَرِي إِذَا فِي الْمُخَافِ  
أَأْكُلُ مِنْ لَحْمِي وَأَشْرَبُ مِنْ دَمِي      كَذَبْتَ خَالَكَ اللَّهُ يَا شَرُّ وَاعِلِ  
عَلَيَّ وَعَبَّاسٌ يَسْدَانِ كِلَاهُمَا      يَمِينٌ سَوَاءٌ فِي أَلْمَى وَالْقَضَائِلِ  
فَهَذَا أَبُو هَذَا وَهَذَا كُمْ ابْنُ ذَا      قَهْلٌ بَيْنَ هَذَيْنِ أَسَاعٍ لِدَاخِلِ  
تَسْمَعُ مَا يُخَوِّدُكَ فِي كُلِّ مَخْطَلٍ      وَتَمْسَحُ رَأْسَ الْعَارِفِ الْمُتَعَالِي<sup>(٢)</sup>

وبلغ من صفاء نفس ابن المعتز للعلويين في آخر حياته ما يرويه أبو بكر الصولي أيضاً بقوله: "... وكان عبد الله بن المعتز يحلف بالله لئن ملك من هذا الأمر شيئاً ليجعلن البطنين بطناً واحدة، وليزوجن هؤلاء من هؤلاء وهؤلاء من هؤلاء، وقال: لا أدع طالبياً يتزوج بغير عباسية، ولا عباسي بغير طالبية حتى يصيروا شيئاً واحداً، وأجرى على كل رجل منهم عشرة دنائير في الشهر، وعلى كل امرأة خمسة دنائير واجعل لهم من الدنيا الحية نقي بذلك..."<sup>(٣)</sup>

أما موقف ابن المعتز من المناوئين للخلافة والثائرين عليها فكان يختلف عن موقفه من العلويين فشعره فيهم لم يكن يقوم على الحجج

(١) أشعار أولاد الخلفاء، (ص: ١١٢).

(٢) المرجع السابق، (ص: ١١٣)، الديوان، (١/ ١٦٦)، بغداد.

(٣) أشعار أولاد الخلفاء، (ص: ١٠٩).

والأسانيد بل كان يقوم على إفتضاح أمرهم وكشف زندقتهم وكفرهم للناس،  
فنراه يفضح زعيم الروافض معدودا أفعاله فيقول:

وكم من صباح حين حالت صلاته	تغافلت عنها وتخاذلت من السكر
وكم قربة قد بت تسبح فوقها	كألك منها راكب لجة البحر
وساق ملبح مكره قد بظفقه	لئحل لأم البطن في ميمة الظهر
وكم ناصح قد قال تب فعصيته	ولا قيته بالشعم منك وبالزجر
وإن كنت سليبا إذا ما تجادلوا	فلحظك شام لأم أبي بكر
وتأخذ أسوال الروافض زاعما	بألك باب نافذ التهوي والأمر
وإن منعوا أموالهم عام عسرة	قطعت الندامى بالعصب والمجر
وئومي إلى علم خفي لبره	من الناس مكنوم يصاب عن الجهر
وتسخر ممن قال إني عالم	لمتخل الأخبار والتخو والشعر
وقضحك منه هازنا متعجبا	كألك لا تدرى بألك لا تدرى <sup>(١)</sup>

وقال في الرفضة قصيدة أخرى يرد عليهم زعمهم بانتسابهم إلى  
علي بن أبي طالب ومبيها زندقتهم، يقول:

لقد قال الروافض في علي	مقالا جامعاً كُفراً وموقا
زنادقة أرادت كسب مال	من الجهال فالتخذته سوقا
وأشهد الله منهم برئ	وكان بأن يقتلهم خليفا
كما كذبوا عليه وهو حي	فأطعم ناره منهم فريقا <sup>(٢)</sup>

أما القرامطة فقد هجاء هجاء عنيفاً وراح يندد بهم في كثير من  
المواقف، كما عبر عن فرحه الشديد عندما استطاعت جيوش المكتفى سنة

(١) الديوان، (١/٦٦٤ - ٦٦٥)، بغداد.

(٢) الديوان، (١/٦٩٢ - ٦٩٣)، بغداد.



٢٩١هـ أن تقضي على كبير قادة القرامطة وهو يحيى بن زكرويه ويأتي بأخيه الذي كان يطلق عليه صاحب الشامة أسيراً إلى بغداد ويشهر على الفيل كما كانت العادة آنذاك فيمن يؤتى به من كبار العصاة الخارجيين ويصور ابن المعتز ذلك فيقول:

أَقُولُ لَمَّا تَبَدَّى رَاكِبُ الْفِيلِ      وَصَحَّ مَا كَانَ مِنْ قَالٍ وَبَنٍ قِيلِ  
يَرِفُ فِي الْقَيْدِ مَغْلُولًا إِلَى سَقَرٍ      مُقْسِمًا بَيْنَ تَصَبُّحٍ وَتَبْطِيلِ  
وَأَقْبَلَ الْمُكْتَظِي بِاللَّهِ يَتَّبِعُهُ      فَكَثَرَ النَّاسُ مِنْ حَمْدٍ وَتَهْلِيلِ  
انْظُرْ إِلَى حِكْمَةِ الْأَقْدَارِ فِي مَلِكٍ      كَالشَّمْسِ حُسْنًا وَفِي قَرْدٍ عَلَى فِيلٍ<sup>(١)</sup>

ثم يقام له احتفال كبير ويجري إحراقه أمام الناس فيقول ابن المعتز

في ذلك:

لَمِنَ النَّارِ أَوْقَدَتْ بِالْمَصْلَى      نَارَ دُنْيَا مِمِّي قِيلَ نَارَ السَّعِيرِ  
ذَاكَ مَا سَنَهُ عَلَيَّ عَلَيْهِ      رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَدَمِ السَّهْوِ  
كَمْ قَتِيلٍ مَعْفَرٍ مِنْ بَقِي الْعَا      سَ بِالشَّامِ لَيْسَ بِالْقَبْرِ  
لَا تَلُمُوا مَجَازِيئًا بِابْتِدَاءٍ      لَيْسَ بَعْضُ الذَّنُوبِ بِالْمَغْفُورِ<sup>(٢)</sup>

كما أن لابن المعتز الكثير من الشعر في غيرهم من المتغلبين على السلطان في بغداد والأقاليم قال الصغار لصووص محتالون، وآل طولون فراعنة مصر على عهد الشاعر وصاحب الزنج.. شيخ ضلال شر من فرعون وإسحاق البيطار.. أعلم خلق الله بالماخور. وسنجد أن مزدوجيته

(١) الديوان، (١/٤٩٤ - ٤٩٥)، بغداد.

(٢) الديوان، (١/٤٥٦ - ٤٥٧).

التاريخية التي نتناولها بعدد قليل بجميع الأحداث السياسية والاجتماعية التي حدثت في القرن الثالث الهجري وموقف الشعراء منها.

- أما موقف ابن المعتز من الأتراك، فهو موقف يصور لنا مدى طغيانهم وخرابهم وفسادهم في هذا العصر بحيث بلغوا من القوة والجبروت والبطش ما جعل الشاعر لم يستطع أن يصرح بأفعالهم وذكر أسمائهم مباشرة، رغم أنهم قتلوا أبيه وجده وأعمامه. وأعتقد أن هذا يوضح مدى خوف الشاعر من أن يناله سيفهم القوي في هذا العصر. ولكن له بعض القصائد التي نستشف منها هذه الأفعال. ففي إحدى القصائد يتحدث بنى العباس على اليقظة والتخلص من هذا الشر الجاثم فوق صدورهم. يقول:

مَنْ مَبْلَغَ قَوْمِي عَلَى قُرْبِهِمْ	وَبَعْدَ أَسْمَاعٍ عَنِ السَّوَاعِظِ
هَبُوا فَقَدْ طَالَتْ بِكُمْ رَقْدَةٌ	مِنْ بَعْدِهَا أَحْسَبُ لَا تَرْقُدُونَ
خَفُوا مَطَايَا الْجِدِّ تُرْقِلُ بِكُمْ	نَاجِينَ بَيْنَ النَّاسِ أَوْ مُعَذَّرِينَ
يَا عَجَبًا مِنْ نَاصِحٍ لَمْ يُطْلَعْ	كَمْ حَازِمٍ قَدْ ضَاعَ فِي جَاهِلِينَ
رَأَى مِنَ الشَّرِّ الَّذِي لَمْ يَرَوْا	وَكَانَ يَهْتَمُّ وَهُمْ يَفْرَحُونَ
إِلَّيَّ أَرَى الْأَعْدَاءَ قَدْ رَسَخُوا	ذَوَاهِيَا أَنْتُمْ لَهَا حَافِرُونَ
سَلُّوا قِيَابَ الْمُلْكِ عَنْ مَعَشَرَ	كَانُوا لَهَا مِنْ قَبْلِكُمْ مُبْتَسِنِينَ
تُخَبِّرُكُمْ عَنْ زَمَنٍ لَمْ يَزَلْ	يَجِدُ بِالْقَوْمِ وَهُمْ يَلْعَبُونَ
كَذَلِكَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَمَا	أَشْبَهُ مَا كَانَ لِشَيْئَانِ يَكُونُ
عَاقِبَتُهُمُ الْأَحْلَامُ فِي مَضْجَعٍ	سَيِّئِ الشَّلَاةِ لَكُمْ بَعْدَ حِينٍ

فالشاعر في هذه الأبيات يشير بطرف خفي إلى الأتراك والجنود المرتزقة الذين استشرى شرهم. واشتد عبثهم حتى وصل الخلفاء.

ونراه في قصيدة أخرى يصور بغداد بعدما آلت إليه من خراب  
أصابه على أيدي الأتراك وغيرهم مقارنة بين ماضيها وحاضرها يقول:

هاتيك دار الملك مُقْفِرَةٌ	ما إن بها من أهلها شخصُ
عهدي بها والخيل جائلة	لا يستين لشمسها قرصُ
وإذا غلت صخرًا خوافرها	غادر كهُ وكأله دعصُ
والملك منشور الجناح ولم	يهك قوادم ريشه القصُ
فمضى بذاك الغيش أخيره	والهم مما سر مقصُ
أفما نرى بلدًا أقمت به	أعلى مساكن أهله شخصُ
وولائه لبط زنادقة	ملأى الطون وأهلها خمصُ
ولهم مبالغ يسخون بها	لا يتقى سطواتها اللصُ
أياها غشيب مُعلقة	مصنوعة وقراها جصُ
غلبت خيائهم أمائهم	وطفى على تقواهم الحرسُ
فبائهم في كل رابية	ولهم بكل قرارة شخصُ
وأمرهم متقلد بهم	نحو الحرام وسيرة نصُ
وكان خل الحمير يعصر من	وجناته أو يجتقى العفصُ
ويرون رخص السير أغبط في ال	تلوى وليس بديرهم رخصُ

ويعلق الدكتور محمد عبد العزيز الكفراوى بقوله: "والقارئ لمثل هذه  
الآبيات لا يعجب بهذه الشجاعة الأدبية فقط، بل يعجب أيضا بهذا الإدراك  
المبكر لحقوق الشعوب عند حكامها وولاة. انظر إلى البيتين الآخرين  
وكيف ينعسي فيهما على الحكام انتفاخ وجناتهم على حساب المحرومين  
من أفراد الرعية. وكيف يتحدث بلغة العصر الحاضر حين يعلن أن

هبوط الأسعار، وتكدس السلع في الأسواق ليسا دليلا على الرخاء مادام الناس لا يملكون تلك الدراهم المعنودة التي يحتاجون إليها في معاشهم<sup>(١)</sup>. أما موقف ابن المعتز من الشعوبية فيتضح من موقفه من علي بن يحيى بن علي المنجم الذي حاول التعريض بالعرب وبقرش خاصة متذعرا بالحجة التي كثيرا ما تذرع بها من تصدي لمهاجمة العرب، وهي أن الفضل بالدين وليس بسواه، ومدعيا أن الفرس من نسل إسحاق في أبيات يقول فيها:

يا بني هاجر وثب لكم	ما هذبه الكبرياء والمظمه
نار عثم الله ثوب عزته	فأشتم بإعسادكم أقمه
ألم تكن في القدم أمكم	لأمن سارة الجمال أمه
والملك فينا والأنبياء لنا	إن تكبروا ذاك توجبوا ظلمه
إسحاق كان الذبيح قد أجمع النـ	ناس عليه الإدعاء لـ
والأصرح الأصح الذي امتحن الـ	له أباء فيه وصان دمه
حتى إذا ما مُحْتَمَدُ أظهر الـ	حق وجلى بيوره ظلمه
فلثم قرش والفضل بالدين لا الـ	أنساب إن كنتم قرشا فـ
لست أبالي ما كنتم أقل كذباً	من جهل الحق بعد أو علمه
أما بنو يعرب فليسوا كمن	أسكنه الله أمناً حرته
ولا كأحرار فارس إذ هم الـ	أرؤس مثل الأسود في الأجمه
أيام كسرى يحميهم الجانب الـ	معمور إلا أن يأخذوا دمه

فأجابه عبد الله بن المعتز:

(١) عبد الله بن المعتز العباسي، (ص: ١١٦).

أسمع قولاً ولا أرى أحداً  
قولوا الكلب نوى بطنه  
إن بني هاجر الألي تركوا  
وزلوا أبيض المدائن فالت  
كنتم تيوساً تدمى مذبذبها  
حاشا لإسحاق أن يكون أباً  
وهل ينوه إلا لنا عديم  
غير من إسحاق خاتم الرسـ  
ما للخنازير من قراها أنـت  
إياه تعنون لا قريش سقى  
ما القريش ذنب سواه فلا  
هو النبي الذي به كسر  
يا أمة شر أمة أبدعت  
أما بثوب الإسلام مـر  
أو مفتد صاعر يجزيته  
فلتحرق من غليظ ضمائركم  
من ذا الشقي الذي أباح دمه  
قد فتح الليث للفراس فمه  
منكم أنوفاً بالجذع مصطلمة  
هد وحلت بأهله النقمه  
وهم لعمرى الأسود في الأجه  
وأن تكونوا كنتم بنيه فمه  
كم رق عبد منهم لنا وأمه  
ل أجلى بنوره الظلمه  
ذم نبي الهدى لتتضممه  
الله سيوفاً إليكم قرمة  
تجمعوا القول يا بني الأثمة  
الله رؤوس الأكاسر الظلمه  
دنيا عليه من الغلال سمه  
وفي حشاه من بعده ضرمه  
وفي قفاه الأكف محتكمه  
أخزاكم ذو الجلال والعظمه<sup>(١)</sup>

ولقد رد ابن المعتز على المنجم في قصيدة ومقطوعة غير القصيدة  
السابقة<sup>(٢)</sup> فقد فيها مزاعمه وأبطل دعواه، وحمل على الفرس حملة عنيفة لم  
كانوا يحملونه للعرب من حقد وحسد، رغم أن الكثيرين منهم كانوا يداهنون

(١) الديوان، (١/٧٢٣ - ٧٢٥).

(٢) انظر الديوان، الجزء الأول، (ص: ٦٤٥)، وما بعدها، ٧٠٩، ص ٦٢٠ وما بعدها.

ويتظاهرون بالولاء، ولكنهم كانوا في قرارة نفوسهم يتمزقون غيظاً وضغينة.

وواضح مما تقدم أن ابن المعتز قد احتفل كثيراً بالأحداث السياسية الإسلامية قديمها وحديثها، فهو في شعره السياسي وقف كالمحامي في وجه كل من أراد بالخلافة العباسية سوءاً فيرده على عقبه. ولكن ابن المعتز قد رصد جميع الأحداث السياسية بدرجة أكثر وبشيء من التفضيل في مزدوجته التاريخية في مدح المعتضد — فلنتاولها بشيء من التفصيل.

\*\*\*\*\*

### (المزدوجة التاريخية)

وتدخل هذه المزدوجة التاريخية تحت فن الشعر التعليمي والذي يعد اتجاهاً جديداً من اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دعا إلى وجوده انتشار التعليم وامتزاج الثقافات ودخول علوم ومعارف أجنبية إلى الفكر العربي. وسواء أكانت نشأته عربية خالصة أم بتأثير هندي أو يمني، فهو في نظرنا ليس فناً مؤثراً ولا شعراً خالداً وليس له من الشعر إلا اسمه<sup>(١)</sup>.

وابن المعتز في أرجوزته التاريخية يركز على تجلية عهد المعتضد وتمجيده ووصف جلال الدولة على زمانه، والإخبار عن حالتها قبله حيث اضطراب الأمن وشيوع الفاحشة، وانتقاد العدالة والاعتداء على أملاك الناس ومصادرة أموالهم والزج بهم في السجون دون سبب، والحق أن هذه

(١) اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري، (ص: ٣٩٣).

الأرجوزة تعتبر تاريخاً دقيقاً بجانبه السياسي والاجتماعي لعهد المعتضد بصفة خاصة والعصر العباسي بصفة عامة.<sup>(١)</sup>

ورغم أن الدكتور محمد غنيمي هلال يقول: "إن الشعر التعليمي نظم لا شعر"<sup>(٢)</sup> إلا أن ابن المعتز ضمن هذه الأرجوزة صوراً عديدة وقصصاً متنوعة استطاع أن يقنمها في صدق برواية فنان، وأسلوب شاعر، وفكر عالم، وقريحة مؤلف، ومع طول الأرجوزة فإن روح الشعر وموسيقاه لم تتخلها عنها في بيت واحد واستعراض الأرجوزة لا يغني عن قراءتها إذا أريد الاستمتاع بها والانتفاع بأحداثها.<sup>(٣)</sup>

وفي هذا الأرجوزة يقف ابن المعتز من المتغلبين على السلطان في بغداد والأقاليم موقف الحاكم الشرعي من مختلسي ملكه وغاصبي سلطانه، فالصغار لصوص محتالون، وآل طولون فراغنة مصر على عهد الشاعر، وصاحب الزنج "شيخ ضلال شر من فرعون" وإسحق البيطار "أعلم خلق الله بالماخور" ورأيه في ملوك الطوائف جميعاً وفي رجال الفتن والاضطرابات في كل مكان مدون بتفصيل ومهارة في كتابه "النفيس" أو أرجوزته المثيرة.

فلقد عرض ابن المعتز في هذا الأرجوزة لشؤون الدولة العباسية التي بلغت أقصى درجات الفوضى والانحلال في الفترة التي تقع بين مقتل المتوكل على الله عام (٢٤٧) للهجرة وتبوؤ المعتضد دسست الحكم عام

(١) الشعر والشعراء في العصر العباسي، د. الشكعة، (ص: ٧٨٨).

(٢) النقد الأدبي الحديث، (ص: ٣٨٢).

(٣) الشعر والشعراء في العصر العباسي، الشكعة، (ص: ٧٩٩).

(٢٧٩) للهجرة وإلى الإصلاحات التي قام بها هذا الخليفة فشرحها بإسهاب وعقب عليها بما يتفق ورايه في السياسة، إلا أن هذا لا يمنعنا من القول بأنه مخلص كل الإخلاص في تعقيبه على هذه الحوادث وأن الأعمال التي بسطها ونقدها وأنحى على القائمين بها باللوم الشديد والتقريع الممض لم تكن في الحقيقة سوى جرائم فظيعة ترتكب في سبيل تحقيق مطامع أثيمة وأغراض شخصية غير مشروعة.

ويبدأ ابن المعتز أرجوزته بمقدمة إسلامية بحثة تتضمن البسملة

والثناء على الرسل وعلى خاتمهم محمد (ﷺ)، يقول:

يَاسْمِ الْإِلَهِ الْمَلِكِ الرَّحْمَنِ	ذِي الْعِزِّ وَالْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ
أَحْمَدُ لِلَّهِ عَلَى آلِهِ	أَحْمَدُهُ وَالْحَمْدُ مِنْ نِعَمَائِهِ
أَبْدَعَ خَلْقًا لَمْ يَكُنْ فَكَانَا	وَأَظْهَرَ الْحُجَّةَ وَالْيَانَا
وَأَرْسَلَ الرِّسْلَ بِحَقِّ سَاطِعٍ	قَاهِرِ كُلِّ بَاطِلٍ وَقَامِعِ
وَجَعَلَ الْخَاتَمَ لِلنُّبُوَّةِ	أَحَدَ ذَا الشَّفَاعَةِ الْمَرْجُوَّةِ
الصَادِقِ الْمُهَذَّبِ الْمُطَهَّرِ	صَلَّى عَلَيْهِ رَبُّنَا فَأَكْثَرَا <sup>(١)</sup>

ثم يشير إلى أن هذا الكتاب في سيرة الإمام أبي العباس وهي كنية

المعتضد، الذي أقام الملك بعد أن ضاع وأصبح نهبا للطامعين مشاعا:

قَدْ كَانَتْ كِتَابَ سِيرِ الْإِمَامِ	مُهَذَّبًا مِنْ جَوْهَرِ الْكَلَامِ
أَعْنَى أبا الْعَبَّاسِ خَيْرِ الْخَلْقِ	لِلْمَلِكِ قَوْلُ عَالِمٍ بِالْحَقِّ
قَامَ بِأَمْرِ الْمَلِكِ لَمَّا ضَاعَا	وَكَانَ نَهْبًا فِي الزَّوْرِ مُشَاعَا <sup>(٢)</sup>

(١) الديوان، (٥ / ٢)، دار المعارف.

(٢) الديوان، (٦ / ٢)، المعارف.



ويأخذ في سرد ما كانت عليه أمور الملك من اضطرابات وانحلال في العهد الذي سبقه وما كان يقوم به الجيش وقواده من تدخل في الأمور، وعصيان ومطالبة مستمرة بالأرزاق حتى أفقروا الخلافة وأشاعوا فيها الرهبة والخوف وجروا على البلاد الدمار والخراب:

وَكُلَّ يَوْمٍ مَلِكٌ مَقْتُولٌ      أَوْ عَائِفٌ مُرَوِّعٌ ذَلِيلٌ  
وَكَمْ أَمِيرٌ كَانَ رَأْسَ جَيْشٍ      قَدْ نَقَضُوا عَلَيْهِ كُلَّ عَيْشٍ  
وَكُلَّ يَوْمٍ عَكْرًا فَعَكْرًا      بِالْكَرْخِ وَالْدُورِ مَوَاتًا أُخْرًا  
وَيَطْلُبُونَ كُلَّ يَوْمٍ رِزْقًا      يَزُولُهُ دِينًا لَهُمْ وَحَقًّا  
كَذَاكَ حَتَّى أَفْقَرُوا الْخِلَافَةَ      وَعَوَّدُوا الرُّعْبَ وَالْمَحَاقَةَ<sup>(١)</sup>

ويشير إلى العصاة والخارجين على الخلفاء من أمثال ابن طولون والعلوي صاحب صورة الزنج وغيرها:

فَمِنْهُمْ فِرْعَوْنُ مِصْرَ الْفَائِي      عَاصِي الْإِلَهِ طَائِفُ الشَّيْطَانِ  
وَالْعَلَوِيُّ قَاتِلُ الْقَسَاقِ      وَبَائِعُ الْأَحْرَارِ فِي الْأَسْوَاقِ  
وَالدُّلْفِيُّ الْقَوْدُ وَالْفَقَارُ      وَمِنْهُمْ إِسْحَاقُ الْبَيْطَارِ<sup>(٢)</sup>

وبعد أن يوجز أعمال هؤلاء الخارجين يشير إلى إغاثة أبي العباس

للفلس:

وَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ ذَابَ النَّاسِ      حَتَّى أَغِيثُوا بِأَبِي الْعَبَّاسِ<sup>(٣)</sup>

(١) الديوان، (٦/٢ - ٧).

(٢) نفسه، (ص: ٧).

(٣) نفسه.

ويستلرد في الحديث عن قضائه على الخارجين والناشرين ويذكر العلوي صاحب الزنج ويفيض في وصف أعماله وتخريبه وقتله للشيوخ والأطفال وعيئه في البلاد فسادًا وقضائه على الكثيرين من كبار قادة الخلافة:

قَلَمَ يَزَلْ بِالْعَلَوِيِّ الْخَسَائِنِ      الْمُهْلِكِ الْمَخْرَبِ الْمَدَائِنِ  
وَقَاتِلِ الشُّيُوخِ وَالْأَطْفَالِ      وَنَاهِبِ الْأَرْوَاحِ وَالْأَمْوَالِ<sup>(١)</sup>

حتى إذا كثّر فسادَه وظلمه وضج الناس من منكراته هيا الله له  
بطلا مغوارا هو المعتضد:

أَغْرَى بِهِ اللَّهُ هَزَبًا ضَيْقًا      إِذَا رَأَى أَقْرَانَهُ تَقَدَّمَا

ثم يمضى في الإشادة ببطولاته وحروبه وشجاعته، وما أوقعه في أعدائه.

وتستقر الأحوال وترسل مصر إليه الأموال، ويأخذ بالتقاء الجنود ويؤم بهم المخالفين والعصاة في عقر دارهم، فيخرج إلى الموصل ويضابق أحد العصاة وهو ابن عيسى بن شيخ.. وبعد هذه الحوادث المتتالية ينتقل ابن المعتز إلى الإشادة بعمل آخر من أعمال المعتضد المشهورة وهو تأخيرہ النيروز والخراج الذي خفف به الأعباء عن كواهل الشعب الذي كان يتعرض إلى صنوف المصادرات والتعذيب والإهانة من أجل تحصيل الأموال منه:

وَمِنْ أَيْادِهِ عَلَى الْكَبِيرِ      مِنْ الْعِيَادِ وَعَلَى الصَّغِيرِ  
تَأَخِيرُهُ النَّيْرُوزَ وَالْخَرَاجَا      وَكَوْ أَرَادَ أَخَذَهُ لِرَاجَا

ولم يقتصر ابن المعتز في أرجوزته هذه على ذكر الحوادث السياسية والحربية التي جرت أيام المعتضد فحسب، بل إنه وصف آثاره الأخرى ولاسيما "قصر الثريا" الذي كان يحتوي على عجائب وغرائب يدهش لها العقل:

فَمَنْ رَأَى مِثْلَ الثَّرِيَا قَصْرًا      كَمْ حِكْمَةٍ فِيهِ تُخَالُ سِحْرًا  
وَالْتَهَرَّ وَالْبُسْتَانُ وَالْبَحِيرَةُ      قَدْ جَمَعَ الْمَاءُ إِلَيْهَا طَيْرَهُ

وهكذا اشتملت هذه المزدوجة على وصف للنواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية في غضون القرن الثالث الهجري، وقد أبدع فيها الشاعر تصوير ما كان يتعرض له الناس من ضروب الإحن والشدائد، كما برع في وصف الفتن والوقائع براعة تشهد له بالتمكن والقدرة، واستطاع أن يلائم بين التاريخ ملائمة تشهد له بطول الباع في هذا الشأن<sup>(١)</sup>.  
"إن هذه الأرجوزة تسجل لابن المعتز مسبقاً آخر في ميدان موضوعات الشعر العربي وهو الشعر التعليمي، والحق أن هذا الحكم لا يصدر عن اجتهاد، فابن المعتز ليس شاعراً فحسب، وإنما هو عالم ناقد بلاغي مؤرخ ذو تأليف عديدة تضعه في صف كبار العلماء تماماً كما وضعه فقه الشعري في مكان الصدارة بين نوابغ الشعراء"<sup>(٢)</sup>.

(١) من حديث الشعر والنثر، (ص: ١٦٢).

(٢) الشعر والشعراء، الشكعة، (ص: ٧٩٩).

## شعر الحكمة

لعل شعر الحكمة والزهد هو أكثر أبواب ديوان ابن المعتز تأثراً بثقافته الإسلامية، فإذا ما أمعنا النظر في هذا الشعر وجدنا ابن المعتز المسلم التقى الورع، الذي يرى أن الشيب علامة من علامات قرب الأجل، وأن الموت حق ويجب العمل من أجل ما بعده، وأن النفس لأماراة بالسوء يجب أن تكبح جماحها وتتحكم في شهواتها وأهوائها، وأن الدنيا دار غرور وابتلاء، فيجب ألا نركن عندها، وأن نعرف أنها دار عمل إلى دار الحساب، وأنها مهما تجملت وتزينت فهي فانية زائلة.

من هذا الباب الواسع في الشعر ينبغي أن ندخل على ابن المعتز العباسي السني المسلم لنشاركه في تأملاته ونظراته والتي يلفها في أبيات جميلة مؤثرة من الحكمة، حتى إن الدكتور مصطفى الشكعة يرى: "أن ابن المعتز تلميذ أمين في كل ما قال في هذا السبيل لأبي العتاهية فهو يكاد يكون صورة صادقة منه في زهدياته".<sup>(١)</sup>

فهل كان ابن المعتز زاهداً أم حكيماً ؟

فالدكتور محمد مصطفى هدارة يرى: أن هناك فرق بين الزهد والحكمة، يقول: "ويجب منذ البداية أن نوضح الفرق بين شعر الحكمة وشعر الزهد، فعلى الرغم من التقائهما في ناحية أو أكثر إلا أنهما يفترقان افتراقاً واضحاً، فالزهد مذهب في الحياة له قواعده ورسومه الخاصة، وله

(١) الشعر والشعراء في العصر العباسي، (ص: ٧٦٢).

ملايمه وفرائضه. ويفترض في متبعي هذا المذهب أن يتجردوا لله ويعكفوا على صلواتهم في خلوة من البشر متجردين من الترف وزخرف الدنيا، ولا يبتغون عرضاً من أعراضها، ولا مطلباً من مطالب الحياة الفادية التي يقبل عليها الإنسان العادي.

أما الحكمة فهي - إن لم تكن تجربة ذاتية - مذهب في الشعر لا في الحياة ينظم فيه صاحبه بتأثير نظرة فلسفية للكون وحقائق الأشياء فيه بحكم ثقافته أو تكوينه الفكري، ولا يطلب منه شيء وراء ذلك فليس هناك قواعد ولا رسوم معينة للشعراء الحكماء وليست هناك فرائض عليهم أداؤها، ولا أي تقليد آخر مثلاً يفترض في الزهد.

ولهذا لا نستغرب إن وجدنا من الشعراء الذين يملأون شعرهم بالحكمة والأمثال والآداب والمواعظ زنديقاً وفاسقاً أو ما أشبه؛ لأن هذا لا يافي ذلك.<sup>(١)</sup> ولكن هذا تفريق بين شاعر الزهد وشاعر الحكمة وليس بين شعر الزهد وشعر الحكمة، لأننا لو طالعنا قطعة شعرية من هذا الباب هل يجب أن نبحث عن سلوك صاحبها أولاً حتى نحدد تحت أي باب ندرجها، تحت شعر الحكمة أو للزهد؟ قد نصدق هذا الأمر لو أننا وجدنا بيتين أو أبيات من الحكمة في قصيدة من قصائد الغزل أو الشراب أو في أغراض أخرى كأبيات الحكمة التي وردت في معلقة زهير مثلاً والتي منها نقول إن زهيراً كان حكيماً، أما أن نجد مقطوعات شعرية بأكملها في هذا الباب فهو ما يجب أن نتروى ونحن نخلع عليه التسمية، فلو قلنا على هذا الشعر زهد فقد خالطناه بشعراء زهاد غير مسلمين، وإن قلنا حكمة فما أكثر الحكماء

(١) اتجاهات الشعر في القرن الثاني، (ص: ٤٧٤).

## ٢٠٩ الحضارة والموضوعات الشعرية

على ظهر البسيطة!، ولكن ما أجدرنا أن نقول إنه شعر الروح الإسلامية، حتى إننا لو قلنا في ديوان أبي العتاهية الذي يعد الزاهد الأول، في العصر العباسي لوجدنا أن معظم أشعاره متأثرة أشد الأثر بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية المطهرة<sup>(١)</sup> فينبغي أن ننظر إلى هذا الشعر على أنه شعر لشعراء مسلمين، بحيث أن الشعراء غير المسلمين لن يستطيعوا قوله. فإذا نظرنا إلى شعر ابن المعتز في هذا المجال بهذه الروح وجدنا تلك النظرة الإسلامية البحتة للكون والحياة.

فالشيب عند ابن المعتز إنذار لصاحبه بأن يعمل ويجد؛ لأنه سفير الموت وهو مرحلة ما قبل الموت، يقول ابن المعتز:

ظَلَمْتُ إِذَا طَالَيْتُ شَيْئًا وَقَدْ فَاتَا      لِقَابِلُ شَيْئًا بِالْخِصَابِ وَهَيْهَاتَا  
وَقَالُوا أَمْرٌ قَدْ شَابَ وَابْيَضَ رَأْسُهُ      وَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ يَقُولُوا أَمْرٌ مَا<sup>(٢)</sup>

فبدلاً من أن تخضب الشعر ونخدع أنفسنا نسأل أن يستره من النار؛ لأن الشيب لن يرحل إلا برحيل صاحبه، يقول:

يَا خَاضِبَ الشَّيْبِ بِالْخِثَاءِ يَسْتُرُهُ      سَلِّ إِلَهَ مِسْرًا مِنَ الثَّارِ  
لَنْ يَرْحَلَ الشَّيْبُ عَنْ دَارٍ يَحُلُّهَا      حَتَّى يَرْحَلَ عَنْهَا صَاحِبُ الدَّارِ<sup>(٣)</sup>

وما دام الشيب نذيراً للموت فينبغي أن نقف مع نفوسنا وقفة نجبرها على ترك الذنوب والتوبة إلى الله، يقول ابن المعتز:

أَيَا نَفْسٍ قَدْ أَتَقَلَّبْتَ بِذُنُوبٍ      أَيَا نَفْسٍ كُفَّ عَنْ هَوَاكَ وَكُوبِ

(١) اتجاهات الشعر في القرن الثاني، (ص: ٤٧٤).

(٢) الديوان، (٣٨٦/٢)، دار المعارف.

(٣) الديوان، (٤٠٢/٢)، المعارف.

وَكَيْفَ التَّصَابِي بَعْدَمَا ذَهَبَ الصَّبَا وَقَدْ مَلَّ مِقْرَاضِي عِقَابَ مَشِيي<sup>(١)</sup>  
ثم يرفع صوته مخاطبا نفسه يؤدبها ويلومها ويدعوها إلى التوبة

يقول:

يا نفسي ما الدهر إلا ما علمت فكم يا نفسي ما الدهر إلا ما علمت فكم  
إياك إياك من سوف فكم خدعت إياك إياك من سوف فكم خدعت  
إذا دعيت إلى التقوى صممت وإن إذا دعيت إلى التقوى صممت وإن  
توفي يكن لك عند الله جاه تقى توفي يكن لك عند الله جاه تقى  
يا والهدا لليلي حث المشيب به يا والهدا لليلي حث المشيب به  
لا يعجبك سلطان ومقدرة لا يعجبك سلطان ومقدرة  
أين الملوك الأولي كانوا وما جمعوا أين الملوك الأولي كانوا وما جمعوا

ثم يحث نفسه على الرضا وترك الأمانى؛ لأن الموت يجرف جميع

الأمانى أمامه، يقول:

ألا يا نفسي إن ترَضِي بِمَوْتٍ وَأَنْتَ عَزِيزَةٌ أَبَدًا غَنِيهِ  
دَعِي عَنْكَ الْمَطَامِعَ وَالْأَمَانِي دَعِي عَنْكَ الْمَطَامِعَ وَالْأَمَانِي  
فَكَمْ أَمْنِيَّةٌ جَلَّتْ مَنِي<sup>(٢)</sup> فَكَمْ أَمْنِيَّةٌ جَلَّتْ مَنِي<sup>(٢)</sup>

ثم يشتد وعيده وإنذاره، فالموت قادم بين لحظة وأخرى وما نحن إلا غرباء  
فى هذه الدنيا، يقول:

أَفَقْ عَنَّا حَالَتِ كَبِيرَةٌ وَمَشِيبُ أَمَا لِلشَّقَى وَالْحَقِّ فِيكَ نَصِيبُ  
أَيَا مَنْ لَهْ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ مَنَزَلٌ أَتَأْتِسُ فِي الدُّنْيَا وَأَنْتَ غَرِيبُ

(١) نفسه، (٢/ ٣٨٠).

(٢) الديوان، (٢/ ٤١٨). المعارف.

(٣) الديوان، (٢/ ٤٢٤).

يرى المرء عيب الذنب حين يصيبه      وليست له من قبل ذلك عيوب  
وما الدهر إلا مثل يومٍ وليلةٍ      وما الموت إلا نازلٌ وقريبٌ<sup>(١)</sup>

ثم يتحسر ويتألم ويقر ويؤكد تلك النهاية بهذا السفر الذي لا يعود بعده، وبهذه الوحدة التي لا جمع بعدها، وبهذه المسكرة التي لا شراب بعدها. يقول:

آه من سكرةٍ بغيرٍ إياب      آه من حسرةٍ على الأحياب  
آه من مضجعي فريداً وحيداً      فوق قرشي من الحصى والثراب  
آه من سكرةٍ بغيرٍ شراب      آه من وثبةٍ بغيرٍ ركاب<sup>(٢)</sup>

وما دام الأمر كذلك فينبغي ألا نقف عند الدنيا مهما تجملت وتزينت؛ لأن أصدقائها وطلابها تعدم أهدافاً للنائبات، يقول:

يا لهف نفسي كثيرة اللهف      بقاؤها مشرف على التلف  
حار بها عن سرورها زمن      أصبح لها بكل ذي شرف  
دنيا تبدت في زى دائم العهد      ألوف تصيد ذا الكلف  
فقلت لها لما رأيت مجتهدا      إليك عني فعنك منصرفي  
ما أنت من همي ولا أملئ      ففارقيني إن شئت أو فقفي  
لا أشتهي خلة مواصلها      منها مقيم على شفا جرف  
أقرب ما كان من مهالكها      ليلة يمسي منها على شغف  
تقفى ابنها دائماً يحدها      وهو رهين الأحلاق والخرف  
إذا تفكرت في تلونها      أيقنت منها بسرعة الخلف

(١) نفسه، (٣٧٧/٢).

(٢) نفسه، (٣٨١/٢).



تطلب دين الفسق فيذله لها ولا ينطوي على أسف  
أي صديق لها وأي أخ لم يحس للنائبات كالحمد  
صرفت عنها الهوى وشرته ولم يأو منها ودي إلى كف<sup>(١)</sup>

وبعد هذه الجولة الصغيرة بين الشيب والنفس والموت وبين الدنيا  
نلمح الكثير من الحكم في شعر ابن المعتز في "مظاهر الحضارة المعنوية  
في شعره" في الباب الأول حيث أن معظم هذه الحكم يعبر أشد التعبير عن  
تلك الروح الإسلامية. نراه مثلاً متأثراً بالقرآن: "وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو  
خير لكم"، يقول:

رُبَّ أَمْرٍ تُثْقِيهِ جَزْراً أَمراً تَرْجِيهِ  
خَفِيَ الْمَحْبُوبُ مِنْهُ وَبَدَا الْمَكْرُوهُ فِيهِ  
فَاتَرَكِ الدَّهْرَ وَسَلَّمْهُ سَهْلاً إِلَى عَدْلٍ يَلِيهِ<sup>(٢)</sup>

ويتحدث عن المحافظة على المال، يقول:

يَا رَبَّ جُودٍ جَزْراً فَقَرَّ امْرئٍ فَقَامَ لِلنَّاسِ مَقَامُ الدَّلِيلِ  
فَاشْدُدْ عُراً مَالِكَ وَاسْتَقْبِهِ فَالْبُخْلُ خَيْرٌ مِنْ سَوَالِ الْبَخِيلِ<sup>(٣)</sup>

ويتحدث عن حاجة الحر، فيقول:

أشد من عاصف الرياح تدوم ليلاً إلى الصباح  
ومن سياط لها فيب تسرع في القلب كالقذاح  
ومن نزال بمرهفات ومن جراح على جراح

(١) الديوان، (٤٠٦/٢)، دار المعارف.

(٢) الديوان، (٤٢٣/٢)، ط دار المعارف.

(٣) نفسه، (٤١٤/٢).

حاجة حر يلبس بضر وبذل وجهه إلى وقاح<sup>(١)</sup>

ويقول في صيانة الوجه من الناس:

أشهى من القهوية والكاسي علي نسيم الورد والآسي

ومن كحيل العين مياس من جاذ بالفقر على ياسي

برغم حجاب وخراسي صيانة الوجه عن الناسي<sup>(٢)</sup>

ويقول في طلب الحاجة:

فلا تسألن إمراً حاجة يحاول من رها مثلها

فرك ما كنت حلتها ويبدأ بمحاجته قبلها<sup>(٣)</sup>

لكن مهما أوردنا هنا من الحكم لن تغني عن تصفح هذا الباب من

ديوانه والذي نجده متأثراً فيه بثقافته الإسلامية الواسعة وتجاربه الذاتية.

(١) نفسه، (٣٨١/٢).

(٢) الديوان، (٤٠٤/٢)، طبعة دار المعارف.

(٣) نفسه، (٤١/٢).

## الغزل

لعل الغزل من الفنون الشعرية التي ظهر عليها آثار التغير عما سبقه من عصور، وذلك نتيجة للأجناس المختلفة الذين قامت عليهم الحضارة، فلم يعد شاعر العصر العباسي يتغزل في المرأة الحرة كما كان الشأن غالباً عند شعراء العصر الأموي، فقد خرجت تلك المرأة من سوق الغزل وحل محلها الجواري والإماء، وكان ذلك سبباً في أن يخرج الشاعر عن دائرة العفة والطهر، أو قل عن دائرة الوقار والإجلال للمرأة إلى دائرة الإباحية المسرفة والصراحة المكشوفة التي لا تعرف حياء ولا ما يشبه الحياء<sup>(١)</sup>.

" حقيقة أن العرب عرفوا الأدب المكشوف في الجاهلية، وعرفوه في العصر الإسلامي، فقد كان للأعشى وسحيم وامرئ القيس وطرفة شعر في الخمر وفي الغزل الحسي، ثم كان الأخطل في العصر الأموي صاحب خمر وخمریات، وكان عمر بن أبي ربيعة يتغزل في العصر الأموي غزلاً حسياً، وكان للوليد بن يزيد خمر وفحش.

لكن هؤلاء كانوا قلة ضئيلة، وكانوا في أكثر الأحوال يتحذرون في ألفاظهم وتعابيرهم وقلما اصطعنوا التصريح الذي تنقزز منه النفوس<sup>(٢)</sup>. أما في العصر العباسي فقد كان عدد المجان كبيراً؛ وكانوا

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي، د. شوقي ضيف، (ص: ٦٤).

(٢) تيارات ثقافية بين العرب والفرس، د. أحمد الحوفي، (ص: ٢٠٦).

يعتمدون إلى اللفظ العاري، والتعبير المكشوف والوصف المفصل. فهل كان هذا نتيجة محتومة لتطور المجتمع في نظم حياته ووسائل ترفيهه وتراثه الواسع؟ أو كان نتيجة لاختلاط الفرس بالعرب وكثرة الموالى والإماء، وما نقله الفرس إلى العرب من دروب اللهو والترف؟ الحق أنه كان نتيجة محتومة للأمرين معاً.<sup>(١)</sup>

هذا بالإضافة إلى أن المرأة التي هي مدار شعر التغزل قد تغيرت كل التغير فهي في الغالب أمة فارسية أو رومية أو روسية أو هندية أو غير ذلك من أجناس أولئك الإماء المنتشرات في أرجاء العالم الإسلامي وهي مكشوفة الوجه تخالط الرجال وتجلس إليهم وتغدو وتروح في غير تحرج، هذا إن لم تكن مبتذلة تعيش في بيت من بيوت القيان.<sup>(٢)</sup> ولذلك اكتشف فجأة معنى المجانية في العاطفة العشقية.<sup>(٣)</sup>

أما المرأة قبل هذا القرن فكانت في الغالب عربية حرة مستترة في بيتها لا يفارق الحجاب وجهها، ممنعة بين أهلها، لا تكاد تخالط أحد أو تجد الحرية في تصرفاتها.. وهذا الخلاف في الواقع له تأثير كبير على تطور التغزل؛ لأنه غير مقابيس الجمال عند الشعراء تغييراً واضحاً، وكيف لا يحدث هذا التغير وهناك فرق كبير بين العربية والرومية والفارسية أو الهندية في الملامح واللون والقَد وفي كل ما يميز المرأة ويحدد جمالها

(١) نفسه، (ص: ٢٠٧).

(٢) اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري، (ص: ٥٣٠).

(٣) الغزل عند العرب، القسم الأول: ج، ك، فانيه ترجمة: د. إبراهيم الكيلاني، (ص: ٣٣٧).

كذلك كان له تأثير آخر أخطر من ذلك - كما قلنا - ظهور الغزل الفاحش المتهتك الذي لا يرعى حرمة المرأة أو يصونها <sup>(١)</sup>.

أما الغزل عند عبد الله بن المعتز فكما يقول النميري: "كان عبد الله ابن المعتز يعيب العشق كثيرا إلى أن صار يقول: "هو طرف من أطراف الحق وإذا رأى منا مطرقا أو مفكرا، اتهمه بهذا المعنى، ويقول: وقعت يا فلان، وقل عقلك وسخفت" <sup>(٢)</sup>.

ولكن يبدو أن ابن المعتز قل عقله وسخف أيضا، فنجد له بعض المقطوعات الغزلية والتي يركز فيها عواطفه ويبث شكواه وينشد أمانيه <sup>(٣)</sup> ولكن ليس فيها من مكابدة ولوعة وصباية، ولذلك فإننا لا نقتنع بصديق ابن المعتز فيها وبالتالي فنحن لا نستطيع أن ننظمه في سلك العاشقين، ولكنه غزل المترفين الذين يتنقلون بين قلوب الغانيات يصورون مشاعر طارئة أو مغامرات متكررة <sup>(٤)</sup> فكل ما عند ابن المعتز في الغزل هو رقص على إيقاع الزمان الذي يعيش فيه.

فدراه يشارك في الغزل بكل ما فيه، فنجد في شعره بعضا من الغزل الفاحش وهو رغم قلته موجود فكأنه قد أصيب بداء العصر، يقول:

كَمْ لَيْلَةٍ شَقَلْتُ الرُّقَادُ غَدُولَهَا      عَنْ عَاشِقِينَ تَوَاعَدُوا لِلْقَاءِ  
عَقْدًا عَنَاقًا طَوَّلَ لَيْلِهِمَا مَعًا      قَدْ أَلَصَقَا الْأَحْشَاءَ بِالْأَحْشَاءِ <sup>(٥)</sup>

(١) اتجاهات الشعر، (ص: ٥٣٢).

(٢) الديارات، لأبي الحسن الشاهسني، (ص: ٧٧).

(٣) شعر ابن المعتز، القسم الثاني، يونس السامرائي، (ص: ١٩٧).

(٤) الشعر والشعراء في العصر العباسي، (ص: ٧٦١).

(٥) الديوان، (٣١١/١)، طبعة دار المعارف.

أو يقول:

قَدْ وَلَيْتَ دِيوَانَا جَارِيَةً      نَدْخُلُ مِيلَيْنِ مَعًا فِي مُكْحَلَةٍ  
عَقِيقَةُ الْكَفِّ وَلَكِنْ ذَبْرُهَا      يَسْرِقُ مَا كُلُّ يَوْمٍ قَيْشَلَةٍ<sup>(١)</sup>

وإذا كانت المرأة العربية الحرة قد تراجعت في الغزل وحلت محلها القيان والجواري كما قلنا، نجد أن ابن المعتز يعبر لنا عن حبه لقينة ولكنه غير خائف من مقابلتها، هذا بخلاف العربية الحرة والتي كانت على الدوام (حوها الأسيف في أيدي الحرس) يقول:

لَقَدْ عَرَضَتْنِي بِالسُّحُولِ قَيْسَةً      أَبِي اللَّهِ إِلَّا أَنْ أَكُونَ بِهَا صَبَا  
فَقُمْ يَا رَسُولِي فَالْقَهَا غَيْرَ عَائِفٍ      فَإِنِّي قَدْ اسْتَمَكْتُ مِنْ لَحْظِهَا حَيَا<sup>(٢)</sup>

حتى عندما أحب مظهرا الإخلاص في حبه لم يحب - وهو ابن الخليفة - إلا جارية تسمى "شر" والتي فيما يبدو إحدى جواري المغنية المعروفة "شارية" فقد جاء في أخبار شارية هذه قول أبي الفرج: "وكان المعتمد قد تعشق "شرا" جاريته، وكانت أكمل الناس ملاحظة وخفة روح، وعجز عن شرائها فسأل أم المعتز أن تشتريها له، فاشتريته من "شارية" بعشرة آلاف دينار وأهدتها إليه، ثم تزوجت بعد وفاة المعتمد بابن البقال وكان يتعشقها"<sup>(٣)</sup>.

وقد قال ابن المعتز فيها أشعارا كثيرة، وأشار إلى زواجها من ابن البقال متمنيا طلاقها منه:

(١) أشعار أولاد الخلفاء، (ص: ١٤١).

(٢) الديوان، (٣١٧/١)، طبعة دار المعارف.

(٣) الأغاني، (١٢/١٦)، دار الكتب.

أَقُولُ وَقَدْ ضَاقَتْ بِأَحْزَانِهَا نَفْسِي      أَلَا رَبُّ تَطْلِيْقِي قَرِيبٌ مِّنَ الْفَرَسِ  
لَنْ صِرْتُ لِلْبَقَالِ يَا شَرُّ زَوْجَةٍ      فَلَا عَجَبٌ قَدْ يَرُبُّضُ الْكَلْبُ فِي الشَّمْسِ<sup>(١)</sup>

هؤلاء القيان كن على الأكثر مغنيات يمتعن حاسة السمع والبصر بحلاوة أصواتهن وجمالهن ورقتهن ولذلك نظم الشعراء شعر الغزل تلبية لحاجات الناس الوجدانية وحاجات المغنين والمغنيات من المقطوعات التي كانت توقع على الآلات والمعازف الموسيقية، ولذلك تطلبها دائماً دور القيان والطرب، وكان الشعراء يختلفون إلى هذه الدور لسماع الغناء في أشعارهم ولمغازلة الجواري والإماء.

ونجد ابن المعتز يلبي احتياجات هؤلاء القيان من المقطوعات الغزلية وذلك فيما يرويه صاحب الأغاني عن زرياب المغنية قالت: "زرت عبد الله بن المعتز في يوم السَّعَانِين، فسرُّ بورودي وصنع من وقته لحناً في شعر عبد الله بن العباس الربيعي الذي له فيه هَزَجٌ وهو:

أَنَا فِي قَلْبِي مِنَ الظَّيِّ كَلُومٌ      فِدَعِ اللُّومُ فَإِنَّ اللُّومَ لَوُمٌ  
حَيْلًا يَوْمَ السَّعَانِينِ وَمَا      نَلْتُ فِيهِ مِنْ سُرُورٍ لَوْ يَدُومُ

قالت: فصنع عبد الله ابن المعتز في البيت الثاني، وبعده بيت

أضافه إليه هزجاً وهو:

زَارَنِي مَوْلَايَ فِيهِ سَاعَةٌ      لَيْتَهُ وَاللَّهِ مَا عَشْتُ يُقِيمُ<sup>(٢)</sup>

(١) الديوان، (٤٥٠/٢)، طبعة دار المعارف.

(٢) الأغاني، (١٠ / ٢٧٨ - ٢٧٩)، طبعة دار الكتب.

هؤلاء القيان أيضًا \* كان منهن من يتقن نظم الشعر، ومنهن من  
كن يطارحن الشعراء في أغاني الحب وأنشيده، ولعبن دورًا واسعًا في دفع  
المجتمع العباسي نحو الصبابة والعشق<sup>(١)</sup>.

ومن ذلك ما يرويه صاحب الأغاني عن ابن المعتز قال: "كانت خزامى  
جارية الضبط المغنى تتادمني، وأنا حدثٌ ثم تركت النبيذ. وكانت مغنية  
محسنة شاعرة ظريفة. فراسلتها مرارًا فتأخرت عني، فكتبت إليها:

رأيتك قد أظهرت زهدًا وتوبةً      فقد سمجت من بعد توبتك الحمر  
فأهديت وردًا كي يذكر عيشةً      لمن لم يجمعنا بهجتها الدهر

فأجابت:

أتاني قريضٌ يا أميري محبرٌ      حكى لي نظم الدر فصل بالشد  
أنكرت يابن الأكرمين إنسابي      وقد أفصحت لي السن الدهر بالزجر  
وآذني شرح الشباب بينه      فيا ليت شعري بعد ذلك ما عدري<sup>(٢)</sup>

ومن أثر الحضارة على الغزل - بالإضافة إلى ما سبق - يسر

المقابلة بين المحبين. يقول ابن المعتز:

يا هلالاً يدور في قلبك الما      ورد رفقاً بأعين التظاره  
قف لنا في الطريق إن لم نرنا      وقفةً في الطريق نصف الزبارة<sup>(٣)</sup>

ومن يسر المقابلة إلى التراسل بينهم بالوسائل المختلفة فأحيانًا

تكون المراسلة صحيفة مكتوبة. يقول ابن المعتز:

(١) العصر العباسي الثاني، (ص: ٢٢٢).

(٢) الأغاني، (١٠ / ٢٨٤ - ٢٨٥)، الشذر، خرز تفصل به الجواهر في النظم.

(٣) الديوان، (٢ / ٣٦١)، طبعة دار المعارف.



## التراسل

أهدت إليّ صحيفةً مكتوبةً أرحت بها سخط الضمير العائب  
يا ليتني ضمنت طيَّ جوابها حتى أقبل كفَّ ذاك الكاتب<sup>(١)</sup>

وأحياناً تعطر الرسائل بالمسك:

وآثارٍ وصلٍ في هوائك حفظتها تحيات زيمانٍ وعطراتٍ تفاح  
وكُتبٍ لطافٍ ثربها المسك أدرجت على وصفٍ أحزانٍ وتغليبٍ أرواح<sup>(٢)</sup>

وأحياناً يكون التراسل بالتفاح المعضوض:

تفاحاً معضوضاً كانت رسول القبل  
لو كان فيها وجنة تقبّلت بالحجل  
تناولت كفاي بها ناحة من أجلي  
لست أرجي غير ذا يا ليت هذا دام لي<sup>(٣)</sup>

ومن التراسل إلى الإهداء بالورد. يقول:

أهدت إليّ يدَ نفسي الفداء لها الورد نوعين مجموعين في طبق  
كان أبيضه وسط أحمره كواكبٍ أشرقت في حمرة الشفق<sup>(٤)</sup>

وكانوا يتشاعمون من الإهداء بالأنرج "الليمون"، يقول:

أنرجة قد أنك برأ لا تقبلنّها إذا بررتا  
لا تقبلن برّها فإني وجدت مقلوبها هجرتا<sup>(٥)</sup>

(١) الديوان، (١/ ٣٢٠)، طبعة بغداد.

(٢) الديوان، (١/ ٣٢٠)، طبعة بغداد.

(٣) نفسه، (١/ ٤٠٤).

(٤) الديوان، (٢/ ١٩٣)، طبعة دار المعارف.

(٥) الديوان، (١/ ٣٢٧)، طبعة بغداد.

وأحيانا ما يخون الرسول بين المحبين مما يؤدي إلى سوء  
المعاملة بينهم. يقول ابن المعتز:

غناء المحب طویل طویل      وصبر المحب قليل قليل  
وذلكت رسل الموى لا تقا      ل وكم من محب نفاة الرسول  
أمانت بي الظن يا سيدي      وما سوء ظن بمثلي جميل  
إذا أنا خنت فمن ذا يقي      أتدري فديتك ماذا تقول<sup>(١)</sup>

وأحيانا يتمتع الحبيب عن كتابة الرسائل لحبيبه. يقول:  
لمتني يا مسيء والذنب ذنبك      ويح نفسي حسيك اللئيم  
لا تحاول بحسبك قلبي      قد تولى الفراق قلبي فحسبك<sup>(٢)</sup>

وأحيانا تكون النظرات هي وسيلة الاتصال بين المحبين، يقول ابن  
المعتز:

وقامت تاجيني خلال عيونهم      بعيني ودود القلب أو متودد<sup>(٣)</sup>

وقد استمر الغزل بالذكر وحب الغلمان في هذا العصر امتدادا  
للعصر الذي سبقه فقد أدى وفرة الجوارى وشيوع التهلك والخلاعة بينهما  
وتيسر الحصول عليهن بأهون سبيل، كل ذلك دفع بعض الرجال إلى الزهد  
في المرأة ومحاولة اقتناص اللذة من سبيل آخر يرضي شهواتهم التي  
توجبها مظاهر الترف والفراغ ووفرة الثراء في مجتمعهم، يضاف إلى  
ذلك مجالس الشراب التي شاعت في مختلف الطبقات وكان سقاتها من

(١) الديوان، (١/ ٣٢٧)، طبعة بغداد.

(٢) نفسه، (٢/ ٣١٨)، طبعة دار المعارف.

(٣) الديوان، (١/ ٤٥)، طبعة بغداد.

فتيان الفرس والروم الذين دربوا على هذا العمل خير تدريب، وكانوا على جانب كبير من الجمال والخلاعة في الوقت ذاته، وحينما كانت الخمر تسور في رؤوس الشاربين كانوا يتغزلون في أولئك السقا، ويخمشونهم ويحاولون مواصلتهم بأي سبيل، ولهذا نجد كثيرا من شعراء الغزل بالذكر يدور حول هؤلاء السقا<sup>(١)</sup> ومن الإتصاف أن نقول: إلى الغزل بالذكر بدعة ظهرت في العصر العباسي نتيجة لعوامل متعددة من زندقة وإباحة وانحلال خلقي، وكثرة الغلمان والمخنثين، وولع أبناء الفرس بهم، وإسفافهم في التغير عن عواطفهم المريضة بشعر عربي، ولا ننكر أن بعض العرب حاكوهم في كلفهم بالغلمان والتغزل بهم كما يتغزلون بالإثنا<sup>(٢)</sup> فحب الغلمان والتغزل بهم واللواط معهم أثر من آثار الفرس في العصر العباسي ولولا الفرس لما سرى هذا الداء إلى العرب؛ لأن العرب قوم بدويون، وهذا الشذوذ لا يمكن أن ينتج من البادية الخشنة الفطرية إنما نشأ هذا الخنث بين أحضان النعيم والترف.

إن نظرة تاريخية لهذا الأمر تثبتنا أنه كان شائعا في المذنيات القديمة، وقد ظهر على أرجح الأقوال في أواسط آسيا وانتقل إلى جزيرة كريت، والميثولوجيا اليونانية تعطينا أمثلة من هذا الاتصال الجنسي بين الآلهة. وفي أسبانيا كان هذا الاتصال محرما على العبيد وكانوا يعاقبونهم عليه؛ لأنه كان معتبرا نوعا عاليا من أنواع اللذة لا يجوز للعبيد أن يستمتعوا بها.

(١) اتجاهات الشعر، (ص: ٥٤٦).

(٢) تيارات ثقافية بين العرب والفرس، (ص: ٢١٢).

وفي كريت كان يجوز للرجل أن يتزوج غلام في حفل رسمي حاشد، وكان ينظر إلى الشباب الذي تعدى سن المراهقة، ولم يرتبط بغلام كما ينظر إلى العانس التي تعدت السن الصالح للزواج<sup>(١)</sup>.  
المهم أن هذا المرض الاجتماعي وقد مع وفود الأجناس الأجنبية على العرب وفي غياب عن الرقابة الدينية.  
ويأبى ابن المعتز إلا أن يشارك في كل عرض شعري حتى في هذا المرض المخزي والمزري بكرامة الرجل، فنراه يتغزل في العديد من الغلمان، يقول في أحدهم:

مَضَيْتَ فَكَمْ دُمْعَةً لِي عَلَى — لَكَ تَجَرِي وَكَمْ نَفْسٍ يَصْعَدُ  
وَجِئْتَ فَحُبِّي ذَاكَ الَّذِي — عَهْدُهُ كَمَا هُوَ لَا يَنْفَدُ  
فَهَلْ لَكَ فِي أَنْ تُعِيدَ الْوَصَا — لَ فَاَلْعَوْدُ أَحَدٌ يَأْخُذُ

ويقول فيه أيضاً :

يَا عَاذِلِي فِي لَيْلِهِ وَتَهَارِهِ — خَلَّ الْهَوَى يَكْوِي الْمَحَبُّ بِنَارِهِ  
وَيَحِ الْمَتِّيمَ وَيَحُ مَاذَا عَلَى — عُدَّالِهِ مِنْ ذَنْبِهِ أَوْ عَارِهِ  
يَا حَسَنَ أَحَدٍ إِذْ عَدَا مُتَشَمِّراً — فِي قُرْطُقٍ يَمْشِي بِكَاسِ عَقَارِهِ  
وَالْقَصْنُ فِي أَثْوَابِهِ وَالْدُرُّ فِي — قَمِيهِ وَجِدُّ الظُّلِيِّ فِي أَزْدَارِهِ  
لَكِنَّهُ قَاسٍ كَلْدُوبٌ وَعَدُهُ — نَائِي الْمَرَارِ عَلَى دُنُوِّ جَوَارِهِ  
مَا كَانَ أَحَدَقْنِي بِهَجْرَةٍ مِثْلِهِ — لَوْلَا مَلَاخَةٌ خَذَتْهُ وَعِدَارُهُ<sup>(٢)</sup>

ويقول في آخر:

(١) مقارنة بين الشعر الأموي والعباسي، (ص: ٢٩٢ - ٢٩٣).

(٢) الذنوبان، (١ / ٣٦٢)، طبعة بغداد.

وَيْحَ نَفْسِي مِنْ حَيِّبٍ      لِقَاضِي الْقَهْدِ مَلُولٍ  
 طَمَعِي إِنْ سِي فَاتِرِ الْأَلِ      حَاطِ ذِي جَفْنِي كَحَمَلٍ  
 عَثَرُوا عَارِضَةً بِأَلِ      مَبْكٍ فِي عَذِّ أَسِيلِ  
 تَحْتَ صُدُغَيْنِ يُشِيرَا      نَ إِلَى وَجْهِ جَمِيلِ  
 عَيْدِي الشُّوقُ إِلَيْهِ      وَالتَّنَاسِي عِنْدَهُ لِي<sup>(١)</sup>

وكثيرا ما كان يعجبه في هؤلاء الغلمان انكسار جفونهم وكأنهم  
 نساء بارعات في الحب والغزل. يقول ابن المعتز واصفاً أجفانهم:  
 لا تلووني على رشا ليس لي من حبه عوض  
 إن في أجفانه مقلته مرضاً يشفى به المرض<sup>(٢)</sup>

ويقول في انكسار العين وكأنها مريضة :

خطوات الهوى أصابت فؤادي      فرماني بلحظه تعريض  
 ومريض الجفون من غير سقم      لطف نفسي على الصحيح المريض<sup>(٣)</sup>

وابن المعتز إن كان شارك في هذا الغرض الشعري القبيح إلا  
 أنه لم تأخذه ثوره الجنس إلى ارتكاب المعاصي والفاحشة مثل بشار ووالبة  
 وأبي نواس ففي حين يقول والبة بكلام مكشوف الألفاظ:

قلتُ لساقينا على خلوة      ادن كذا رأسك من راسيا  
 وتم على جنبك لي ساعة      إني امرؤ أنكحُ جُلَاسيا<sup>(٤)</sup>

( ١ ) الديوان، ( ٢ / ٢٩٥ )، طبعة دار المعارف.

( ٢ ) الديوان، ( ١ / ٣٧٨ )، طبعة بغداد.

( ٣ ) الديوان، ( ١ / ٣٧٩ )،

( ٤ ) الأغاني، ( ١٩ / ٦٤ )، طبعة دار الشعب.

أو يقول أبو نواس في تفضيل البنين على البنات:  
 أأختارُ البحارَ على البراري وأحيالاً على ظبي الفلاة  
 دعيني لا تلسومي قباي على ما تكرهين إلى الممات  
 بهذا أوصى كتابُ الله فينا بتفضيل البنين على البنات<sup>(١)</sup>

نجد ابن المعتز لم يرتكب فاحشة قط كما يقول:  
 ولَمْ آتِ مَا قَدْ حَرَّمَ اللَّهُ فِي الْهَوَى وَلَمْ أَتْرِكْ مِمَّا عَفَا اللَّهُ بَاقِيَا<sup>(٢)</sup>  
 وغاية ما كان يصل إليه الريق. يقول:

نَامَ رَقِيهِ سَكْرًا يَحْرُسُنِي فِي خُلْمِهِ  
 وَبَاتَ مَنْ أَهْوَى مَعِيَ يُدَيِّقُنِي رَيْقَ قِمِهِ<sup>(٣)</sup>

" وكذلك يبدو من شعره أن ضميره كان يخزه وخزات قوية كلما استعرض عواطفه نحو الغلمان، فطبيعته كانت أنقى من تستسلم استسلاماً تاماً لهذا النوع من الشذوذ. ولعل القبل والنظرات كانت آخر ما يفكر فيه صاحبنا. وأنه أولع بها؛ لأنها كل ما يحل لنفسه من تلك الفاكهة المحرمة. ويؤكد ما ذهب إليه من أن الرجل كان يستحي حتى فيما بينه وبين نفسه من عواطفه ونزعاته، هذا ما نراه من أبيات يشفق فيها على دينه أن يتبخر على حرارة تلك العواطف:

- أفسدَ ديني بَدْرُ في الطرفِ مِنْهُ سِحْرُ

-أنت أفسدت الحياةَ بهجرٍ وَمَمَانِي بِحَسَابِ طَوِيلِ

(١) ديوان أبي نواس، تحقيق عبد المجيد الغزالي.

(٢) الديوان، (٢ / ٤٠٢)، طبعة بغداد.

(٣) الديوان، (٢ / ٤٢٣).

ولم يرد في ديوانه ما يوهم أنه وقع مع الغلمان في فاحشة إلا  
 أبيات قلائل تنقصها الصراحة فهو على كل حال يخاف الله. يقول:  
 وَإِلَيَّ وَإِنْ كَانَ التَّصَانِي يُخْشِي      أَبْلَغُ حَاجَاتِي وَأَجْرِي عَلَى قَلْبِي  
 كَرِيمٌ ذُنُوبٍ إِنْ يُصِيبَ بَعْضَ لَذَّةٍ      يَدْعُ بَعْضَهَا خَوْفَ الْأَحَادِيثِ وَالْوُزْرِ<sup>(١)</sup>

( ١ ) عبد الله بن المعتز العباسي: محمد عبد العزيز الكفرلوي، (ص: ٤٥).

## الوصف

ربما لم يذع صيت ابن المعتز العباسي في الشعر إلا لتقدمه في الوصف والتشبيه " فابن المعتز لم يغادر صغيرة أو كبيرة تستحق التكوين في سجل الأدب الخالد إلا أحصاها. فنحن نستطيع بفضل هذا الجزء من شعره أن نتبين حياة المرح والترف التي كان يحياها متنقلاً من قصر إلى قصر ومن ضيعة إلى ضيعة، ومن مجلس طرب حافل بالممرات إلى آخر أحفل منه. ونستطيع أيضاً بواسطة هذا الوصف أن نعرف شيء غير قليل عن الطبيعة التي كان يغازلها ويناجيها ونستطيع كذلك أن نظفر في هذا الوصف بمعلومات اجتماعية وتاريخية تجمع بين الفائدة والطرافة إلى حد بعيد".<sup>(١)</sup>

ولسوف يتناول الحديث عن الوصف الحديث عن الخمر، والطبيعة، والطرديات، وذلك من خلال أثر الحضارة على هذه الموضوعات.

(١) الشعر والشعراء في العصر العباسي.



## ١- ( الخمر )

لم يكن الحديث عن الخمر جديدًا بالنسبة للشعر في العصر العباسي " فكان العرب يعرفون الخمر في جاهليتهم، وكانت ترد إلى بلادهم من جهات شتى وكثيرًا ما وصفها بعض شعرائهم، ووصفوا مجالسها وسقاتها وتحدثوا عن الندامى وعن القيان اللاتي كن يغنين لهم في مجالس الشراب".<sup>(١)</sup>

ولكن الخمر في الشعر الجاهلي لم ترد على عدة أبيات قليلة تحتويها القصائد الطوال ولذلك " ينبغي أن نقرر أننا لا نجد في هذه الأوصاف الجاهلية الخمر إلا تشبيه المحسوس بالمحسوس، وقل أن نراهم يتعرضون لإيضاح صورة معقولة بأخرى محسوسة، كما أن أغلب هذه الأوصاف تعد ساذجة أولية بالنسبة لما بلغه فن الخمريات في القرن الثاني. فأثر الخمر في النفوس عندهم لا يعدو أنها تدفع للكرم"<sup>(٢)</sup> كما اتخذوا الخمر كأداة للهو والمرح.. ورمزوا للإلحاد بالقيم الاجتماعية والأخلاقية.

وكذلك اتخذت كمظهر للترف والكلام؛ إذا كانت الخمر نادرة، تجلب من الشام أو العراق أو فارس، فقد كانت باهظة الثمن لا قبل بها إلا للكريم الثري ويفخر باقتنائها وشربها وتقديمها لمن ينتجع داره.<sup>(٣)</sup> فلما جاء الإسلام حرم الخمر تحريمًا قطعياً، ووصفها بأنها رجس من عمل الشيطان، فكف الشعراء عن وصفها، فقال الله في كتابه العزيز:

( ١ ) تيارات ثقافية بين العرب والفرس، (ص: ٢١٣).

( ٢ ) اتجاهات الشعر، (ص: ٥٠١).

( ٣ ) فن الشعر الخمرى وتطوره عند العرب، إيليا الحاي، (ص: ٧٣ - ٧٤).

"إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوا"<sup>(١)</sup>، بالإضافة إلى بعض أحاديث الرسول (ﷺ): "كل مسكر حرام وكل حرام حرام ولا يشرب شارب الخمر حين يشرب وهو مؤمن".

ثم عاد بعض الشعراء إلى التغني بها في العصر الأموي وكان زعيمهم في المجاهرة بشربها والإكثار من ذكرها الأخطل الشاعر التغلبي النصراني<sup>(٢)</sup>.

فقد نالت الخمر شيء على عهد يزيد بن معاوية، وأشياء على عهد الوليد بن يزيد ولكن ذلك لم يصل بها إلى أن تكون فناً مستقلاً من الفنون<sup>(٣)</sup>.

"ولم يكد يستهل العصر العباسي بما صاحبه من حضارة وترف وثراء وإطلاق للحرية الفردية ومخالطة عميقة للفرس وغيرهم وما نشأ عن ذلك من زندقة ومجون حتى كثرت أنواع الشراب، وتعددت مجالسه وأقبل ناس عليه في غير تأنيث، فلهج كثير من الشعراء بالخمريات"<sup>(٤)</sup>. فالشراب والعكوف عليه عادة نقلت إلى المجتمع الإسلامي بتأثير الفرس فقد كانوا يعرفون بالإفراط في حب النبيذ وكانت الديانة الزرادشتية تبيح شربه بل تجعله من شعائرها فلما قوي نفوذهم في الدولة العباسية

(١) سورة المائدة، ( الآية: ٩٠ ).

(٢) تيارات ثقافية، (ص: ٢١٣).

(٣) ابن المعتز صورة لعصره، (ص: ٢٠٣).

(٤) تيارات ثقافية، (ص: ٢١٣).

نشروا حياة الأكاسرة وما كان فيها من حضارات ولهو ونقلوا ما كان لهم من نبذ وغناء وغزل بالمذكر وما إلى ذلك.<sup>(١)</sup>

" كما كان للشعوبية تأثيرها في إنكاء أدب الخمر والإقبال على الخمر ذاتها كمظهر من مظاهر الحضارة وترفها، مقابلين بين مجلسها المنعم وحياة العرب الشظفة البائسة، فالخمر ربوبة الحضارة بل هي رمزها فيما كان الطلل رمزاً لحياة العرب الضارين في متاهة صحرائهم القاحلة.<sup>(٢)</sup>

المهم فقد لهج كثير من الشعراء بالخمريات، وتزعهم أبو نواس، ففي ديوانه آلاف الأبيات في الخمر، أتى فيها بكل جديد من الفكر وطريف من الخيال.

وهو الذي ابتدع افتتاح القصائد بالخمير، إذ كانت مطالع كثير من قصائده إشادة بالخمير ودعاء إلى شربتها، وتهكما بالذين يبدؤون قصائدهم بالغزل وبكاء على الأطلال، كقوله:

صِفَةُ الطُّلُولِ بِلَاغَةُ الْقِدَمِ فَاجْعَلْ صِفَاتِكَ لِبَيْتَةِ الْكَرَمِ<sup>(٣)</sup>

فإذا أردنا بعد ذلك أن ننتبين أثر الحضارة على الخمر في شعر ابن المعتز. نجد أن ابن المعتز نهج طريقة أبي نواس في الخمر بداية بالثورة على الأطلال، فيقول:

خَلِيلِي بِاللَّهِ أَقْنَدًا نَصْطَبِحُ بِسَلَا قَفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزَلٍ

(١) ضحى الإسلام، (١ / ١١١ - ١١٢).

(٢) فن الشعر الخمرى، (ص: ١٧٨).

(٣) تيارات ثقافية، (ص: ٢١٣)، ديوان أبي نواس، (ص: ٢٣٤).

وَلَا تُقْرِ مِقْرَةَ امْرِئِ الْقَيْسِ قَطْرَةً      مِنْ الْفَيْتِ وَارْجُمُ سَاكِبِيهَا بِجَنْدَلٍ  
وَلَكِنْ دِيَارَ اللَّهِوِ يَا رَبِّ فَاسْقِهَا      وَذُلَّ عَلَى خَضِرَاتِهَا كُلِّ جَنْدُولٍ<sup>(١)</sup>

ولقد أشرنا في الحديث عن حياة ابن المعتز إلى أنه لجأ إلى  
الشراب لينسيه همومه، فليس عنده علاج للرزايا إلا المدام ويا حبذا لو  
كانت وصديق وقينة، يقول:

والرزايا ليستُ تُداوَى بشيء      كمدام وقينة وصديقي<sup>(٢)</sup>

فإذا ما دخل إلى الخمر من بابها الواسع راح يقنن لها، فهي عنده  
جامعة لكل الفضائل، يقول:

ما وجدنا من الفضائل طرا      خلة لا تعاب في الخندريس<sup>(٣)</sup>

ولذلك ينبغي ألا نتقطع عنها ولا نسمع لقول العذول:

سَلِّ بِالصَّبَوحِ غَبُوقًا      وَلَا تُكُنْ مُسْتَفِيحًا  
وَأَعْصِ الْعَذُولَ وَدَعَا      يَنْفُخْ بِعَذْلِكَ بَوقًا  
دَعِ الْمُسِيكِينَ حَتَّى      يُقِيمَ بِالثَّكِّ سَوقًا  
لَا تُسَلِّكُنَّ إِلَى غَا      رِ مَا تُعِيبُ طَرِيقًا  
فَإِنَّ فِي ذَاكَ عَيْدِي      رَأَيْتُ مُضِيئًا وَثِقًا  
وَتُحْدِ وَهَاتِ سُلَاقًا      مِنْ الشَّرَابِ رَحِيقًا  
لَا تُشَرِّبَنَّ بِسَواهَا      أَوْ مِنْ حَبِيكَ رَيْقًا<sup>(٤)</sup>

( ١ ) الديوان، ( ٢ / ٢٩٠ )، طبعة دار المعارف.

( ٢ ) نفسه، ( ٢ / ٢٨٧ ) .

( ٣ ) الديوان، ( ٢ / ٢٧٧ )، طبعة دار المعارف.

( ٤ ) نفسه، ( ٢ / ٢٨٦ ) .

ثم يتحدث عن أثر الخمر في شاربها:  
 وَقَدْ شَرَبُوا حَتَّى كَانَ رُؤُوسُهُمْ      مِنْ اللَّيْلِ لَمْ يُخَلِّقْ لَهُمْ عِظَامُ  
 ثم يصل أثر الخمر عنده إلى حد تقديسها والصلاة لها:  
 مَوْلَايَ أَجُوزُ مِنْ حَكَمِ      صَبْرًا عَلَيْهِ وَإِنْ ظَلَمَ  
 لَعَبِ الْقَلْبِ بِمُحِبِّهِ      فَكَاثِمًا كَالْتِ حُلُمِ  
 وَمُصَرِّعِينَ مِنَ الْخَمِ      رِ عَلَى التَّوَاعِدِ وَاللَّعَمِ  
 قَتَلْتَهُمْ خُمَارَةً      عَمْدًا وَلَمْ تُؤْخَذْ بِدَمِ  
 وَفَقَّتَهُمْ مَشْمُولَةً      ظَلَّتْ تُحَدِّثُ عَنْ إِزَمِ  
 لَمَّا أَرْتَهُمْ كَانَهَا      شَرَبُوا وَمَا قَالُوا بِكُمْ  
 وكذلك لو قالت لهم      صلوا لها قالوا نعم<sup>(١)</sup>

وما دامت الخمر وصلت عنده إلى هذه المرحلة فليس من شك أن يعرف عندها كل كل شيء. حتى أنه لم يترك كبيرة ولا صغيرة في الخمر إلا وقال فيها.

ولننظر إلى هذا الاستقصاء في وصفة الخمر فهو يتتبع الخمر منذ كانت عناقيد في شجر العنب يسقيها الفرات بمائه.  
 ينظم المتعهد بها جداولها بالمساحي حتى يصل الماء إلى كل جزء فيها، ثم يجنيها عندما يستوى ثمارها، ويعطيها للعصار الذي يضعها في بطن مختومة بالطين في وهج الشمس حتى إذا ما جاء الخريف صب عليها الماء وقدمها للشاربين، حيث يقدمها ساقى خنثى الأحفاظ على أرض مفروشة بالورود ويقول:

وكأس حبرية شكت بمروها  
جادت بها حقل الأثمار يانعة  
ترفو الظلال بأغصان مقرطة  
أجرى القرات إليها من سلاسله  
وطاف يكلؤها من كل قاطقة  
موكل للمساحي في جداولها  
وآب في آب يجنيها لعاصرها  
وظل يرقص فيها كل ذي أشر  
ثم استقرت ونار الشمس تلفحها  
حق إذا برد الليل البهم لها  
صب الخريف عليها ماء غادية  
تلك التي إن تصادف قلب ذي حزن  
يسقيها نحت الألفاظ ذو هيف  
على فراش من الورد الجني وما

أحشاء مشعرة بالقمار جوفاء  
بطيزنا باذ أو كوثي وسوراء  
سود العناقيد في خضراء لقاء  
نمرا تمشي على جراءاء ميثاء  
راع بعين وقلب غير نساء  
حق يدل عليها حية الماء  
كان كفيه قد علت بجناء  
قاس على كيد العنقود وطاء  
في بطن محتومة بالطين كلفاء  
وبلها سحر منه بأنداء  
أقامها فوق طين بعد رمضاء  
تجزل عطيته من كل سراء  
كان الحافظه أفرقن من داء  
بدلت من نفحات الورد باللاء

ثم يستقى الكثير من أسمائها وأنواعها. فهي عقار:

قم فاسقيني من عقار جراء كالجلاء<sup>(١)</sup>

وهي راح وخندريس:

اسقي الراح في شباب النهار  
وأنف همتي بالخنديس العقار<sup>(٢)</sup>

وهي سلاقة:

(١) الديوان، (٢ / ٢٥٩)، طبعة دار المعارف.

(٢) نفسه، (٢٥٩).

وليلٍ بئسَ أسقامها سلافاً  
وهي غَيْثَةٌ:  
مُحَقَّقَةٌ كَلَوْنِ الْجَلَنَارِ<sup>(١)</sup>  
وَعَيْثَةٌ مِثْلُ ذَوْبِ الْقَيْبِ  
في لَمٍ تَشَقُّ بِالنَّارِ وَالْمَعَصَرَةِ<sup>(٢)</sup>  
وهي صفراء كرخية:  
غداً بها صفراء كرخية  
كألها في كأسها تَتَقَدُّ<sup>(٣)</sup>  
وهي مشمولة:  
وَمَشْمُولَةٌ قَدْ طَالَ بِالْقَفْصِ حَبُّهَا  
حَكَتْ نَارَ إِبْرَاهِيمَ فِي اللَّوْنِ وَالْبَرْدِ<sup>(٤)</sup>  
وهي عروس:  
وعروس رُفَّتْ عَلَى بَطْنِ كَفٍّ  
في قميصٍ مُنْقَشٍ مِنْ رُجَاجٍ<sup>(٥)</sup>  
وهي الصبوح إذا شربت في الصباح وهي الغبوق إذا شربت في  
المساء، يقول في تفضيله الغبوق على الصبوح:  
لَا تُدْعِي لَصُبُوحٍ إِنَّ الْبُوقَ حَسْبِي  
فَاللَّيْلُ لَوْنُ شَبَابِي وَالصُّبْحُ لَوْنُ مَشْيِي<sup>(٦)</sup>  
ثم يتحدث عن كؤوسها وأباريقها ودنانها والشراب على أصوات  
الموسيقى. يقول:  
رب كأسٍ شربتها من يديه وصباحٍ بوجهه كان سعداً

(١) نفسه، (٢٥٨).

(٢) نفسه، (٢٥٤).

(٣) الذبون، (٢٤٥).

(٤) نفسه، (٢٣٩).

(٥) نفسه، (٢٢١).

(٦) نفسه، (٢٢٢).

بين كأسٍ ومزهرٍ وصفَ الصوت بأوتارهِ فأدا  
ودنانٍ كمثل صفٍّ رجالٍ قد أقيموا ليلعوا دسبدا  
وأباريقٍ قد صفون إلى الميزان والعلاج يفصد الدن فصدًا  
إذ جعلنا الورد الجثي علينا مطرًا، والغمام عودًا وندا  
وأحيانًا يشرب في الزجاجة:

أشرب الراح في الزجاجة إن في الراح راحة للنفوس<sup>(١)</sup>  
وكثيرًا ما يتحدث عن تعتيق الخمر فهي باتت تحدث عن إرم أو  
أنها من عهد كسرى أو مكثت عشرين حولًا أو أنها نسي التاريخ ميلادها.  
يقول:

فبت أسقى من يدي بذرِها شمسًا كساها الماء إزباذها  
أم سنين مزمنٍ عهدها قد نسي التاريخ ميلادها<sup>(٢)</sup>

ثم يتحدث عن الساقى والساقية يكونان على الأكثر من اليهود أو  
النصارى، يقول:

وحجارة من بنت اليهود ترى الرق في بيتها شائلًا<sup>(٣)</sup>

وأحيانًا يكون الساقى من النصارى معلقًا الصليب في لبتة:

من كف ظهي مفرطٍ غنجٍ يعشقهُ من عليه يعدلني  
تلسوخ صلبائه بلتبه كنور زهرية بلا غصن<sup>(٤)</sup>

(١) نفسه، (٢ / ٢٧٧).

(٢) الديوان، (٣٤١/٢)، طبعة دار المعارف.

(٣) نفسه، (٢ / ٢٩٢).

(٤) الديوان، (٢ / ٣١١).



ورغم ارتباط الغناء والشراب في مجالس الخمر منذ العصر الجاهلي، فكما يقول الدكتور ناصر الدين الأسد: " وأول ما يبدو لنا من هذه المجالس اجتماع الغناء والشراب، وكأنما الخمر أمر لابد منه لأطراح الهموم ومشاكل النفوس، وجلاء الأرواح وصقلها، وبذلك يعد للدخول في الجو الفني الغناء عند من يطلبون الغناء متعته الروحية الفنية، أو كأنما كانت الخمر أمر لابد منه لتحريك الشهوة، وانطلاق سعار الجسد من الوقار والتحفظ، فتتعاون مع الغناء على التمتع بأجساد هؤلاء القيان في الحانات،<sup>(١)</sup> ولكن هذه الأمور توسعت في هذا العصر وأصبحت وجهة حضارية يعرف بها وتميز.

يقول ابن المعتز عن الموسيقى والغناء والشراب:

أَمْكَنْتُ عَادِلِي مِنْ صَمْتِ أَبَاءِ مَا زَادَهُ التَّهْيُّ شَيْئًا غَيْرَ إِغْرَاءِ  
أَيْنَ التَّوَرُّغِ مِنْ قَلْبٍ يَهْمُ إِلَى حَانَاتِ لَهَيْ غَدَا بِالْعُودِ وَالنَّاءِ  
وَصَوْتِ قَتَاةِ التَّغْرِيدِ نَاطِرَةً بِعَيْنٍ ظَلَمِي تُرِيدُ التَّوَمَّ حَوَاءِ<sup>(٢)</sup>

وكان ابن المعتز حاذقاً في معرفة مزايا المغنين ومحاسنهم وعيوبهم، فلنستمع إليه يضع المواصفات الدقيقة للغناء في نطاق الوصف الذي كان له قصب السبق فيه. يقول:

أَشْتَهِي فِي الْغِنَاءِ بَحَّةَ خَلْقٍ نَاعِمِ الصَّوْتِ مُتَعَبِ مَكْدُودِ  
كَأَنَّ الْمَحَبَّ الْحَلَّهَ الشَّرَّ قَدْ فَضَّاهِي بِهِ أَيْنَ الْمُودِ  
لَا أَحِبُّ الْأَوْتَارَ تَغْلُو كَمَا لَا أَشْتَهِي الضَّرْبَ لِأَزْمَا لِلْعُودِ

(١) القيان والغناء في العصر الجاهلي، د/ ناصر الدين الأسد، (ص: ١١٠).

(٢) الديوان، (٢ / ٢٠٨)، طبعة دار المعارف.

وأحبُّ المجتنبات كَحَبِّي      للمَبَادِي مَوْسُولَةٌ بِالشَّيْبِ  
كَهَيُوبِ الصَّبَا قَوْسَطُ حَالاً      بَيْنَ خَالَتَيْنِ شِدَّةٌ وَرُكُودٌ<sup>(١)</sup>

ولا يكتفي ابن المعتز بهذه الأبيات في وصف الغناء المتقن، وإنما يأتي بأبيات أخرى في نفس المعنى حسنت صياغة وقلت تفصيلاً. يقول:

أَهْ مِنْ بُحَّةٍ يَغْتَرِ الْقَطَاعُ      لِفَتَاةٍ مَوْسُولَةٍ الْإِنْقَاعُ  
أَلْقَبَتْ صَوْتَهَا وَقَدْ يُجْتَنَى مِنْ      تَغَبَّ الصَّوْتِ رَاحَةُ الْأَسْمَاعِ  
فَلَقَدَتْ تَكْثُرُ الْبَحَاخِ وَخَطَّتْ      طَبَقَاتِ الْأَوْتَارِ بَعْدَ الرِّفَاعِ  
كَأَنَّيْنِ الْمَحِبَّ خَفَضَ مِنْهُ      صَوْتٌ شَكْوَاهُ شِدَّةُ الْأَوْجَاعِ<sup>(٢)</sup>

وكثيراً ما يكون الشراب في الرياض والبساتين. يقول:

أشرب على الورد في البساتين      وخضرة الأس في الميادين  
من قهوة في الدنان مسكتها      يا صاح رطلا ملا ومقيني<sup>(٣)</sup>

وعن الرياض والغناء والشراب يقول:

قمر طالع وروض أبيض      وغناء حلو وزمر رقيق  
وكنوس كأنهن قشور اللؤلؤ      لؤلؤ الرطب حشوهن بـرُوق  
وحين الأوتار حين هذا اللـ      يل وطابت لسامعها الخلق<sup>(٤)</sup>

كما لعبت الأديرة دوراً هاماً في خلق جو بهيج للخمر وشاربيها  
تفقد دأب الرهبان على اختيار الأديرة في أجمل المواقع، وقد ابتنوها منذ

(١) زهر الآداب، للمصري، (٢/ ٦١٢).

(٢) نفسه، (٢/ ٦١٣).

(٣) الديوان، (٢/ ٣١٧)، طبعة دار المعارف.

(٤) نفسه، (٢/ ٢٨٧)، طبعة دار المعارف.

القرن المسيحية الأولى. ولعل البلاد العربية كانت تحفل بهذه الأديرة التي حولها الرهبان إلى شبه جنائن كثيرة الخضار، رائعة المنظر، حتى جعل يقصدها طلاب النزهة للمتعة والتتزه. ولقد جعل هؤلاء يحرثون أرضيهم ويزرعون فيها الكرمة، ومن ثم يتفننون في عصر الخمر وتعتيقها حتى اشتهرت الأديرة بذلك وأصبح طلاب اللهو والخمر الجيدة يقصدونها لينعموا بخمرها. هذه العادة كانت شائعة في العصر العباسي، حيث كنا نرى الخلفاء بالإضافة إلى الأمراء يؤمون الأديرة للتتزه، وطلباً للتلذذ بخمورها المعتيقة الجيدة. يقول ابن المعتز في دير العذارى:

خليلي قم حق غوث من السكر بحانة حار ممائاً بلا قبر  
ونشرب من كرخية ذهبية ونصفح عن ذنب الحوادث والدهر  
ألا رب أيام مضين جيدة بدير العذارى والصوامع والقصر  
وكم من ليل مسعدات لذي الهوى حسرت على اللذات فيهن بالحر<sup>(١)</sup>

ومن أثر مظاهر الحضارة على الخمر في هذا العصر استعمالهم السفن في الركوب للوصول إلى أماكن الشراب. يقول ابن المعتز:

بألكرخ والميدان لي منزل ولذتي القفص وقطر بل  
وختل ماء لي طيارة تذير بي في السير أو تقبل  
تلاطم الماء مجاديفها حاملة لكتيها تحمل  
غائتها قصر حديد وفي بستان بشر دهرها الأطول

(١) الديارات: للشاهشي، (ص: ١٠٩)، وهو دير على شاطئ دجلة وهو دير حسن عامر، حوله البساتين والكروم وسمي كذلك لأنه في جوار مقبلات عذارى، هن مكانه وقطانه، فسمي الدير بهن (الديارات، ص ٧٨).

وَأَنْ تَجِدَ مِنْ مَاصِرٍ غَفْلَةً تَطُرُ إِلَى الْقَفْصِ لَا تُغْدِلُ<sup>(١)</sup>

ومن أثر الحضارة أيضاً تأثر شعر الخمر بالفلسفة " فالعصر العباسي كان عصر علوم وفلسفة، خاصة بعد أن تمت الترجمات اليونانية، وقام الجدل الديني (بتأثر) الفلسفة والواقع أن المسلمين قد ءامنوا بالإسلام إيماناً غير مصحوب بأي تساؤل إلا أنهم عندما اطلعوا على الفلسفة اليونانية تأثروا بالتيار المنطقي وحاولوا أن يدرسوا الدين وفقاً للأساليب المنطقية، فنشأ لديهم الجدل والفقه، وتمرسوا بالمنطق تمرساً صارماً، حتى أنه غدا أهم ميزة من مميزات التجديد في العصر العباسي".<sup>(٢)</sup>

ومن أثر الفلسفة في خمريات ابن المعتز:

استخدامه الشك والصدق والكذب في أثر البلى على الخمر. يقول:

فامطرَ الكأسُ ماءً من أبارقه      فأنبتَ الدُّرُّ في أرضٍ من السَّهْبِ  
وسبَّحَ القومُ لما أن رأوا عَجَبًا      لورًا من الماءِ في نارٍ من العَسْبِ  
لم يُبقِ فيها البلى شيئاً سوى شَحِّحٍ      يُقِيمُهُ الظَّنُّ بَيْنَ الصُّدْقِ وَالْكَذِبِ<sup>(٣)</sup>

ويقول أيضاً:

صَفَتْ وَصَفَتْ رُجَائِثُهَا عَلَيْهَا      كَمَعْنَى ذَقِّ فِي ذَهْنٍ لَطِيفِ<sup>(٤)</sup>

وقوله:

أبقى البلى روحها بلا جسد      فخلت موجود كونها عدماً

(١) الديوان، (٢/ ٢٩٢ - ٢٩٣)، طبعة دار المعارف.

(٢) فن الشعر الخمرى، (ص: ١٥١).

(٣) الديوان، (٢/ ٢١٩).

(٤) نفسه، (٢/ ٢٨٢).

أما عن أثر الإسلام في خمريات ابن المعتز فنحن نعلم أن الحدين الإسلامي حرم شرب الخمر تحريمًا قطعياً في الدنيا ولكنه عاد وجعلها من لذة أهل الجنة فوصف القرآن آثارها وأباريقها وشرابها؛ ولهذا كما يقول الدكتور زغلول سلام: "لعل الناس في الحياة الدنيا يشفقونها وقد مثلها لهم القرآن بكؤوسها وسقائها ومجالسها وأراد سراة الناس أن يحققوا صورة من الجنة التي يوعدون في حياتهم الدنيا" وهذا القول قد يكون صحيحاً، لأن الشر خلق لقصد مثلاً خلق الخير تماماً، وخلق ليسلكه بشر مثلاً يسلكه الخير آخرون فقد يكون ذكر الخمر في القرآن بجانب كونها حافزاً للمسلمين المتقين في الدنيا دافعاً لأن يشربها ضعاف النفوس فيحاسبوا عليها وربما يدخلوا النار وإلا فلماذا خلقت النار؟ بالطبع لكي يدخلها الذين يرتكبون الخطأ، إذن فالخطأ مقصود والدوافع إليه مقصودة أيضاً.

ومن الأثر الإسلامي أيضاً تلك الإشارات العديدة في شعر ابن المعتز والتي نفهم منها أن ابن المعتز كان يعرف أن الخمر محرمة في الإسلام ولذلك نراه في مواضع عدة يبين لنا أنها منافية للتقوى أو أنها ذنب يجب أن يتوب عنه، أو أن إبليس السبب في شربها لكثرة إغوائه، المهم أننا نفهم من شعره حرمانية الخمر. فنراه يوضح لنا أن إبليس راضى نفسه حتى صبت ومنعها من سلوك التقوى. يقول:

رَاضٍ نَفْسِي حَتَّى صَبَتْ إِبْلِيسُ      وَقَدِيمًا قَدْ طَاوَعَتْهُ الثُّفُوسُ  
كَمْ أَرَدْتُ الثَّقَى فَمَا تَرَكْتَنِي      خَنْدَرِيْسَ يُدِيرُهَا طَاوُوسٌ<sup>(١)</sup>

ويعترف أن السكر آفة وذنب:

(١) الديوان، (٢ / ٢٧٢)، طبعة دار المعارف.

أقررت بالذنب على السكر السكر عندي آفة السر<sup>(١)</sup>  
ونراه يمتنع عن الشراب في شهر رمضان. يقول:  
صرف شرابك قد هجرت كؤوسه شهر الصيام واعفنا من مائه<sup>(٢)</sup>

---

(١) نفسه، (٢/٢٦٥).

(٢) نفسه، (٢/٢١٢).

## ٢- ( وصف الطبيعة )

لقد أجمع المؤرخون أن الحضارة العباسية، حضارة زخرف وترصيع كثرت فيها النقوش والسنائر المزركشة المنمقة، والمناضد الثمينة والزهریات الخزفية، فضلا عن الجواهر والحلي. أما الطعام فقد غدا كثير التعقيد، بعد أن تفننوا بإدخال التوابل عليه. وكذلك اللباس، فقد غلب عليه التعريش والتطريز والتنميق. فالعصر العباسي، كان عصر تعقيد وتوليد، يتولى العنصر المنفرد الأصل ويمزجه بعنصر آخر، ليتولد منهما عنصر جديد.

ولقد كان الشعراء ينصرفون إلى القصور، منادمين الخلفاء حيناً، ومادحين مستجدين حيناً آخر فيؤخذ الشاعر بتلك الزخارف والترصيعات، ويعجب من الفسيفاء المدهشة الألوان التي تطالعه في السقوف وعلى الجدران، فيتأثر بذلك واعياً وغير واع. ولقد طالما شاهد أيضا الجواري والغنيات يرتدين الملابس المصبغة الموشاة، وغدا يعجب بالتعقيد والتأليف، حتى انقاد إليه وتطبع به في قصائده. وقد بدا ذلك كله في موضوع الوصف<sup>(١)</sup>. هذا بالإضافة إلى جمال الطقس ووفرة المياه مما استغله العباسيون في إنشاء الرياض والبرك.

وابن المعتز العباسي كان يعيش كل هذه المظاهر ولم يسع إليها ولذلك " لم يترك شيئاً وقع عليه إحدى حواسه إلا رصده حتى وكأنه كانت

( ١ ) فن الوصف وتطوره في الشعر العربي: إيليا حاوي، (ص: ١٣٩، ١٤٠).

له مخيلة تشبه آله تصويرية دقيقة، فهي تصور وتلتقط الدقائق. وكأنها لا تريد أن تترك شيئاً<sup>(١)</sup>.

ويكفيها من وصفه الذي اشتهر به وصفه لمظاهر الحضارة الجديدة من قصور ورياض وغناء وغير ذلك.

ف نجد ابن المعتز الذي عاش في القصور وتقل بينها ينقل لنا صوراً منها فيصف لنا قصر (الثرى) الذي بناه الخليفة المعتز، يصفه بأشجاره وأنهاره وما فيه من شرفات وميادين للسباق، يقول:

حَلَّتْ الثَّرِيَّا خَيْرَ قَصْرِ وَمَنْزِلٍ	فَلَا زَالَ مَقْمُورًا وَيُورِكُ مِنْ قَصْرِ
فَلَيْسَ لَهُ فِيمَا بَنَى النَّاسُ مُشَبَّهٌ	وَلَا مَا بَنَاهُ الْجِنُّ فِي سَالِفِ السَّهْرِ
وَمَا زَالَ يَرَعَاهُ الْإِمَامُ بِرَأْيِهِ	وَبِالْعَزِّ وَالتَّقْدِيمِ وَالتَّهْيِ وَالْأَمْرِ
فَقَدْ قَامَ فِي الْحُسَيْنِ شَيْءٌ يُرِيدُهُ	لِسَانٌ وَلَا قَلْبٌ يَقُولُ وَلَا فِكْرُ
جَنَانٌ وَأَشْجَارٌ تَلَاَقَتْ غُصُونُهَا	وَحُلَيْنَ بِالْأَشْجَارِ وَالْوَزْقِ الْحُضْرُ
تَرَى الطَّيْرَ فِي أَغْصَانِهِنَّ هَوَافِئًا	تَنْقُلُ مِنْ وَحْشٍ هُنَّ إِلَى وَحْشٍ
وَيُبْنَى قَصْرٌ قَدْ غَلَّتْ شُرَفَاتُهُ	كَصَفِّ نِسَاءٍ قَدْ تَرْتَمْنَ فِي الْأَزْرِ
وَأَلْهَارٌ مَاءٌ كَالسَّلَاسِلِ فُجِّرَتْ	لِخُرُوجِ أَوْلَادِ الرِّسَاحِينَ وَالزُّهَرِ
وَمَتَدَانٌ وَخَشِي تَرْكُضُ الْحَيْلُ وَمَنْطَةٌ	فَيُؤْخَذُ مِنْهَا مَا يُشَاءُ عَلَى قَلْبِ
إِذَا مَا رَأَتْ مَاءَ الثَّرِيَّا وَتَبَتَهَا	نَسِيْنَ وَتُوبَ الْكَلْبُ فِيهِنَّ وَالصَّقَرُ <sup>(٢)</sup>

(١) العصر العباسي الثاني (ص: ٢٣٢).

(٢) الديوان: (١/ ٤٣٥، ٤٣٦)، طبعة بغداد.



ومن جمال القصور إلى جمال الرياض ينقلنا ابن المعتز لنتمتع  
بروض أليمه الربيع ثيابا موشاة جميلة تروق حواس البصر والشم والأذن  
والتذوق، يقول:

جد ربح الربيع وازدوج الطيب	ر ولاحت بوراق الأنواء
وترى الروض لايسا ثوب وشي	نسجه للهو أيدي السماء
لم يزل لايسا ثياب بياض	فكساه الربيع ثوب جلاء
فتجلى مصفرة باخضرار	واجرار لكثيرة الأنواء
فاسقنا يا غلام إذا عنت الطيب	ر وجاء الربيع راحا بماء <sup>(١)</sup>

ويلتقط لنا منظر الزهر ويعتليه الندى، تدفعهما الرياح بين مد  
وجزر. كل ذلك في هدوء وسكون فالوقت وقت سحر:

فُزْسانٌ قَطِرَ عَلَى خَيْلٍ مِنَ الزُّهْرِ	تَحْتُهُنَّ سَيَاطُ الرِّيحِ فِي السَّحْرِ
مَا شُتَّتْ مِنْ حَرَكَاتٍ وَهِيَ وَاقِفَةٌ	تَحْلُلُهَا سَائِرَاتٌ وَهِيَ لَمْ تَسِرْ <sup>(٢)</sup>

ثم يستأنن ليستقبل بحفاوة بالغة ضيف عزيزا عليه ولما لا يكون  
عزيزا وهو يأتي من العام إلى العام. محملا بعطره لايسا ثيابه الحمراء  
الجميلة:

أهلاً بزائر عام مرة أبدا	لو كان من بشرٍ قد كان عطارا
كألما صبغته وجنتا خجل	قد حلَّ عقد سراويِلٍ وأزردا
فلو رآه حين فوق صومعة	لقال في مثل هذا قَادِخِلُوا النَّارَ <sup>(٣)</sup>

(١) الديوان: (٢ / ١٥١)، طبعة دار المعارف.

(٢) نفسه: (٢ / ١٧٨).

(٣) الديوان: (٢ / ١٧٩)، طبعة دار المعارف.

ومن بهجة النظر إلى بهجة السماع يأخذنا ابن المعتز لنطرب بين  
مزمار وعود وناي بين مغ ومغنية فيصف لنا مغنية تتفخ في ناي أسود  
تعامله في رقة ودلال:

وَذَاتِ نَاسٍ مُشْرِقٍ وَجْهَهَا مَغشُوقَةُ الْأَلْحَاظِ وَالْفَتَحِ  
كَأَلَمَّا تَلَّيْتُمْ طِفْلاً هُنا زِلْتُمْ بِهِ مِنْ وَلَدِ الزَّوْجِ<sup>(١)</sup>

ثم يصف هذا الناي يكشف السر وعدم صيانتته فالزامرة تستودعه  
سرهما ولكن ميزته هو فضح هذا السر، يقول:

وَأَسْوَدَ فِي كَفِّ مَجْدُولَةٍ لَطِيفٍ لَهْ خِلْقَةٍ مُنْكَرَةٍ  
إِذَا اسْتَوْدَعَتْ سِرَّهَا عِنْدَهُ فَأَحْسَنُ مَا فِيهِ أَنْ يُظْهِرَهُ<sup>(٢)</sup>

ولا بأس أن نسمع هذا المغني أيضا وهو دقيق الصوت واللحن:  
وممن إذا تعفني دعا كل طروب من الندامي برطله  
خاط أوتاره بنغمات صوت مثل ما خيط كل جسم بظلمه

وبعد جولة بين القصور والرياض وسماع الغناء يكفينا ابن المعتز  
عناء المشي على الأقدام أو الركوب على وسائل المواصلات القديمة من  
ناقة وبغل وحمار... بل يركبنا خير ما جادت به هذه الحضارة. سقينة  
ويصفها لنا قبل ركوبنا:

وَزَلْجِيَّةٌ كَرْدِيَّةٌ الْخَلْيِ فَوْقَهَا جَنَاحٌ لَهَا فَرْدٌ عَلَى الْمَاءِ يَخْفُقُ  
يُؤَدِّبُهَا أَوْلَادُهَا بِعَصِيَّتِهِمْ فَتَحْسُنُ قَسْرًا كَيْفَ شَاءُوا وَلِطْلُقُ<sup>(٣)</sup>

(١) نفسه: (٢ / ١٦٩).

(٢) نفسه: (٢ / ١٨٥).

(٣) نفسه: (٢ / ١٩٢).

## ٢- ( شعر الطرد )

والطرد من الموضوعات التي أولع بها ابن المعتز مثلما أولع بها غيره من الشعراء مثل أبي نواس وابن الرومي. إلا أن ابن المعتز قد ألف فيه كتابا لم يصلنا هو كتاب " الصيد والجرح".<sup>(١)</sup>

"والطرد أو الشعر الذي يقال في الصيد عرف منذ الجاهلية حين كان الشاعر الجاهلي يصف مطاردته بجواده لحمار الوحش أو تتبعه لظبي أو طائر، وحين يصف صراع ظبي مع حمار وحشي، أو ما أشبه من أنواع الصراع التي تتشب بين الحيوان في الصحراء القاحلة الجرداء التي كانت تحيط به.

وكان هذا الوصف بطبيعة الحال جزءاً من القصيدة التي يكتبها الشاعر الجاهلي في أغراض كثيرة من مدح إلى نسيب إلى هجاء إلى فخر إلى غير ذلك من الموضوعات التي يخوض فيها".<sup>(٢)</sup>

كما كان للصيد دوافعه الخاصة أيضا " فالبيئة العربية حيث تضمن الطبيعة على الإنسان بقوته، فتدفعه إلى أن يلتبس عيشه في الصيد، فنراه كما وصفه امرؤ القيس، رجلاً امتد به العمر ليس له وسيلة يكسب بها قوته سوى امتهانه الصيد فهو يعتمد عليه كل الاعتماد في تدبير شئون حياته:

مُطْعِمٌ لِلصَّيْدِ لَيْسَ لَهُ غَيْرُهَا كَسْبٌ عَلَى كَبْرِهِ

أو هو فقير قليل المال لا يملك سوى سهامه وقوسه قال ذو الرمة:

قَلِيلٌ يَصَابُ الْمَالُ إِنَّا سِهَامُهُ وَإِلَّا زَجُومًا سَهْوَةً فِي الْأَصَابِعِ

(١) الفهرست لابن النديم، (ص: ١٧٦).

(٢) اتجاهات الشعر، (ص: ٤٩٣).

أو هو كما حدثا عنه ذو الرمة أيضا، قد ورث مهنة الصيد عن أبيه الصياد فهو حاذق لحرفته، سريع الأخذ لطريدته. خفيف الشعر ذو أطمار غبراء بالية، كل ما عنده من مال كلاب معلمة على الصيد، فهو مرزوق منه، وهو طعمته وحرفته:

وَمُطَقَّمُ الصَّيْدِ قَبَالَ لُبَيْبِهِ      أَلْفَى أَبَاهُ بِذَاكَ الْكَسْبِ يَكْتَسِبُ  
مُقَرَّعٌ أَطْمَارُ الْأَطْمَارِ لَيْسَ لَهُ      إِلَّا الصَّرَاءُ وَإِلَّا صَيْدُهَا تَشْبُ<sup>(١)</sup>

أما في العصر الإسلامي فقد انشغل الشعراء في عهد الرسول (ﷺ) والخلفاء بالإسلام مما جعلهم يهتمون كثيرا بالموضوعات التي كان يخوض فيها الشاعر الجاهلي ومن بينها الطرد. وفي العصر الأموي انشغل الشعراء بالصراع السياسي بين الأحزاب.

أما في العصر العباسي فقد جثت العديد من العوامل التي أحيت فن الطرد بل وجعلته فنا مستقلا. لا يندرج في ثنايا القصيدة كما كان في الجاهلي. كما اختلفت أيضا طرق الصيد وأدواته وأنواع الحيوانات المصيدة تبعا لتغير البيئة الطبيعية وما جدَّ فيها من حيوانات. ومن هذه العوامل \* التأثير بالكتب التي نقلت عن الفرس والروم والترك. وقد عرفت بالفعل عن هذه الأمم استخدامها للجوارح من الطير في الصيد مثل البارز والشاهين والعقاب والصقر، يدرّبونها على تتبع الحيوان والطير، بالإضافة

(١) الصيد والطرد في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثاني الهجري، د. عباس مصطفى الصالح، ص ٣١.

إلى تدريب القلاب السلوقية وغيرها للاستعانة بها أيضا في صيد أنواع الطير والحيوان<sup>(١)</sup>

كما أن الصيد أصبح يمارس لهوا وتسلية، يمتهونهم فيه رياضة وتدريب وتنشيط للبدن وتعويد للمرء على الصبر وتسل للخاطر المهموم<sup>(٢)</sup> كما أن أماكن الصيد لم تقتصر على الصحراء فقط بل انتقلت إلى ضفاف الأنهار وعلى مياه الخلجان، يقول ابن المعتز:

غدوت للصيد بغتيان نجب      وسب للرزق من غير مسب  
غدا يلاقي الطير حتف من كتب      وهي على ماء الخليج تصطحب<sup>(٣)</sup>

فإذا تتعينا فن الطرد عند ابن المعتز العباسي نجده يتحدث أولا عن أوقات الصيد ومعظم هذه الأوقات في الصباح الباكر في وقت اختلاط ظلام الليل بضياء الصباح، يقول:

لُثَا تَقْرَى أُنْسُ الضَّيَاءِ      مِثْلَ ابْتِغَامِ الثَّقَةِ اللَّمَيَاءِ  
وَسَمِطَتْ ذَوَائِبُ الظُّلْمَاءِ      قَدْ ذُنَا لَعِينِ الْوَحْشِ وَالظَّيَاءِ<sup>(٤)</sup>

أو قوله:

قَدْ أَغْتَدِي وَاللَّيْلُ فِي مَائِهِ      كَأَخْبَثِي قَرْمٍ مِنْ أَصْحَابِهِ  
وَالصُّبْحُ قَدْ كَشَفَ عَنْ أَنْيَابِهِ      كَأَنَّهُ يَضْحَكُ مِنْ ذَهَابِهِ<sup>(٥)</sup>

(١) اتجاهات الشعر، (ص: ٤٩٤).

(٢) الصيد والطرد، (ص: ٤٠).

(٣) الديوان: (٢ / ١١٤)، طبعة دار المعارف.

(٤) الديوان، (٢ / ٤٠٦). بغداد.

(٥) نفسه، (ص: ٤٠٩).

ثم يتحدث بعد ذلك عن أدوات الصيد مثل الشبك، قصب الذئبق

والفخ المنصوب، يقول:

وَأَكْبَاتُ غَيْرُ سَائِرَاتِ	مَا صَائِدَاتُ لَسَنَ بَارِحَاتِ
مَنَابِرًا وَلَسَنَ خَاطِبَاتِ	وَقَدْ عَلَوْنَ غَيْرَ مُكْرَمَاتِ
يُقَرِّبُ الْمَوْتَ مِنَ الْحَيَاةِ	وَمَا طَعَامٌ ظِلُّ بِالْقَلَاةِ
مُخْتَلَفُ الْأَجْنَاسِ وَاللُّغَاتِ	وَبَيْتُ أُنْسٍ صَحْبُ الْأَصْوَاتِ
وَمَا رِمَاحُ غَيْرِ جَارِيَاتِ	تَظَلُّ أَسْرَاهُ مُكْتَفَاتِ
وَلَسَنَ لِلطَّرَادِ وَالْفَارَاتِ	وَلَسَنَ لِلطَّرَادِ وَالْفَارَاتِ
بِرَفْقِ خَرَبٍ مُتَجَرِّ الْعِدَاتِ	يَحْطِئْنَ لَا مِنْ عِلْسِي الْكُمَاةِ
يَنْشِبُ فِي الصُّدُورِ وَاللِّبَاتِ	مَسْتَمَكِينَ لَيْسَ بِذِي إِفْلَاتِ
عَلَى غَوَالِيهَا مُرْتَكِبَاتِ	قَفْلَ إِسَارٍ عُلِقَ الشَّابَاةِ
مِنْ قُصْبِ الرِّيشِ مُجَرَّدَاتِ	أَبْلُةٌ غَيْرُ مَوْقَعَاتِ
أَذْنَابُ جُرْذَانٍ مُنْكَسَاتِ <sup>(١)</sup>	يُحْسِنُ فِي الْقِنَى شَائِلَاتِ

وله قصيدة أخرى في القوس والبنق والتي يقول في أولها:

أَضْفَرَ مَجْدُولٍ مُمَرَّ	لَا مَلِيْدَ إِلَّا بِـوَتَرٍ
ذِي مُقْلَةٍ تَقْلِدِي مَلَنَ	إِنْ مَسَّ الرَّامِي كَخَرٍ
دَامَ عَلَيْهَا قَدَمُهُ <sup>(٢)</sup>	صَنِعَةُ بَارٍ مُقْتَدِرٍ

(١) نفسه، (ص: ٤٢٣، ٤٢٤).

(٢) نفسه، (ص: ٤٤٥)، وما بعدها.

أما عن الجوارح المدربة والتي تستخدم في الصيد، فإن بن المعتز قد قام بوصفها وصفا تفصيليا، فوصف الباشق والكلاب، والبازي، والفرس والفهود والأوز والشاهين، والغراب، والزرقي، فيصف الكلاب فيقول:

قَدْ أَغْتَدِي وَاللَّيْلُ كَالْغَرَابِ	رَاخِي الْقِنَاعَ حَالِكُ الْإِهَابِ
مُلْقَى السُّدُولِ مُغْلَقُ الْأَبْوَابِ	حَتَّى يَبْدَأَ الصُّحُورُ مِنَ الْحِجَابِ
كَفَرَّةٍ جَلَّتْ عَنِ الثَّيَابِ	بِكَلْبَةٍ سَرِيعَةِ الْوُثَابِ
تَسَابُ مِثْلَ الْأَرْقَمِ الْمَسَابِ	كَأَلَمَّا تَنْظُرُ عَنْ شِهَابِ
قَدْ قَصَمَتْهُ بِشَبَا الْأَنْيَابِ	وَمَتَّعَتْهُ جَوْلَةُ السَّهَابِ <sup>(١)</sup>

وكذلك يصف البازي يصورها بأبصارها الثاقبة ومناشرها الحادة

المرهفة كالأسنة المشرعة، يقول:

قَدْ أَغْتَدِي فِي نَفْسِ الصَّبَاحِ	بِقِرْمٍ لِلصَّيْدِ ذِي ارْتِيَاكِ
مَعْلَقِ الْأَخْطَاظِ بِالْأَشْبَاحِ	يَرْكُضُ فِي الْمَوَاءِ بِالْجَنَاحِ
كَرْكُضِ طَرَفِ السَّبْقِ فِي الْبَرَاكِ	قُمْصِي وَشَيْئاً حَسَنَ الْوُشَاحِ
عَلَيْهِ مِنْهُ كَحِجَابِ الرَّاحِ	ذُو جُلْجُلٍ كَالصَّرَصِ الصَّبَاحِ
حَتْفِ لَطِيرِ اللَّجَّةِ السُّبَّاحِ	ذِي الطُّوقِ مِنْهُنَّ وَذِي الْوُشَاحِ

يستجن في الغدران والضحضاح<sup>(٢)</sup>

" وكثيراً ما نجد رحلة الطرد عند شاعرنا موصولة بالصيد ثم الذبح وإطعام الصاحب من لحمه سواء غصا ثم يشرب عليه العقار، وقد

(١) الديوان: (٢ / ٤١٩)، بغداد.

(٢) نفسه: (٢ / ٤٢٩).

يحمل بقية الصيد إلى سامراء أو إلى بغداد لتفريق على الأصحاب  
والأحياب\* (١).

( ١ ) ابن المعتز صورة لمصره، (ص: ٢٢٨).



## شعر الألفاظ

وهو فن جديد قد ظهر في هذا العصر وقد ساهم فيه ابن المعتز بأبيات قليلة لم يشر إليها أحد الدارسين الذين تناولوا شعره فهو يقول مثلاً عن إبرة الحياكة:

ما هنة يا فتي حقيرة      وليس من فضة ولا ذهب  
تكاد لا ترى لفتكها      أمي بما قد تسرت وأبي  
نفتح بأبنا برأسها      فإذا تخرج منه تشد بالذنب<sup>(١)</sup>

(١) الديوان، (٢/١٥٧)، طبعة دار المعارف.

الفصل الثاني

أثر الحضارة  
في البناء الفني للقصة

تدين الحضارة العربية بكل ما ارتبط بها من فكر وفن وشعر للعباسيين سواء بمقوماتها أو بطوابعها التي ركبت في بنيتها واثقلت في نسيجها، بحيث إذا نطقنا باسم العباسيين، ارتسمت في أذهاننا صورًا تلك الحضارة بمشخصاتها وقسماتها المميزة. وهي حضارة نشأت من المزوجة الرائعة بين التراث العربي والتراث الحضاري الإنساني، إذ قامت على سنن رشيدة من الإبقاء على الكيان العربي والروح العربية وإساعة كل ما لدى الأمم المستعربة من حضارات وثقافات متباينة، بحيث أصبح العرب ورثة الهند والفرس واليونان والأمم السامية والأمة المصرية القديمة، وبحيث كونوا من هذا الإرث حضارتهم.. التي سيطرت حقبة طويلة على كل ما عداها من حضارات وسبقته في مختلف فروع الفكر والمعرفة والثقافة.<sup>(١)</sup>

ولذلك لا نعجب إذا وجدنا \* أن الجاهلية قد مضت، وتغير نمط الحياة العربية بالإسلام، فانتشرت الحضارة، واستقر الشعراء وسكنوا القصور، وبقي منهجهم القديم في الشعر، ولم يلحق نظامهم في بناء القصيدة تغيير ذو شأن.<sup>(٢)</sup> فالشاعر العباسي احتفظ لأمنته بمقوماتها اللغوية والفنية الموروثة، ولم يعرض هذه المقومات للفناء، بل أتاح لها كل ما يمكن من أسباب الحياة والازدهار.. فوضع نصب عينيه نماذج الشعر القديم أكثرًا من درسها واستظهارها وتردادها على سمعه وعلى بصره

(١) فصول في الشعر ونقده: د. شوقي ضيف، (ص: ٥٤).

(٢) في النقد الأدبي عند العرب: د. محمد الطاهر درويش، (ص: ٢٧٩).

وعلى ذهنه حتى يفقه رسومها ومعانيها وخواصها فقها تاما دقيقا. وأعانه على ذلك علماء اللغة أكبر عون إذ استشكلوا له هذا الشعر الموروث وحققوه وفسروه ويسروه للدرس والفهم، بأسطين ما يسوده من قوانين نحوية وصرفية واشتقاقية وعروضية، ناثرين ملاحظات مختلفة على فصاحته وبلاغته؛ بحيث ذللوه للشاعر العباسي من جميع أنحائه وسخروه له تسخييرا، وهو تسخير وتذليل لم يتح للشاعر القديم في الجاهلية والإسلام، إذ لم يكن هناك من يعرض له من العلماء ولا من يتكلف الإحاطة به لغرض درسه والتعرف على حقائقه، ومن أجل ذلك لا نغلبو إذا قلنا إن معرفة الشاعر العباسي بالشعر العربي القديم كانت أدق وأعمق وأخصب من معرفة الشاعر الجاهلي والإسلامي به.<sup>(١)</sup>

ولا نغلو أيضا إذا قلنا إن المحافظة على القديم لا يخرج عن كونه مظهرا من مظاهر الحضارة الإسلامية في العصر العباسي. فلقد تحول الشعر القديم بالقياس إلى العباسيين إلى ما يشبه الأم الغاذية، فكل شاعر يتغذى منه غذاء يختلف سعة وعمقا. ولم يكتف كثيرون من الشعراء النابيين بما قدمه لهم اللغويون من هذا الغذاء المتنوع الألوان، فمضوا يرحلون إلى بوادي نجد حتى ينهلوا من ينابيع اللغة مباشرة دون واسطة أو حجاب، وحتى تجري في نفوسهم سلفاتها وكل أسرارها.<sup>(٢)</sup>

"وعلى هذا يصبح من البدهي الذي لا يحتاج إلى جدل طويل أن التراث ضرورة كبرى بارزة من ضرورات فن الشاعر في العصور

(١) فصول في الشعر ونقده، (ص: ٥٦ - ٥٧).

(٢) نفسه، (ص: ٥٧).

الأدبية المختلفة. وبخاصة في العصور التي تلت العصر الجاهلي، والتي يكشف التحليل الفني لقصائد شعرائها كيف عرضت عليهم بسل كيف عرضوا على أنفسهم نصوص التراث الشعري مدونة ومشروحة، مما فتح أمامهم باب الاختيار لما يتأثرون به، مما أسهم في تقدمهم بالفن الشعري في شكله ومحتواه استنادا إلى هذا التراث بالدرجة الأولى<sup>(١)</sup>

ولا شك أن الذوق النقدي المحافظ في العصر العباسي بصفة خاصة قد شجع التراث كما شجع العودة إليه، ورأى أهمية التزام الشعراء به، فنجد ناقدا كابن قتيبة يقول: "ليس لمتأخر من الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين فيقف على منزل عامر، وبيكي عند مشيد البنيان؛ لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافي، أو يرحل على حمار أو بغل، فيصفهما؛ لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يرد على الميأة العذبة الجواري؛ لأن المتقدمين وردوا الأواجز الطوامي، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والورد والأس؛ لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيع والحنوة والعرار"<sup>(٢)</sup>، ولكن ليس معنى هذا أن يقف الشاعر العباسي أسيرا للشعر القديم كما نفهم من قول ابن قتيبة، بل عليه أن يتخذ منه ركيزة فقط ينطلق منها إلى حياته الحضارية الجديدة ولهذا نجد في هذا العصر من يقابل تشدد ابن قتيبة بتشدد آخر مثله، فيقول:

دَعِ الْأَطْلَالَ تَسْفِيهَا الْجَنُوبُ      وَكِبْلِي عَهْدَ جِدَّتِهَا الْخَطُوبُ  
وَحَلِّ لِرَاكِبِ الْوُجَاءِ أَرْضًا      تَحْبُ بِهَا التَّجِيَّةُ وَالتَّحِبُّ

(١) القصيدة العباسية: قضايا واتجاهات، د عبد الله التطاوي، (ص: ٢٨).

(٢) الشعر والشعراء: لابن قتيبة، (٧٤/١)، وما بعدها.

بِلَادُ نَبْهَا عَشَرَ وَطَلَحَ      وَأَكْثَرُ صَيْدِهَا صَبَّحَ وَذَيْبُ  
وَلَا تَأْخُذُ عَنِ الْأَعْرَابِ لَهْوًا      وَلَا عَيْشًا فَعَيْشُهُمْ جَدِيدُ  
دَعِ الْأَلْبَانَ يَشْرَبُهَا رِجَالٌ      رَقِيقُ الْقَيْشِ بَيْنَهُمْ غَرِيبُ<sup>(١)</sup>

فالشاعر العباسي في حياته ما يشغله عن الحبيب الراحل والطفل البالي ففي بغداد لهو وقصف، وفي بغداد قينة وغلّام، وغناء ومرح.<sup>(٢)</sup> وفي بغداد قصور ومروج، وفي بغداد روافد ثقافية جديدة، وأجناس مختلفة. كل ذلك يجب أن يراعى بحيث "كان على الشاعر أن يقوم بعملية موازنة دقيقة بين ما يرضي أذواق المستمعين أو المعجبين أو النقاد أو الممدوحين وبين ما يرضي طموحه هو ورغبته في أن يأتي بشيء جديد استجابة لملكة التجديد الكامنة في نفسه، وتحررا مما يظنه أحيانا رباطا يشده إلى الماضي وهو يريد الانفلات منه والانفكاك عنه، إما لعقيدة ذاتية، وإما تقليدا لغيره الذي يشاركه الحياة في مجتمعه"<sup>(٣)</sup> وانتهى الأمر إلى "أن الفحول في احتذائهم الشعر الجاهلي لم يكونوا مجرد نقله. أي لم يكونوا نساخين لأثار القدماء، وإنما كانوا يدورون في فلكهم، يأخذون بتخطيطهم العام فقط مادام نقاد العصر قد أجمعوا على ضرورة التمسك بالأسلوب القديم"<sup>(٤)</sup> دون أن يصادر هذا الأمر قدراتهم الابتكارية الخاصة التي ظهرت - أكثر ما ظهرت - في التصوير، بل امتدت النزعة الابتكارية

(١) ديوان أبي نواس، (ص: ١٥)، تحقيق: أحمد عبد المجيد الغزالي.

(٢) مقارنة بين الشعر في العصر الأموي والعصر العباسي: د. عزيز فهمي، (ص: ٣٢٨).

(٣) الشعر والشعراء في العصر العباسي: د. مصطفى الشكعة، (ص: ٤٠٣).

(٤) الحياة الأدبية في البصرة: د. أحمد كمال زكي، (ص: ٣٤٢).

لتجدد في شكل القصيدة، إذا وجدت من دوافع التجديد ما يساعدها على ذلك، وقيل هذا كله لا يخفى ما أضافوه إلى مضمونها مواكبة منهم الروح العصر واستجابة لواقعه<sup>(١)</sup>.

فإذا أردنا بعد ذلك أن نتحدث عن أثر الحضارة الجديدة على البناء الفني للقصيدة في شعر ابن المعتز نجد " ابن المعتز معتدلاً في فنه وسطاً في أسلوبه، موازناً بين القديم والجديد"<sup>(٢)</sup> " فلم يتوان في صياغة كثير من قصائده ملتزماً الشكل النمطي للقصيدة العربية الجاهلية من صياغة المقدمات بمستوياتها المختلفة إلى تصوير الرحلة في جوف الصحراء بأجوائها المتميزة، إلى محاولة إثبات البراعة الفنية في الانتقال أو التخلص إلى الاستعانة بكثير من الصيغ والأساليب والصور في المعالجة الموضوعية بعد التخلص إلى اللجوء إلى الخواثيم التقليدية للقصيدة"<sup>(٣)</sup>.

فإذا أنشد لحاضره تبذت حلي التصور وتمتعات الزخارف في الألفاظ والعبارات والصور من غير إضعاف للمعنى أو إجهاد للفكر فاجتمع في شعره مجالسه المؤنسة وأغراضه اللاهية"<sup>(٤)</sup>.

وكل ما نستشف منه روح العصر وحضارته. والذي سيتضح من خلال تناول البناء الفني للقصيدة من مقدمات وتخلص وخواثيم، وموسيقى وأسلوب... وغيره.

(١) القصيدة العباسية: د. عبد الله النطواي، (ص: ٣٠).

(٢) ابن المعتز صورة لعصره، (ص: ٢٦٨).

(٣) القصيدة العباسية، (ص: ١٢١).

(٤) ابن المعتز صورة لعصره، (ص: ٣٦٨).

## مقدمة القصيدة

" المقدمة ظاهرة من الظواهر الفنية التي صاحبت القصيدة العربية على اختلاف الأعصار التي مرت عليها والأمصار التي انتقلت إليها. وهي ظاهرة لم تتخذ شكلاً واحداً، بل تعددت أشكالها وتوعدت صورها، لا في العصور التي تلت العصر الجاهلي، بل في أول عهدها يوم أن أصل شعراء الطليعة المبدعة في الجاهلية لقصائدهم مجموعة من التقاليد الفنية التي كان من أشهرها حرصهم على افتتاح مطولاتهم بألوان مختلفة من المقدمات. فقد كانوا يستهلون قصائدهم إما بالمقدمة الطليعية، أو المقدمة الغزلية، أو مقدمة وصف الظعن أو مقدمة الشباب والشيب أو مقدمة وصف الطيف، أو مقدمة الفروسية<sup>(١)</sup> والسمة العامة الشائعة هي وصف الأطلال مختلطاً بالنسيب وأن القلة النادرة هي نعت الخمر أما وصف الطبيعة فيعد على نحو من الانحاء شائعاً في العصر الجاهلي إذا اعتبرنا استعانتهم بمشاهدها على التعبير عما يجول في نفوسهم داخل في هذا الوصف أو محدوداً منه".<sup>(٢)</sup>

" واحتذى الشعراء الأمويون والعباسيون بهم وأخذوا يحرصون على افتتاح مطولاتهم بتلك المقدمات، وكل ما عدى لنا من الفروق في أثناء دراستنا لهذه الظاهرة عندهم أن الشعراء الأمويين كثرت الألوان التقليدية

(١) مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول: د. حسين عطوان، (ص: ٢٥٦).

(٢) مقدمة القصيدة عند أبي تمام والمعتزلي: د. سعد شلبي، (ص: ٣٦).



من الفواتح في صور قصائدهم، كما قلت الألوان المبتدعة منها عندهم. أما الشعراء العباسيون فحافظوا بدورهم على بعض المقدمات الموروثة غير أنهم حوروا فيما استبقوه منها بحذفهم الكثير من عناصرها البدوية، وكما استحدثوا أنواعا جديدة من الفواتح استمدوها من بيئتهم المتحضرة وحياتهم المترفة".<sup>(١)</sup> فقد أعرض عنها كثير من شعراء العصر بالدخول مباشرة إلى موضوعاتهم أو البدء بالغزل والوصف ووصف الطبيعة خاصة أو ذكر مجالس الخمر والغناء، أو ضمهما معا، وربما مزج الشاعر العناصر الثلاثة: الطبيعة، ووصف مجالس الخمر والغناء، والغزل".<sup>(٢)</sup>

أما أثر الحضارة على مقدمات ابن المعتز فنجدته تحرر من المقدمة في قصائد كثيرة في ديوانه حتى في القصائد التي تحتاج إلى مقدمات مثل قصائد المديح وغالبا ما يحدث هذا مع بعض الأفاضل من الممدوحين الذين يستأثرون كلية بإعجاب الشاعر، إزاء بعض الموقف والأحداث الجسيمة التي تستحوذ على مشاعره ووجدانه فلا يستطيع التحكم في انفعاله أو ضبطه ومن ثم، يدخل في الموضوع مباشرة، دون مقدمات غزلية أو طلبية".<sup>(٣)</sup>

فقرأه يمدح الموقف ويدخل في المدح بدون مقدمات، فيقول:

(١) مقدمة القصيدة العربية، (ص: ٢٥٧).

(٢) دراسات في الأدب العربي، العصر العباسي: د. محمد زغلول سلام، (ص: ٢٠٥).

(٣) الخصومة بين القدماء والمحدثين: د. عثمان موافي، (ص: ٢٣٦).

يا ناصر الدين إذ هُدَّتْ قواعدُ وأصدَقَ الناسَ في بُؤسٍ وإنعام  
وقائدُ الخيلِ مذ شُدَّتْ مآزرُهُ مذلَّلَاتِ ياشِرَاجٍ وإلجام<sup>(١)</sup>  
ويقول في مطلع قصيدة يمدح فيها عبيد الله بن سليمان:  
أقدم على طير السلامة وأقدم أبدا وعش في خير حال وأنعم  
يا صاحب الفكر العميق ومضى الـ رأي الوثيق المستمر الخكم<sup>(٢)</sup>

ولعلنا نلاحظ في هذه الابتداءات مناسبة المديح للممدوح فالموفق  
أبو الخليفة المعتضد كان فارساً مغواراً وعبيد الله بن سليمان كان وزيراً  
معروفاً بحصافة الرأي وعمق الفكر.

وأول ما نقف عنده من المقدمات المقدمة الطللية التي أصابها ما لم  
يصب غيرها من التجديد سواء من الناحية الموضوعية أو من الناحية  
الفنية، فهي من الناحية الموضوعية لم تعد نوعية تسكب فيها الدموع حصرة  
على المنازل الدائرة وعهود الحب الضائعة فحسب بل تحولت أيضاً عند  
بعضهم إلى منابر يعلنون من فوقها آراءهم في الحياة.<sup>(٣)</sup>

ونجد ابن المعتز لا يستوقفنا على طلل بال قديم، إنما الحضارة  
والمكان تحاصرانه من كل جانب فنجده يستوقفنا على سدره الوادي التي  
يرويه المشراب العذب، لأنها السدره التي كان يجتمع تحت ظلها على  
ضفاف تلك العين الجارية إلى صاحبتة مبيها رأيه في الحب والهوى وهو  
أن الإنسان يكون كاذباً في حبه إن لم يشكك آلام فراق الحبيب. يقول:

(١) الديوان، (١ / ٥٠٩)، طبعة دار المعارف.

(٢) نفسه، (١ / ٥١٢).

(٣) د. حسين عطوان، (ص: ٢٢).

أيا سُدْرَةَ الوادي عَلَى المَشْرِعِ القَسْدِ      سَقَاكِ حَيًّا حَيُّ الفَرَى مَيِّتُ الجَدْبِ  
كَذَبْتُ الهَوَى إِنْ لَمْ أَقِفْ أَشْتَكِي الهَوَى      إِلَيْكَ وَإِنْ طَالَ الطَّرِيقُ عَلَى صَحْبِي  
وَقَفْتُ بِهَا وَالصُّبْحُ يَنْتَهِبُ السُّجَى      بِأَضْوَائِهِ وَالتَّجَمُّ يَرْكُضُ فِي الغَرْبِ  
أَصَانِعُ أَطْرَافِ الدُّمُوعِ فَمُقَلَّتِي      مُوقَرَّةٌ بِالدَّمْعِ غَرَبًا عَلَى غَرْبِ  
وَهَلْ هِيَ إِلَّا حَاجَةٌ قُضِيَتْ لَنَا . وَلَوْ تَحَمَّلْنَا فِي طَاعَةِ الحُبِّ<sup>(١)</sup>

ونلاحظ أيضا في الأبيات السابقة أن ابن المعتز يشتكى الحب لصاحبه طوال الطريق حتى وإن مل صاحبه ذلك. وأظن أنه كان أهون على صاحبه أن يوقفه ويستكيه مثلما كان يفعل امرؤ القيس بدلا من أن يقطع نياط قلبه طوال صحبته، يشتكى ألم الحب ويغالب دموعه.. ولكنها الحضارة بظرفها ورقتها.

وكان من المعروف أن الشعراء الجاهليين والأمويين كان يدعون بالسقيا لمنازل صواحيبهم، وأن منهم من وصف خضرتها وما نما في أنحائها من أعشاب ونباتات أما الشعراء العباسيون فيشركونهم في ذلك ويتوسعون فيه إلى حد كبير، حتى ليصبح وصف الأمطار التي نزلت بالديار، وما أعقبها من خضرة وورود وأزهار ظاهرة عامة بينهم لا يتميز بها شاعر منهم.<sup>(٢)</sup> وفي هذا يقول ابن المعتز مازجا بين المطر والطبيعة ومجالس الغناء. وكلها أشياء حضارية جديدة:

وقال:

يَا أَرْضَ غَمَى سَقَّتْكَ أَمْطَارُ      فَيْكَ لِقَائِي مَا عِشْتُ أَوْطَارُ

(١) الديوان، (٣١٥/١)، المعارف.

(٢) مقدمة القصيدة العربية، (ص: ٢٤).

يا طيبَ رِيَاكَ حِينَ يَتَسَمُّ الـ فَجَرُ وَفِيهَا لِلرَّوْحِيِّ أَغْبَارُ  
كَأَلَمَّا شَابَهَا الْقَرْفُلُ أَوْ ذُرٌّ عَلَيْهَا الْكَافُورُ عَطَارُ  
وَمَجْلِسِي جَلُّ أَنْ تُتَجَبَّهُ خَيْثُ بِهِ مَزْهَرٌ وَمَزْمَارُ<sup>(١)</sup>

فهو في هذه المقدمة يخاطب فينا حاسة البصر وحاشية الشم وحاسة السمع. وديار ابن المعتز ليست كالديار القديمة، خيمة في وسط صحراء بل دار مقامة على نهر كما أنها في "أذهان أبناء العلية من أغنياء بغداد صورة بناء فاره ذي جدر وحجرات ومقاصير من آجر وغيره".<sup>(٢)</sup> يقول:

لَمَنْ دَارٌ وَرَبْعٌ قَدْ تَعَفَّى بَنِيهِ الْكَرْخُ مَهْجُورُ التَّوَاخِ  
إِذَا مَا الْقَطْرُ خَلَاةٌ تَلَاَقَتْ عَلَى أَطْلَالِهِ هَوْجُ الرِّيحِ  
مَحَاةٌ كُلُّ هَطَّالٍ مُلِحٌ يَوْبِلُ مِثْلَ أَفْوَاهِ اللِّقَاحِ  
قَبَاتٌ بَلِيلٌ بِأَكْبِيَةِ تُكْوِلُ ضَرِيرَ النِّجْمِ مَتَّهَمُ الصَّبَاحِ<sup>(٣)</sup>

ومن مظاهر الحضارة الجديدة في المقدمة استتطاق الطلل ومحاورته فإذا كان الحوار القصصي في الشعر قديما فأظن الحوار مع الطلل في مقدمة غزلية يكون جديدا. يقول ابن المعتز مستخدما أسلوب الحجة الذي كان سائدا في هذا العصر:

تَعَاوَدَتْكَ الْعَهَادُ يَا طَلَّلُ خَذْتُ عَنِ الظَّاعِنِينَ مَا فَعَلُوا  
فَقَالَ لَمْ أَدْرِ غَيْرَ أَلْهُمُ صَاحَ غُرَابٍ بِالتَّيْنِ فَاحْتَمَلُوا  
لَا طَالَ لَيْلِي وَلَا نَهَارِي مَنْ يَسْكُنُنِي أَوْ يَرُدُّهُمْ قَقْلُ

(١) الديوان، (٢/٢٥٥ م).

(٢) مواقف في الأدب والنقد: د. عبد الجبار المطلبي، (ص: ٣٢).

(٣) الديوان، (١/٢٤٣)، المعارف.

وَلَا تَحَلَيْتُ بِالرِّيَاضِ وَلَا أَلِ  
عَلَيَّ هَذَا فَمَا عَلَيْكَ لَهُمْ  
وَأَلِي مَقْفَلُ الضَّمَائِرِ مِنْ  
فَقَالَ مَهْلًا يَمَعُهُمْ أَبَدًا  
هِيَاهُتْ إِنَّ الْمُحِبَّ لَيْسَ لَهُ  
تَرَكَّتْ أَيْدِي التَّوَى تَعْمُودُهُمْ  
فَقُلْتُ لِلرُّكْبِ لَا قَرَارَ لَنَا  
وَلَمْ نَزَلْ نَخِيطُ الْبِلَادَ بِأَعْمَ  
نُورٍ وَمَغْنَايَ مِنْهُمْ غَطَّلُ  
قُلْتُ خَنِينَ وَذَمْعَةً تُشِلُّ  
حُبِّ سَوَاهُمْ مَا حَثَّتِ الْإِبِلُ  
إِنْ كَرَلُوا مَرَّلاً وَإِنْ رَخَلُوا  
هَمَّ بِغَيْرِ الْهَوَى وَلَا شَغْلُ  
وَجِئْتِي عَنْ حَدِيثِهِمْ قَسَلُ  
مِنْ دُونِ سَلَمَى وَإِنْ أَيْ الْعَدَلُ  
فَافِ الْمَطَايَا وَالظِّلُّ مُعْتَدِلٌ<sup>(١)</sup>

وأظن أن الأبيات في المقدمة السابقة تذكرنا بمقدمة وصف الظعن،  
والتي لا تندرج في مقدمة قصائد الشعر العباسي فحسب \* بل تأخذ مع ندرتها  
شكلاً جديداً لا توصف فيه الهودج والثياب التي تكللها، ولا الحادي الذي  
يرشد القافلة، ويقودها، ولا الرمال التي تسير فيها وما يكابده المرتحلون  
من مشقة وعنت. بل توصف فيه آثار الرحيل في نفوس المحبين.. فهم إنما  
يعنون بالمعاني التي يثيرها الفراق والوداع في نفوسهم ويهملون رسم  
مشاهد التحمل والارتحال. وسبب ذلك أنهم فارقوا الحياة الراحلة السائرة  
واستقروا في حياتهم وتحضروا.<sup>(٢)</sup> ومن ذلك يقول ابن المعتز:

لَمَّا طَنَنْتُ فِرَاقَهُمْ لَمْ أَرْقُدِ      وَهَلَكْتُ إِنْ صَحَّ التَّطَنُّنُ أَوْ قَدِ  
مَا زِلْتُ أَرعى كُلَّ نَجْمٍ غَائِبٍ      وَكَأَنَّ جَنِي فَوْقَ جَمْرِ مَوْقِدِ  
وَرَزَا إِلَيَّ الْفَرْقَدَانِ كَمَا رَكْتُ      زُرْقَاءُ تُنْظَرُ مِنْ نِقَابِ أَسْوَدِ

(١) الديون، (١/٢٣٥-٢٧٦)، دار المعارف.

(٢) مقدمة القصيدة العربية، (ص: ٣٣).

وَالْتَسَرُّ قَدْ بَسَطَ الْجَنَاحَ مُحَوِّمًا  
وَتَرَى الدُّرِّيَّ فِي السَّمَاءِ كَأَنَّهَا  
سَلَفَتْهُمْ زَفَرَاتُ قَلْبٍ مُحَرِّقٍ  
مَا أَسْرَعَ التَّفَرُّقَ إِنْ عَزَمُوا غَدًا  
حَتَّى الْقِيَامَةِ طَالِبًا لَمْ يَصْطَدِ  
بَيْضَ بَادِحِي يَلْسُوحُ بِقَدَقِدِ  
وَسَجَالُ دَمْعٍ بِالدِّمَاءِ مُوَزَّدِ  
لَا شَكَّ أَنَّ غَدًا قَرِيبَ الْمَوْعِدِ<sup>(١)</sup>

ونختم حديثنا عن المقدمة الطللية بثورة ابن المعتز على الأطلال  
سالكاً مسلك أبي نواس في هذا المضمار فنجدته يتمرد على الأطلال في  
سنة مواضع من خمرياته. يقول:

أَفْ مِنْ وَصَفِ مَرَلٍ  
غَيْرِ الرِّيحِ رَسَمُهُ  
وَمَقَى اللَّهُ نَهْرَ غَرٍ  
حَيْثُ لَا لَوْمَ فِي الْمَجْرٍ  
بِعُكَاظِ قَحْوَمَلٍ  
بِجَنُوبٍ وَتَمَالٍ  
شَى قَبَابِ الْخَوَلِ  
نَ فَمَا شِعَتْ فَاجْهَلِ<sup>(٢)</sup>

ويقول أيضاً:

أَكْثَرْتَ يَا عَاذِلِي مِنَ الْغَدَلِ  
أَحْسَنُ مِنْ وَقْفَةٍ عَلَى طَلَلٍ  
كَأْسُ مُدَامٍ أَعْطَيْتَكَ فَضَلَّتْهَا  
إِنِّي عَنِ الْعَاذِلِينَ فِي شَغَلٍ  
وَمِنْ بُكَاءٍ فِي إِسْرِ مُحْتَمِلٍ  
كَفُّ حَيْبٍ وَالْفِعْلُ مِنْ قَبْلِي<sup>(٣)</sup>

ولعل يكون ذلك من تقليدات ابن المعتز فهو لم يترك جديداً في هذا  
العصر إلا وقلده ونسج على منواله.

(١) الديوان، (٢٥١/١)، دار المعارف.

(٢) الديوان، (٢٩١/٢)، المعارف.

(٣) نفسه، (٣٠٠/٢).

أما عن المقدمة الغزلية فنجد الشاعر يمزج بين الغزل والطبيعة وعواطفه مزجا تاما كما نرى في قوله:

أبي الله ما للعاشقين غراء      وما للملاح الغايات وفاء  
توكن نفوسا نحوهن صواديا      مصرات داء ما لهن شفاء  
يودن حياض الماء لا يستطعتها      وهن إلى برد الشراب ظماء  
وجئت بأطلال الدجيل ومائه      وتكم طلل من خلفهن وماء  
إذا ما دلت من مشرع فعمقت لها      عصي وقانت زارة وزفاء  
خليتي بالله الذي أشما له      فما الحب إلا آفة وبكاء  
كما قد أرى قالا كذا وكذا      يكون سرور في الهوى وشقاء<sup>(١)</sup>

ومن المفارقات العجيبة لهذه الحضارة أن يبدأ الشاعر قصيدة في مدح خليفة بمقدمة غزلية في المذكر يقول ابن المعتز وهو يمدح المعتضد:

غدر الهوى عند القدول رشا      فاليوم حبي فيه حين كشا  
حق الظلام البدر حين بدا      واهتز غصن البان حين مشى  
يسقيك من خمير بمقلبي      كانت يزيدك شره غطشا  
عجل الرقيب بلحظ عاشقه      أو دام في وجنابه خدشا  
أدرجت في الأحشاء فتنة      فسعى البكاء بسررها وزشى  
يا ناصر الإسلام إذ خذلت      دعوائه فابتل وانتعشا<sup>(٢)</sup>

عجبا أي نصر للإسلام بعد هذا. إنها الخمر والغناء والقيان فقد

أخذت بعقول العقلاء.

(١) الديوان، (٣٠٧/١)، المعارف.

(٢) نفسه، (٤٩٠/١).

ومن عجيب المقدمات أيضا أن يستخدم مقدمة غزلية في رثاء  
 الخليفة المعتضد. خالطا فيها الغزل بالطبيعة بشكوى الزمان. يقول:  
 صدت وأغررت طيفها بحميم      إن الفراق لغرم بالمغرم  
 وبدت فحسبك من وشاح ناطق      كثرت وساوسه وحجل مفحم  
 وكان فاهها بعد آخر رقدة      متحجر بعقار دن معلم  
 بعج الفرات لها فسلسل جدولا      متسربا في كرمها كالأرقم  
 قالت شريفة ما لجفك ساهرا      قلقا، وقد هدأت عيون الثوم  
 ما قد رأيت من الزمان أخل بي      هذا، وتحت الصنبر ما لم تعلّم  
 يا نفس، صبرا للزمان وريبه      فهو المنيء بما كرفت فلّمي  
 إن الذي حاز الفضائل كلها      هو ذاك في فقر الضريح المظلم<sup>(١)</sup>

فهو في هذه المقدمة أراد أن يختلق لنفسه مدخلا لهذا الرثاء فلأتى  
 بشريفة حبيبته والتي سألته عن سر سهره وبكائه فأشار إليها بما قال في  
 البيت الأخير.

والشعراء في العصر العباسي " يكثرّون من الإلمام بوصف شبّابهم  
 في مقدمات قصائدهم، وهو وصف لا يتفجعون فيه على شبّابهم وما كان  
 لهم فيه من صولات وجولات، ولا يجزعون من مشيبيهم فحسب، بل  
 يضمنونه نظراتهم العميقة إلى الدهر، مرددين أن أعمارهم لم تطل بهم  
 حتى تشتعل رؤوسهم شبّابا، وإنما مصائب الدهر هي التي أشابتهم وهم في  
 ريعان شبّابهم".<sup>(٢)</sup>

(١) الديوان، (٣٦٢/٢)، المعارف.

(٢) مقنة القصيدة العربية، (ص: ٢٩).



ويقول ابن المعتز في ذلك رابطا بين الشيب وقرب الموت

ووجوب الزهد في الدنيا:

قَالَتْ أَرَى عَجَبًا أَنْ نَوَّرَ الشَّعْرُ      مَهْلًا سَلِمَتِي فِهَذَا الشَّيْبُ وَالْكِبَرُ  
تَقَسَّمَتْنِي هُمُومٌ بَيْنَ وَالْجَنَّةِ      طَارَتْ عَلَى الْقَلْبِ مِنْ بَرَانِهَا شُرُ  
وَحَفَّتْ أَلَا أَرَى شَيْئًا أَسْرُ بِهِ      وَقَدْ تَقَرَّبَ حَتْفِي وَانْتَهَى الْعُمْرُ  
وَحَفَّتْ مِنِّي طَرِيقُ اللَّهِوْ وَاعْتَذَرْتُ      إِلَى السُّقَاةِ يَدِي وَالْكَأْسِ تَبَسُّدُ  
وَقَدْ تَمَاسَكْتُ عَنْ جَهْلِي وَأَحْكَمْتِي      أَطْوَارُ دَهْرٍ لَهَا فِي مَفَرِّي أَمْرُ<sup>(١)</sup>

ولم يقتصر تجديد العباسيين على التحوير في أطر المقدمات التقليدية ولا على التغيير في مضامينها، ولا على إهمالهم لساترها، فقد عمدوا إلى ابتداع مقدمات جديدة كان من أهمها المقدمة الخمرية التي تطور الأخطل بها وحقق الكمال والاستقلال لها، والتي دعا أبو نواس دعوة قوية إلى الإكثار منها واستهلاك القصائد بها، كما أصلها هو في أوائل قصائده. وإذا غير شاعر ممن كانوا يعاصرونه يشاركونه في دعوته ويستجيبون له ويقتدون به. وإذا بعض الشعراء في العصر العباسي الثاني يستهويهم هذا التقليد الجديد الذي دعا إليه ورسخه هو وأمثاله من الشعراء المجان<sup>(٢)</sup>. وإذا ابن المعتز يقلد أبا نواس ويفتح قصائده بها كما قلنا في نهاية المقدمة الطللية. ومن قوله في ذلك أيضا:

خَلِيلِي يَا اللَّهَ أَفْعَدَا نَضْطِيجَ بِلَا      قِفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي خَلِيلٍ وَمَنْزَلِ  
وَيَا رَبِّ لَا تُنَبِّتْ وَلَا تُسْقِطِ الْحَيَا      بِسَقَطِ اللَّوْى بَيْنَ الدُّخُولِ فَخَوْفِ

(١) لديوان، (٣٩٥/٢)، المعارف.

(٢) مقدمة القصيدة العربية، (ص: ٢٦٢).

وَلَا تُفَرِّ مِقْرَاةً امْرِئِ الْقَيْسِ قَطْرَةً مِنْ الْغَيْثِ وَارْجُمُ سَاكِنِيهَا بِجَنْدَلٍ  
وَلَكِنْ دِيَارَ اللَّهِ يَا رَبِّ فَاسْقِهَا وَذُلْ عَلَى خَضِرَاتِهَا كُلِّ جَنْدَلٍ<sup>(١)</sup>

وكان من تأثير الحضارة أيضا الربط بين الخمر وأماكن شربها وما يصحب الشراب من غناء وطرب. يقول ابن المعتز:

أَمْكَنْتُ عَادِلِي مِنْ صَمْتِ آبَاءِ مَا زَادَهُ التَّهَيُّ شَيْئاً غَيْرَ إِغْرَاءِ  
أَيْنَ التَّوَرُّغِ مِنْ قَلْبِ يَهِيمٍ إِلَى حَانَاتِ لَهْوٍ غَدَا بِالْعُودِ وَالنَّاءِ  
وَصَوْتُ قَتَائِلَةِ التَّغْرِيدِ نَاظِرَةٌ بَعَيْنٍ طَفِي تَرِيدُ التَّوَمَّ حَوْرَاءِ  
جَرَّتْ ذُبُولَ الْبَابِ الْبَيْضِ حِينَ مَنَّتْ كَالشَّمْسِ مُسِيلَةَ أَذْيَالِ لَالَاءِ  
وَقَرَعَ نَاقُوسٌ ذَبْرِيٍّ عَلَى شَرْفٍ مُسَيِّحٍ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ دَعَاءِ<sup>(٢)</sup>

وأحيانا يبدأ بأثر الخمر على العقل حتى يجعله كالأموات. يقول:  
خَلِيلِي قُمْ حَتَّى تَمُوتَ مِنَ السُّكْرِ بِحَالَةٍ غَمَّارٍ مَمَّاكٍ بِلا قَبْرِ  
وَتَشْرَبُ مِنْ كَرْمِ خَيْبَةٍ ذَهَبِيَّةٍ وَتَصْفَحُ عَنْ ذُلِّ الْحَوَادِثِ وَالشُّعْرِ<sup>(٣)</sup>

وأحيانا يبدأ بالدعاء بالسقيا لأماكن الشراب، يقول:

سَقَى الْجَزِيرَةَ ذَاتَ الظِّلِّ وَالشَّجَرِ وَذَيَرَ عَيْدُونَ قَطَالًا مِنَ الْمَطَرِ<sup>(٤)</sup>

ونراه يقسم بالخمر في بعض المقدمات ويمن عصرها ويمن قنمها

يقول:

لَا وَالْمُدَامَةِ، وَبِكَ، لَا وَحَيَاتِهَا وَذِمَامِ غَاصِرِهَا وَحَقِّ سُقَاتِهَا

(١) الديوان، (٢٩٠/٢)، دار المعارف.

(٢) نفسه، (٢٠٨/٢).

(٣) نفسه، (٢٤٩/٢).

(٤) الديوان، (٢٥٠/٢)، المعارف.

مَا هَمَّ قَلْبِي أَنْ يَهْجِمَ بِغَيْرِهَا فَلَذَاكَ قَلْبِي مُغْرَمٌ بِصِفَاتِهَا<sup>(١)</sup>

وكان من أثر الحضارة الاستمتاع بمظاهر الطبيعة مما أوجد لونا آخر من المقدمات هي مقدمة وصف مظاهر الطبيعة من سحب وبروق وربيع يقول ابن المعتز في ذلك:

وَسَارِيَّةٌ لَا تَمْلُ الْيَكَا  
جَرَى ذَمُّهَا فِي خُدُودِ الْفَرَى  
سَرَتْ تَقْدَحُ الصُّبْحَ فِي لَيْلِهَا  
بِشَرِّ كَهْدِيَّةٍ تُنْطَضِي  
فَلَمَّا دَنَتْ جَلَجَلَتْ فِي السَّمَاءِ  
رَعْدًا أَجَشَّ كَجَرِّ الرِّحَى  
ضَمَانٌ عَلَيْهَا ارْتِدَاغُ الْيَفَا  
عَ بِأَنْوَارِهَا وَاعْتِجَارُ الرُّبَى  
فَمَا زَالَ مَدْمَعُهَا بِأَكْبَا  
عَلَى الثَّرْبِ حَتَّى اكْتَسَى مَا اكْتَسَى  
فَأَضَحَّتْ سَوَاءً وَجُوهَ الْبِلَادِ  
وَجُنَّ الثَّبَاتُ بِهَا وَالتَّقَى<sup>(٢)</sup>

ويقول أيضا في ذلك:

وَرَوْضَةٌ بَاتَ طُلُّ الْغَيْثِ يَنْسُجُهَا  
حَقَى إِذَا نَجَّتْ أَحْيَى يُدَبِّجُهَا  
تَبْكِي عَلَيْهِ بِكَاءِ الصَّبِّ فَارْقُهُ  
إِلْفٌ فَيُضْحِكُهَا طَوْرًا وَيُهْجُجُهَا  
إِذَا تَنَفَسَ فِيهَا الْوَرْدُ نَرَجَسَهَا  
نَاعَى ذِكِّي خُزَامَاهَا بِنَفْسِجُهَا<sup>(٣)</sup>

وأحيانا يبدأ قصائده بوصف القصور، فيقول:

سَلَامٌ عَلَى غَيْرِ الدِّيَارِ السَّاسِ  
وَدِمْنَةٌ رُبْعٌ قَدْ تَقَبَّرَ دَارِسِ  
وَقَبْتُ سَلَامِي مَا حَيْثُ لَمْ جُلِسِ  
عَلَى قَصْرِ بِسْطَامٍ أَمِيرِ الْمَجَالِسِ  
مُطْلٌ عَلَى رَوْضِ أَيْتِي كَأَنَّكَ  
مُقَادِمٌ خُضِرٌ فَوْقَ فُرْشِ غَرَائِسِ

(١) نفسه، (٢٢٣/٢).

(٢) اللديون، (٢١٧/١)، المعارف.

(٣) اللديون، (٢٣١/٢).

وَكَمْ فِيهِ مِنْ قُمْرِيٍّ عَوْدٍ مُفْرَدٍ وَمِنْ كَارِعٍ فِي كَأْسِهِ غَيْرِ حَاسِبٍ<sup>(١)</sup>

والآن بعد أن استعرضنا أثر الحضارة على المقدمات فليس "معنى ذلك، أن البداية، هي العنصر الوحيد العام في البناء الفني، فنهاية القصيدة لا تقل أهمية عن بدايتها؛ ذلك لأنها ختام القصيدة، وآخر ما يعلق بالذن للسامع منها".<sup>(٢)</sup>

والحقيقة أنه كان من أثر الحضارة على ختام القصيدة هو التناسب الدقيق بين الغرض من القصيدة والخاتمة، فإذا كانت القصيدة في الفخر كانت الخاتمة موجزا لها وهكذا إذا كانت في المدح أو في الرثاء... فنجد ابن المعتز في قصيدة يفتخر فيها بنفسه يختمها بقوله:

أَنَا ابْنُ الَّذِي سَادَهُمْ فِي الْحَيَاةِ وَسَادَهُمْ بِي تَحْتَ الْقُرَى  
وَمَا لِي فِي أَحَدٍ مَرْغَبٌ بَلَى فِي يَرْغَبُ كُلُّ الْوَرَى  
وَأَسْهَرُ لِلْمَجْدِ وَالْمُكْرَمَاتِ إِذَا اكْتَحَلَتْ أَغْنَى بِالْكَرَى<sup>(٣)</sup>

وفي قصيدة يمدح فيها المعتضد يختمها بقوله:

إِنْ أَغْبَ عَنْكَ فَمَا غَابَ شُكْرٌ دَعْوَةٌ جَاهِدَةٌ وَأَمِيدَا  
يَا أَمِينَ اللَّهِ أَيَّدَتْ مُلْكَا كَانَ مِنْ قَبْلِكَ نَهْيًا مُبَاحَا<sup>(٤)</sup>

ويختتم قصيدة يرثي فيها أباه بقوله:

يَا مَكْلَ الْعَيْشِ فِي دِيْمُومَةٍ يَتَّبِعُ الْأَمَالَ كَالْبَاغِي الْمَضَلَّ

(١) الديوان، (٢٧٥/٢). المعارف.

(٢) الخصومة بين القدماء والمحدثين: د. عثمان موالفي، (ص: ٢٤٥).

(٣) الديوان، (٢١٩/١)، المعارف.

(٤) الديوان، (٤٦٩/١)، المعارف.

إن مفتاح الذي تطلبه بيد الرزاق فاصبر واتكّل  
فرغ الله من الرزق ومن مدة العمر ومن وقت الأجل<sup>(١)</sup>

وكما كان للحضارة أثر على بداية القصيدة ونهايتها كان لها أثر  
كذلك على وسطها \* الذي يعد همزة وصل بين المقدمة والغرض الرئيس،  
الذي يقضى إلى النهاية، واصطلحوا على تسمية هذا الجزء باسم الخروج  
أو التخلص<sup>(٢)</sup>.

ومن حسن تخلص ابن المعتز في قصيدة يمدح فيها المعتضد  
بيدوها بقوله:

وَحَلَوُ الدَّلَالِ مَلِيحُ الْقَضَبِ يَشُوبُ مَوَاعِيدُهُ بِالْكَذِبِ  
وبعد أن يتحدث عن رحلة صيد مع أصحابه وذهابهم للشراب في  
جو جميل بهيج، يقول:

وَطَافَتْ سَفَائِهِمْ يَمْرِجُونَ بِمَاءِ الْغَدِيرِ بَنَاتِ الْعَنَبِ  
وَحَنَوُ التَّدَامَى بِمَشْمُولَةٍ إِذَا شَارِبٌ عَبَّ فِيهَا قَطْبُ  
فَرَاخُوا كَشَاوَى بِأَيْدِي الْمَدَامِ وَقَدْ كَشَطُوا عَنْ عِقَالِ التَّعَبِ  
إِلَى مَجْلِسِ أَرْضُهُ نَرْجِسَ وَأَوْتَارُ عِيدَانِهِ تَصْطَخِبُ  
وَحِيطَانُهُ خَرَطُ كَاهِلُورَةٍ وَأَعْلَاهُ مِنْ دَقَبٍ يَلْتَهَبُ

ثم نراه ينتقل بعد ذلك إلى المديح وكان الخليفة مصدر جو نفير  
بهيج مثل هذا المجلس الذي وصفه. فنراه انتقل إلى المديح وكأنه مازال  
يصف المجلس يقول:

(١) الديوان، (٢/ ٣٦٠ - ٣٦١).

(٢) الخصومة بين القماء والمحدثين، (ص: ٢٤٥).

فَإِذَا حُسْنُهُ بِإِمَامٍ أَلْهُدَى      وَخَيْرِ الْخَلَائِفِ نَفْسًا وَأَبَى  
إِذَا مَا تَرَبَّعَ فَوْقَ السَّرِيرِ      وَبِالنَّجَاحِ مَقْرُفُهُ مُعْتَصِبٌ<sup>(١)</sup>

أما عن الوحدة العضوية في القصيدة والتي يقول عنها ابن طباطبا العلوي: وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما يتسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله، فإن قدم بيتا على بيت دخله الخل كما يدخل الرسائل والخطب إذا نفض تأليفها، فإن الشعر إذا أسس تأسيس فصول الرسائل القائمة بأنفسها، وكلمات الحكمة المستقلة بذاتها، والأمثال السائرة المرسومة باختصارها لم يحسن نظمه بل يجب أن تكون القصيدة كلها تكملة واحدة في اشتباه أولها بآخرها نسجا وحسنا وفصاحة، وجزالة ألفاظ ودقة معان وصواب تأليف، ويكون خروج الشاعر من كل معنى يصنعه إلى غيره من المعاني خروجا لطيفا<sup>(٢)</sup>.

فإذا بحثنا عن أثر الحضارة على هذا الوحدة. وجدنا أن الحضارة قد ارتقت بالمشاعر والنفوس. وجدنا معظم القصائد يسيطر عليها جو نفسي واحد البيت يسلم للبيت بعد أن كان كل بيت يعتبر بناء قائما بذاته. ولننظر في تلك القصيدة الرائعة والتي في ذكرها الغناء عن شرحها لنرى ما فيها من قوة تماسك. يقول:

قد شئت بعدك والمشيبي مصيبة      وخضبت بعدك والخضاب عناء  
ورأيت صرف الدهر يخلق جدي      لا رعية منه ولا إبقاء  
في كل يوم حادث بكى له      عيني وتألفها به الأقداء

(١) الديوان، (٤٠٦/١ - ٤٠٧)، طبعة بغداد.

(٢) عيار الشعر: لابن طباطبا العلوي: تحقيق/د. محمد زغلول سلام، (ص: ١٤٨).

فإذا مضى يوم عددت مضييه  
 أتألف الدنيا وأبسط عذرها  
 وأقول إن أنكرت ضيقة معسر  
 ولكل قوم دولة تأتيمهم  
 ولكل ليل كاشف من صبحه  
 كالبدر تحقه الليالي بعدما  
 حق يعود كما بدا متحيفا  
 وتطرقني الحادثات فهل لما  
 وتكرت حال الصديق فبعده  
 وجرت علي من الأعادي غرة  
 وألفت ضحك العيش بعدك فاستوت  
 وعلى الليالي أن تلم صروفها  
 وعلى الكرم تجلد وعزاء<sup>(١)</sup>

وبعد أن انتهينا من أثر الحضارة على المقدمة والخاتمة ننتقل إلى  
 أثرها على الموسيقى ثم الأسلوب.

## موسيقى الشعر

" علاقة الموسيقى بالشعر علاقة قديمة قديم الفنيين، مستمرة لا تنقطع، ذلك أن بين الفنيين من الوشائج والروابط ما يمنع أحدهما من أن يستغني عن الآخر. فإذا كانت الموسيقى تحيل اللفظ نغما يغذي الحس والروح فالشعر خفقة مطربة تعتمد الصوت واللحن في تغذية المشاعر والنفس<sup>(١)</sup> وكل موسيقى شعرية لا تفجر في الكلمات أقصى طاقتها الدلالية والإيحائية ولا ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالطاقة الانفعالية التي تثيرها القصيدة، هي موسيقى خارجية مفتعلة، قد تكون جميلة في ذاتها، ولكنها بأي حال لن تكون عنصراً من عناصر البناء الشعري<sup>(٢)</sup>.

فالكلام الموزون ذو النغم والموسيقى يثير فينا انتباهاً عجباً، وذلك لما فيه من توقع لمقاطع خاصة تتسجم مع ما نسمع لتتكون منها جميعاً تلك السلسلة المتصلة الحلقات التي لا تنبؤ إحدى حلقاتها عن مقاييس أخرى والتي تنتهي بعد عدد معين من المقاطع بأصوات يعينها نسميها القافية<sup>(٣)</sup>. والوزن والقافية هما عمودا الموسيقى الشعرية، " فالشعر جاعنا منذ القدم موزوناً مقفى، والشعر لا يزال في جل الأمم موزوناً مقفى، نرى

( ١ ) عضوية الموسيقى في النص الشعري: د. عبد الفتاح صالح نافع، (ص: ٥).

( ٢ ) الصورة والبناء، د. محمد حسن عبد الله، (ص: ٨٧).

( ٣ ) موسيقى الشعر: د. إبراهيم أنيس، (ص: ١٨).



موسيقاه في أشعار البدائيين وأهل الحضارة ويستمتع بها هؤلاء وهؤلاء، ويحافظ عليها هؤلاء وهؤلاء<sup>(١)</sup>.

ومما لا شك فيه أن التطور الزمني والحضاري لابد أن يترك أثرا ولو ضئيلا في أوزان الشعر وقوافيه، أو في شكله الموسيقي بصفة عامة، فهل خضع الشعراء العرب لهذا التطور أو غلب عليهم التقليد والاحتذاء، أو سمحت لهم وفرة الأوزان واتساعها وتنوعها بالتصرف في حدودها ؟ الحقيقة أن الأوزان العربية القديمة قد استمرت في العصر العباسي وبعده حتى يومنا هذا " ولم يكن هذا مجرد مسألة تقليدية أو قصورا من الشعراء عن الابتكار والتجديد، ولكن هذه الأوزان الستة عشر - التي اكتشفها الخليل - تمثل في الواقع تنوعا موسيقيا واسع المدى يتيح للشعراء أن ينظموا في دائرته كل عواطفهم وخواطرهم وأفكارهم، دون أن يجدوا تضيقا أو حرجا يضطرون معه إلى محاولة الخروج على هذه الأوزان ليلائموا بين مادة شعرهم الجديدة وما تقتضيه من موسيقى وإيقاع خاصين<sup>(٢)</sup> بالإضافة إلى أن " التجديد في الأوزان تادر وأن تطورها بطيء جدا، تمر عليها القرون والأجيال دون أن يصيبها ما يسترعي الانتباه أو يلتفت الأنظار. وذلك لأن ألفة الوزن وشيوعه في البيئة اللغوية تطلب زمنا طويلا وانتاجا شعريا كثيرا حتى يعتاده جمهور كبير من السامعين، ويستسيغوا ما فيه من نغم وموسيقى. ومثل الأوزان في هذا كمثل قواعد اللغة وتركيب جملها، فتطورها بطيء جدا إذا قيس بتطور أصواتها أو

(١) نفسه، (ص: ٢٢).

(٢) اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري، (ص: ٥٦٦).

تطور نسج الكلمة فيها... وهذا التطور البطيء في الأوزان أمر طبيعي لأن الشعوب تتطلب الزمن الطويل، وتكرار الوزن الواحد على الأسماع أجيالا وقرونا وعلى يدي شعراء متعددين، قبل أن تألف الأذان ذلك الوزن وتكتل من مقاطعه مجاميع منسجمة فيها النغم وفيها الموسيقى<sup>(١)</sup>.  
ومهما يكن فإن الغناء نوع أوزان الشعر في العصر العباسي تنوعا واسعا فبينما كان يقضي على بعض الأوزان الطويلة المعقدة أو يكاد، كان يشيع الأوزان الأخرى التي تتلاءم معه من مثل: المتقارب والرمل والهزج والخفيف، فإن ألم بالأوزان الطويلة أخذ ينوع فيها بما يحدثه من مشطوراتها ومجزواتها أو من اختلاف في ضروبها وأعاريضها. وقد فتح الخليل أبواب الزحافات في العروض ليعدل الشعراء في إيقاعات الأوزان القديمة ونغماتها، وكان هذه الزحافات خروق في الرقع الموسيقية وضعها الخليل لينفذ منها الشعراء إلى التعديل في الأوزان التي كان يتطلبها الغناء العباسي<sup>(٢)</sup>.

" هذه البحور القصيرة والمجزوءة لم تكن مألوفة في الشعر القديم ولا سيما الجاهلي وشعر صدر الإسلام. ثم بدأ الشعراء يعنون بها أو ببعضها بعد ذلك، ونظموا منها أشعارا كثيرة وقصائد متعددة حين بدأ الناس يتغنون بالأشعار وكثر تلحينها في عصور الغناء والطرب أيام العباسيين، فكان الشاعر في غالب الأحيان ينظم المقطوعة ثم يدفع بها لمغن أو جارية تصنع لها الأنغام وتردها في مجالس الخلفاء أو الوزراء.

( ١ ) موسيقى الشعر: د. إبراهيم أنيس، ( ص: ٢٣ ).

( ٢ ) الفن ومذاهبه في الشعر العربي: د. شوقي ضيف، ( ص: ٧٤ ).

ورأى الشعراء أن البحور القصيرة أطوع في الغناء والتلحين فأكثرُوا من نظمها ووجدت ارتياحا إليها من عامة الناس وخاصتهم، على أن شعراء العصر العباسي كانوا أحيانا أخرى يقفون بين يدي الخليفة أو الوزير ينشدون الشعر إنشادا ويلقونه إلقاء، ولا سيما في قصائد المدح والثناء. فقد جمع إذن الشعر العباسي بين شعر يتغنى به، وشعر ينشد في المجالس والمحافل<sup>(١)</sup>.

وابن المعتز العباسي أكثر من استخدام الأوزان القصيرة والمجزوءة التي كانت تتلاءم وطريقة حياته ومجالس شرايه حين شاعت مجالس الطرب وألوان الغناء واللهو والمجون. وكل هذا مما تتفعل له نفوس الشعراء انفعالا شديدا فينظمون في لهفة وشوق حين تعرض أمامهم مباحج النساء وتلعب الخمر بعقولهم وأفئدتهم ويستمكهم طرب الغناء ونشوته<sup>(٢)</sup>.

فنجده استخدم بحرا، كمجزوء الكامل، والوافر، والرمل، والخفيف، ومشطور المديد ومخلع البسيط، والهزج، والمجتث، ومنهوك المنسرح وغيرها...

فمن قوله من مجزوء الكامل:

نهت ندماي فيها      طربا إلى كأس ولي<sup>(٣)</sup>  
ومن مجزوء الرمل:

(١) موسيقى الشعر: د. إبراهيم أنيس، (ص: ١١٩).

(٢) نفسه، (ص: ١٩).

(٣) الديوان، (٢٩/٢)، طبعة بغداد.

أدر الكاس علينا	أيها الساقى لطرب <sup>(١)</sup>
ومن مجزوء المتقارب:	
دعوا مُفرِّقاً بالطرب	كما زال شيء عجب <sup>(٢)</sup>
ومن المجتث:	
لا تذعي لصُبح	إن الغبوق حبيبي <sup>(٣)</sup>
ومن مخلع البسيط:	
قد طال شوقي إلى عقار	صفراء من كف ذي احورار <sup>(٤)</sup>
ومن مجزوء الوافر:	
بَحِيلٌ قَدْ شَقِيتُ بِهِ	يَكُذُّ الوَعْدَ بِاللَّجَجِ <sup>(٥)</sup>
ومن مشطور المديد:	
أَسَأَلْتُ طَلَّلاً	بالبَرْقِ قَدْ خَلَا <sup>(٦)</sup>
ومن مجزوء الرجز:	
راح فراق أو غدا	ليس بباقي أبداً <sup>(٧)</sup>
ومن مجزوء المنسرح:	

(١) نفسه، (٣٧/٢).

(٢) نفسه، (٣٣/٢).

(٣) نفسه، (٤٢/٢).

(٤) نفسه، (١٤٤/٢).

(٥) نفسه، (٢٣٦/١).

(٦) نفسه، (١٤٥/١).

(٧) نفسه، (٨٤/١).

كَمْ لِي مِنْ عَدُولٍ بِتُّ لَهُ عَدُولًا<sup>(١)</sup>

ومن الهزج:

أَيَا مَنْ مَاتَ مِنْ شَوْقٍ إِلَى لِحْيَتِهِ الْخَلْقِ<sup>(٢)</sup>

هذه الأوزان القصيرة قد أضفت على الشعر ألوانا من الإيقاع السريع، وإن كانت موسيقية الشعر فيها رخوة في الغالب، وذلك لاستخدامها في مجال الغزل والنسيب اللذين تأثرا كثيرا برهافة الحب في ذلك العصر<sup>(٣)</sup>. ومع ذلك استخدمت هذه الأوزان في مجالات أخرى والتي يستخدم فيها الأوزان الطويلة عادة. فنرى ابن المعتز يستخدم بحر الهزج في مدحه للمعتضد يقول:

أقر الملك في المنصب	وقد وجد فلا تلعب
وقد أندرك الدهر	فخل الدلب يا ملذب
فإن الله قدس	ل حاسما راسب المضرب
إذا أعطشه السار	فمن حوض دم يشرب <sup>(٤)</sup>

كما أننا ينبغي ألا نعجب أيضا إذا نحن وجدنا الشعراء يستخدمون الأوزان الطويلة أحيانا في مجالات بعيدة عن الخطابية كالنسيب والخمريات والزهديات وما أشبه لنستمع - على سبيل المثال - إلى هذا الصوت من ابن المعتز (من البسيط):

(١) نفسه، (٣٣٥/١).

(٢) نفسه، (٦٨٧/١).

(٣) في الشعر العباسي، الروية والفن: د. عز الدين إسماعيل، (ص: ٤٤٣).

(٤) الديوان، (١/ ٤٥١)، طبعة دار المعارف.

طالَ انتهارُ قَائنَ اللَّيْلِ وَالسَّهَرِ      إلى كِبَرِي وتَدِيرِ اللَّيْلِ مُنْتَظِرُ  
يا طولَ شوقي إلى نَومِ الرَّقِيبِ وَقَدْ      خلا حَيِّي لي حَتَّى بَدَا السَّحَرُ  
يا قَلْبَ صَبْرًا على يَومِ الفِراقِ فَقَدْ      حَقَّ الَّذِي مِنْهُ حَقًّا كُنْتُ أُنْتَظِرُ  
يا شوقَ خُذْ مِنْ حَيَاتِي وَأَتَرَكُنْ زَمًا      نَ البين ما في حَيَاتِي بَوَدَّعُمُ وَطُرُ

فعلى الرغم من طول الوزن لا ترتفع فيه النبرة الخطابية، بل توشك النغمة العامة هنا أن تكون ضرباً من الأنغام الرومانسية الهادئة. الحالة<sup>(١)</sup>.

\* وإذا كان الوزن ذا صلة عضوية بالنص الشعري بما يبعثه من موسيقى ذات إثارة في النفس والحس معاً، فإن هذه الموسيقى تعظم وتتنامى وتؤثر إذا توافرت القافية. فهي تضيف بموسيقاها قوة ومفعولاً لا تتوفر عن طريق الوزن وحده<sup>(٢)</sup>.

وليست القافية إلا عدة أصوات تتكرر في أواخر الأبيات أو الأبيات من القصيدة، وتكرارها هذا يكون جزءاً هاماً من الموسيقى الشعرية. فهي بمثابة الفواصل الموسيقية يتوقع السامع ترددها، ويمتنع بمثل هذا التردد الذي يطرق الأذن في فترات زمنية منتظمة، وبعد عدد معين من مقاطع ذات نظام خاص يسمى بالوزن<sup>(٣)</sup>.

ولقد بقيت حال القافية هكذا، حتى جاء العصر العباسي، وازدهرت فيه ألوان الغناء وتعددت الأنغام وتعقدت، وأصبحت تتطلب من الشعر نوعاً

(١) في الشعر العباسي: د. عز الدين إسماعيل، (ص: ٤٤٠).

(٢) عضوية الموسيقى في النص الشعري، (ص: ٧٤).

(٣) موسيقى الشعر، د. إبراهيم أنيس، (ص: ٢٧٣).

قد تعددت فيه القوافي وتنوعت، وهنا بدأ الشعراء ينوعون في نظام القافية،<sup>(١)</sup> فشرعت بعض الأشكال الشعرية التي تخففت من هذا السلطان - القافية - وابتكرت أنظمة جديدة من القوافي، شرعت في الظهور والانتشار، تلبية لحاجات المجتمعات الجديدة واتساقا مع الموسيقى التي راجت فيها.<sup>(٢)</sup>

ونستطيع أن نقول: "إن شكل القصيدة في العصر العباسي قد تطور في اتجاهين متقابلين: اتجاه استشرى بعض الشعراء العمل الملحمي فطالت قصائدهم حتى بلغت مئات الأبيات، واتجاه آخر نحو إبطار المقطوعة المحدودة الأبيات. وقد أعطى كل من هذين الاتجاهين عطاء ليس باليسير. ولا غرابة بعد في أن ينمو هذان الاتجاهان معا في عصر كالعصر العباسي، اتسع لكل التجارب وكل المتناقضات".<sup>(٣)</sup>

\* والمزدوجة يقف فيهما كل شطرين بقافية واحدة قد تخالف قافية الشطرين اللذين قبلهما أو بعدهما<sup>(٤)</sup> وقد وجد بعض شعراء العباسيين هذا النظم يسيرا لا يكلفهم مشقة أو عنتا، ولا تطفئ قوافيه على ما قد يجول في صدورهم من معان وأخيلة<sup>(٥)</sup>، وقد استعانوا به لنظم العلوم وتيسيرها على الدارسين بمزج العلم بالموسيقى، ليجد طريقه إلى النفوس والعقول معا.<sup>(٦)</sup>

(١) نفسه، (٣٣٢).

(٢) القافية في العروض والأدب: د. حسين نصار، (ص: ١٥٣).

(٣) في الشعر العباسي، الروية والفن: د. عز الدين إسماعيل، (ص: ٤٢١).

(٤) القافية في العروض والأدب، (ص: ١٦٢).

(٥) موسيقى الشعر، (ص: ٣٣٣).

(٦) الشعر العباسي، التيار الشعبي: د. سعد شلبي، (ص: ١٨٢).

ويقال إن أول من نظم فيه بشار بن برد وأبو العتاهية، ثم تتابع عليه الشعراء. وقد وجدوه ألف بنظم القصص الطويلة والحكم والأمثال، وما أرادوا نظمهم من مسائل العلوم ذلك لأن الناظم يستطيع أن ينظم منه آلافاً من الأبيات دون أن يصيبه جهد أو عنق.<sup>(١)</sup>

وابن المعتز العباسي مثله مثل معاصريه يعبر عن روح الحضارة التي ينتمي إليها فيستخدم القصائد المزدوجة تاركاً لنا مزدوجتين رائعيتين إحداهما تعتبر تاريخية وهي التي قالها في مدح المعتضد والتي يقول في مطلعها:

باسم الإله الملك الرحمن	ذي العز والقدرة والسلطان
أحمد لله على آلائه	أحمد لله على نعمائه
هذا كتاب سير الإمام	مهدى من جواهر الكلام
أعني أبا العباس خير الخلق	للملك قول عالم بالحق
قام بأمر الملك لما ضاعا	وكان كهبا في الوزي مشاعا <sup>(٢)</sup>

\* أما المزدوجة الثانية فقد شذ فيها عما سبقه من الشعراء فلم يستخدمها للقصص التعليمي أو التاريخي، بل نظمها في ثم الشرب صباحاً وبهذا يكون قد فتح الباب للمزدوجة أن تستخدم في أغراض أخرى. يقول:

لي صاحب قد لامني وزادا      في تركي الصبح ثم عادا  
وقال لا تكرب بالتهار      ولي حياء الفجر والأسحار  
إذا وشى بالليل صبح فافتضح      وذكر الطائر حجراً فصاح

(١) موسيقى الشعر، (ص: ٣٣٣).

(٢) الديوان، (٥/٢ - ٦)، مطبعة دار المعارف.



وَالْتَجَمُ فِي خَوْضِ الْغُرُوبِ وَارِدُ      وَالْفَجْرُ فِي إِسْرِ الظَّلَامِ طَارِدُ  
وَتَقْضَى اللَّيْلُ عَلَى الْوَرْدِ التَّدْيِ      وَخَرَّكَتْ أَغْصَانُهُ رِيحُ الصَّبَا<sup>(١)</sup>

أما بالنسبة للمقطوعات الشعرية فقد أكثر منها الشعراء بجانب القصائد الطويلة وربما كان السبب في ذلك تأثرهم بالقرآن الكريم وما فيه سور طويلة وقصيرة، هذا بجانب الغناء وسرعة رتم الحياة في هذا العصر، وربما كان من الأسباب أيضا كما أورد ابن رشيق في كتابه العمدة "مثل عمرو بن العلاء: هل كانت العرب تطيل؟ فقال: نعم ليسمع منها، قيل: فهل كانت توجز؟ قال: نعم ليحفظ عنها (...) وقال الخليل بن أحمد: يطول الكلام ويكثر ليفهم، ويوجز ويختصر ليحفظ."<sup>(٢)</sup>

وإذا تأملنا المقطوعات الشعرية عند ابن المعتز وغيره من الشعراء في عصره أدركنا أنهم تناولوا فيها آفاق التجربة الشعرية التي حلقوا فيها، من الدعابة الهازلة والتحامق والمجون إلى النسيب والغزل إلى الخمریات واللزهدیات، إلى العتاب والهزاء، إلى الإخوانیات. ومعنى هذا أن شكل المقطوعة الشعرية القصيرة قد صار في العصر العباسي إطارا فنيا له وزنه وله خطره في شعر ذلك العصر، لأنه كان استجابة لذوق العصر من جهة، وتحقيقا لشعبية الشعر وسرعة تناقله ودورانه على ألسن الناس من جهة أخرى<sup>(٣)</sup> ولننظر إلى تلك الدعابة الهازلة في شعر ابن المعتز وهو

(١) الديوان، (٣٠/٢)، طبعة دار المعارف.

(٢) الممدد، (١٨٦/١).

(٣) في الشعر العباسي، الروية والفن، (ص، ٤١٨).

يصور حذاء أحد الرجال في مقطوعة شعرية تنتهي بانتهاء تلك الروح  
المرحة التي تحملها أو تلك الشحنة الوقتية التي يحس بها. يقول:

يا رَاكِيًا فوقَ بَغْلٍ	لِلأَرْضِ مِنْهَا ذَوِي
نَءُ إِذَا مَا تَمَشَّى	فَقَا إِلَيْهَا شَيْءِي
جِرداء تَذَكَّرُ نوحا	في المهد وهو صبي
يُتَرَفُّ الرِّسَمَ مِنْهَا	شِعْ عَلَىهَا خَفِي
وخلفه شاكري	من ظله حبشي
بِمَا تَبِعَهُ عَلَى النِّسَا	سِي قُلْ لَنَا يَا شَيْءِي <sup>(١)</sup>

وقد أخذت المقطوعات الشعرية عند ابن المعتز أشكالاً مختلفة منها  
المربع: وهو ذلك الشعر الذي يقسم فيه الشاعر قصيدته إلى أقسام يتضمن  
كل قسم منها أربعة أشطر، ويراعي الشاعر في هذه الأشطر الأربعة نظاماً  
في القافية. فقد تكون كلها مقفأة بقافية موحدة ووزن واحد، وذلك هو ما  
يسمى بالدوبيت<sup>(٢)</sup> وهي كلمة فارسية بمعنى البيتين. يقول ابن المعتز في  
ذلك:

قل لعبيد الله يا وجه الصبي	ولبيته العقل والقلب
أيا نزار حرز المخشلب	لا بأي أنعم فداء لأبي <sup>(٣)</sup>

"ويقال: إن هذا الشكل فارسي الأصل، ابتكره عبد الله بن جعفر بن  
محمد المعروف برودكي (٢٦٠ - ٣٢٩هـ) .. ثم انتشر في الأندلس

(١) الديوان، (٤٦٨/٢)، دار المعارف.

(٢) موسيقى الشعر، (ص: ٣٣٦).

(٣) الديوان، (٤٢٩/٢)، دار المعارف.

الفارسي انتشارا لا مثيل له، وكان له صدهاء في الأدب العربي واستخدم في جميع الأغراض".<sup>(١)</sup>

على إنا في بعض الأحيان نرى الشطر الثالث في الأشطر الأربعة

مختلف القافية. يقول ابن المعتز:

ما لقلبي كجناس قد علق      شركا مكن فيه فخفي  
يشكي الحجر بفرات كما      حجم الأعجم شلوى أو نطق<sup>(٢)</sup>

وقد يستخدم الخمس: وذلك بأن يقسم الشاعر مقطوعته إلى أقسام يتضمن كل قسم منها خمسة أشطر لها نظام خاص في قوافيها. وقد يكون كل قسم من هذه الأقسام مستقلا تمام الاستقلال في قوافيه وأوزانه وهو الخمس الحقيقي<sup>(٣)</sup> يقول ابن المعتز:

وقهوة كقبس المستعجل      ناهتها عمر دجى مستقبل  
مشمولة تقتل إن لم تقتل      حتى بدا وجه صباح منجل

يختال في ثوب دجى مرعب<sup>(٤)</sup>

وأحيانا يستخدم ثلاثة أشطر تتحد في الروي والقافية مثل قوله:

صبرا على الموم والأحزان      وفرقة الأحباب والإخوان  
فإن هذا خلق الزمان<sup>(٥)</sup>

وقوله:

(١) القافية في العروض والأدب، (ص: ١٦٨).

(٢) الديوان، (٣٩٥/١)، دار المعارف.

(٣) موسيقى الشعر، (ص: ٣٣٨).

(٤) الديوان، (٢٩٨/٢)، دار المعارف.

(٥) نفسه، (٣٧١/٢).

سقى بلاداً ضمت الإخوان  
غيث يغطي نبتة الحرا  
يترك في بلادها غدراناً

وربما كانت المحاولة الطريفة حقاً لكسر حدة القافية، على الرغم من الإبقاء عليها هو ما يسمى بالتضمنين " وفيه يتعلق معنى البيت بما بعده ولا يستقل بنفسه، وقد عابه رجال العروض وجعلوه مظهراً من مظاهر ضعف الشعر".<sup>(١)</sup>

ويبدو أن ابن المعتز الشغوف بكل جديد أراد أن يقلد أبا العتاهية في هذا المضممار والذي كان له السبق في مقطوعته التي يقول منها:

يا ذا الذي في الحب يلحى أما  
كلفت من حب لرم نَمَا  
أطلت إلي لست أذري بما  
أنا بباب القصر في بغض ما  
شيء غزال بيهم فما  
عناية سهران لهُ كَلَمَا  
والله لو كلفت منه لما  
لُنت على الحب فذري وما  
بليت إلا أكني بيما  
أطلب من قصرهم إذ رمى  
أعطى سَهْمًا ولكُما  
أراد قلبي بهما سَلَمَا<sup>(٢)</sup>

فجاء ابن المعتز ناسجاً على هذا المضممار مزيداً عليه بقوله:

يا نفس وتحك طامما  
تفتك فاختسي واتهي  
قل الأناس الصالحون  
سلم المبادر فاحذري  
خديع الشقي بمثلها  
أبصرت موعظة وما  
وعيك بالقوى كما  
وبادري فلربما  
يا نفس من شر كما  
يسالك منها كَلَمَا

(١) الموشح للمزباني، (ص: ٤٠٥).

(٢) ديوان أبي العتاهية، (ص: ٦٣٨).

باحث مكانها ضمير      كإلما هي إلما  
تفتى أمانها إذا      حضر الردي وكالما  
لم تفتى من لاقى مني      فإعجا أمما  
في ذلك معتبر ولا      شاف يقصر عن عشا  
يا ذا المنى يا ذا المنى      عش ما بدا لك ثم ما<sup>(١)</sup>

\* وعلى الرغم من تقفية هذه القطعة إلا أنها لا يمكن إلا أن نقرأها قطعة واحدة متصلة، حيث ينقطع الكلام من بيت إلى بيت لاتصال المعنى، حتى تصل إلى النهاية، وكأنها دفقة مستمرة فيمكن كتابة مقطوعة ابن المعتز على النحو التالي:

يا نفس ويحك طال ما أبصرت موعظة وما نفعتك: فاخش وانتبه  
وعليك بالتقوى، كما فعل الأناس الصالحون، وبادري فلربما سلم المبادر  
واحذري يا نفس من سوف فما خدع الشقي بمثلها، إياك منها كلما ناجت،  
كم قتلت وأهلك النفوس، وقلما تغني أمانها إذا حضر الردي، وكأنما لم  
يحيي من لاقى منيته، فإعجا أمما في ذلك معتبر ولا شاف يقصر من  
عشى، يا ذا المنى يا ذا المنى: عش ما بدا لك ثم ما.

وقد كانت هذه التجربة حرة أن تؤدي إلى تجديد جوهري في  
قالب القصيدة وفي بنائها الموسيقي منذ ذلك العصر، ولكن تعنت النقاد  
القدامى في هذا الصدد جعلها تتأخر اثني عشر قرناً حتى تعود إلى الظهور  
في وقتنا الراهن باسم القصيدة المدورة، أو المستمرة\*.<sup>(٢)</sup>

(١) الديوان، (٤١٩/٢)، طبعة دار المعارف.

(٢) في الشعر العباسي الروية والفن، (ص: ٤٤٥).

## الموسيقى العربية

وبعد هذا ينبغي أن نقول: إذا كان الوزن والقافية هما عمودا الموسيقى الشعرية كما أشير قبل ذلك " فإنه يكمن خلفهما أيضا موسيقى خفية نجدها في اختيار الشاعر لكلماته ثم في قدرته على الملائمة في الحروف والحركات حيث يضيف بمثل هذه الصنعة الخفية شيئا كبيرا إلى المعنى".<sup>(١)</sup> فنجد الإيقاع الشعري نما من حركية تتابعات صوتية تمثل القيمة الصوتية الصغرى في اللغة العربية، وشكلت هذه التتابعات انطلاقا حركيا انتهى بقرار موسيقي هو نهاية المد الصوتي في العربية.<sup>(٢)</sup>

\* هذه الموسيقى الصوتية هو ما أطلق عليها " الموسيقى الداخلية " وهي التي تنشأ بالعناية بفنون البديع الصوتية وأعني بها الموسيقى الخفية التي لا نسمع رتيبها في السمع ولا نراها حرفا رتبيا ينتهي به البيت، ولا تقسيمات متوازية في المخمسات والمزدوجات.. وغيرها من ألوان إبداع العصر العباسي في موسيقى الشعر، ولكنها تعود إلى صوت المشاعر يستولي على الشاعر فتتراءى روحه في قصيدة، تلك الروح التي تعطي للنص نبضه وحيويته في المجتمع وتجعل جماهير أمته تتعلق به لأنه صداها النفسي، ونظمها العاطفي".<sup>(٣)</sup>

ومن ذلك ما نجده عند ابن المعتز وهو يحاول أن يخلق موسيقى في شعره مضيفا للوزن والقافية أنغاما موسيقية أخرى حتى يكتمل الإيقاع

( ١ ) عضوية الموسيقى في النص الشعري: د. عبد الفتاح صالح، (ص: ٩١ - ٩٢).

( ٢ ) في البنية الإيقاعية للشعر العربي: د. كمال أبو ديب، (ص: ٧١).

( ٣ ) الشعر العباسي، التيلز الشعبي: سعد شلبي، (ص: ١٨٣).

الموسيقى العام للقصيدة. فتزيد متعة السماع، فتواكب تطور الموسيقى والغناء في هذا العصر.

فيقيم موسيقاه على التشطير أو حسن التقسيم وذلك مثل قوله في

القصيدة التي يمدح فيها عليا بن أبي طالب:

رَكِبْتُ الْحَجِجَ، فَقَالَ الْمُدَّةُ      سَبَّ عَلِيًّا وَتَيْتَ السَّيِّ  
أَكَلْتُ لَحْمِي وَأَحْبَسْتُ دَمِي      يَا قَوْمَ لِلْعَجَبِ الْأَعْجَبِ  
وَبَحَرُ الْمُلُومِ وَغَيْطُ الْحَصُومِ      مَنَى يَصْطَرَعُ وَكَمْ يَغْلِبُ  
مُجَلِّي الْكُرُوبِ وَكَيْتُ الْخُرُوبِ      فِي الرَّهَجِ السَّاطِعِ الْأَهْبِ<sup>(١)</sup>

\* ويعتمد نغمة أحيانا، على التكرار الذي يكون لتأكيد الثناء، أو

العتاب والتهويل، وعندئذ يكون بالكلمة لفظا ومعنى.\*<sup>(٢)</sup> ومن ذلك قوله:

قمر نام في قصر      من نعام ومن سكر<sup>(٣)</sup>

وقوله:

غناء المَحِبِّ طَوِيلٌ طَوِيلٌ      وَصَبْرُ الْمَحِبِّ قَلِيلٌ قَلِيلٌ<sup>(٤)</sup>

وقوله:

وإن كُتِبَ الهوى أبدى الهوى نظري      والقلب يطوي الهوى والعين تنثره<sup>(٥)</sup>

(١) الديوان، (٤٦١/١)، طبعة دار المعارف.

(٢) ابن المعتز صورة لعصره، (ص: ٢٨٦).

(٣) الديوان، (٣٥٧/١)، المعارف.

(٤) نفسه، (٤٠٦/١).

(٥) نفسه، (٣٧١/١).

"وحينا يتم التكرار بالكلمة يذكر ما يؤازره من التكرار الصوتي بنوع الصوت لا بالصوت ذاته كترداد السين والصاد - وكلاهما صوت مهموس لثوي احتكاكي، في قوله:

أَرَى أَهْيْنَ الْأَعْدَاءَ قَدْ قَطَعَتْ بِنَا وَأَوْجَسَ سُوءَ الظَّنِّ مَنْ كَانَ ذَا أَلْسِي  
فَإِنْ مَتَعُوا مِنْ صُورَةِ الْجِسْمِ صُورَةَ فَنِي الثَّوْمِ تَلْقَى صُورَةَ النَّفْسِ لِلنَّفْسِ<sup>(١)</sup>

كما نجد ابن المعتز يعتمد على أنواع البديع من أجل خلق موسيقاه الشعرية وخاصة الطباق اللفظي والجناس والمقابلة. فالطباق كثيرا ما يلجأ إليه الشاعر للتعبير عما يريد من التضاد وهو يصنع بقطة موسيقية عند السامع. ومن ذلك قوله:

يَمِيتُ بِطَرْفِهِ طُورًا وَيَحْيِي وَيَشْكُو السَّقَمَ مِنْ حَذَقِ صَحَّاحٍ<sup>(٢)</sup>  
قوله:

كَأَنَّ فِي الرَّاحِ حِينَ تَمَزُّجُهَا لُجُومٌ ذُرٌّ تَهْوِي وَتُخَفِّضُ<sup>(٣)</sup>  
والمقابلة وهي جمع عدة أشياء متضادة في البيت الواحد أو في الشطرين وجاء منها شيء غير قليل في شعر ابن المعتز. يقول:

بِالْأَمْسِ حَيٌّ، وَالْيَوْمَ مَيِّتٌ يَا قَرِبَ عَهْدٍ، وَبَعْدَ بَيْنٍ<sup>(٤)</sup>  
قوله:

وَنَحَارَ شَيْبَ الرَّأْسِ يَوْقُظُ مِنْ قَدْ كَانَ فِي لَيْلِ الشَّبَابِ رَقْدًا<sup>(٥)</sup>

(١) ابن المعتز صورة لمصره، (ص: ٢٨٧)، الديوان، (ص: ٣٨٥/١)، المعارف.

(٢) الديوان، (٨٠/٢)، طبعة بغداد.

(٣) الديوان، (١٦٧/٢)، بغداد.

(٤) الديوان، (١٠٤/٣)، بغداد.

(٥) نفسه، (٣٠٨/٢).



وقوله:

مخطفات الأوائل      مقلات الأواخر<sup>(١)</sup>

وقد تعتمد الموسيقى الداخلية على الجنس \* وهو أكثر صعوبة وأعسر منالاً من الطباق فهو بحاجة إلى ثروة لفظية كبيرة وقدرة بيانية وملكة شاعرة، وصعوبته تنأى من التشابه بين حروف اللفظتين والاختلاف في معناه، ومن أجل هذا كان وروده في شعر كثير من الشعراء قليلاً إذا ما قيس بالطباق مثلاً \*<sup>(٢)</sup>

وتهياً لابن المعتز بما رزق من موهبة وشاعرية أن يأتي بالكثير الحسن منه في خلال شعره، كقوله:

وَاسْقِنِي مِنْ سُلَاقَةِ الْكَرْمِ رِيًّا      إِنَّ لِلرَّاحِ رَاحَةً لِلْقُلُوبِ<sup>(٣)</sup>

وقوله:

فَانْظُرْ بِعَيْنِ الرِّضَا مَنِيَّ إِلَى بَدَنِ      مَا فِيهِ جَارِحَةٌ إِلَّا وَقَدْ جُرِّحَتْ<sup>(٤)</sup>

( ١ ) نفسه، ( ٢٧٢/١ )، بغداد.

( ٢ ) شعر ابن المعتز، دراسة وتحقيق، القسم الثاني، ( ص: ٣١٣ ).

( ٣ ) الديوان، ( ٤١/٢ )، بغداد.

( ٤ ) نفسه، ( ٢٣٦ / ١ )، بغداد.

## أسلوبه ولغته

"كان من أثر الحضارة رقة الطباع، وتهذيب المشاعر، وصقل الأنواق، وتبعاً لذلك رقت حاشية الكلام، ولانت مقاطع الشعر خاصة، فهو في مجال الجمال، وموطن التأنيق والتطرف، وهو أيضاً موضوع (فن الغناء) الذي يتطلب اللفظ الرشيق، والقول الأنيق والعبارة السمحة التي تسير طبيعة العصر، وأنواق العصر".<sup>(١)</sup> فقد تأثر أسلوب الشعر بحياة الترف والغناء، فرق، وسهلت ألفاظه، وكان موضوعاً للسمر في مجالس الخلفاء والظرفاء ومادة للتسلية والمتعة ويتناشده القوم في ساعات الصفو وفي مجالات اللهو".<sup>(٢)</sup>

"ولكننا إذا رجعنا إلى شعر ابن المعتز وتأملناه رأينا أنه يمثل أسلوبين مختلفين كل الاختلاف يصطنع الشاعر أحدهما إذا تحدث عن الشراب والغناء والأزهار والفواكه والرياحين وما إلى ذلك. ويصطنع الآخر إذا تحدث عن السياسية والاجتماع وما يمت إليهما بصفة".<sup>(٣)</sup>

والنظرة العامة إلى شعر ابن المعتز تقودنا إلى الحكم بسهولة لفظه، وانسياب أساليبه، في يسر من غير إغراب، ويؤكد هذا ما قال في الغزل والخمر ومجالس الأئس، وما قال في الزهد والشكوى والعتاب. وما

(١) معالم الشعر وأعلامه: د. محمد نبيه حجاب، (ص: ١١٤).

(٢) دراسات في الأدب العربي (العصر العباسي): د. محمد زغول سلام، (ص: ٢١٦).

(٣) في الأدب العباسي: د. محمد مهدي البصير، (ص: ٣١٩).

أنشد في الرثاء أو الهجاء ونظم التاريخ، ولكن إذا وضعنا بجوار ذلك مديحه وفخره أدركنا تفاوتاً بين أسلوبه في هذين الغرضين وأسلوبه في سائر أغراضه<sup>(١)</sup>. ولعل هذا أوحى لأبي الفرج الأصفهاني بقوله: "وشعره وإن كان فيه رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين، فإن فيه أشياء كثيرة تجري في أسلوب المجيدين ولا تقصر عن مدى السابقين، وأشياء ظريفة من أشعار الملوك في جنس ما هم بسبيله، ليس عليه أن يتشبه فيها بفحول الجاهلية"<sup>(٢)</sup>.

والحق أن السهولة والوضوح وتحاشي التعقيد والالتواء هي طابع أسلوب شعر ابن المعتز عامة، وهي وليدة طبعه المسموح وبيئته المترفة. فتلين ألفاظه حتى تكاد تكون حديثاً عادياً، فيه ملاحظة العصر وظرفه وذوق الحضارة التي ينتمي إليها. فيقول في الغزل مثلاً، في ألفاظ خلابة جميلة يفهمها العامة والخاصة:

لا وَرُتَانِ الثَّهْوِدِ	فَوْقَ أَغْصَانِ الْقُدُودِ
وَعَنَاقِيدِ مِنَ الصَّدِ	غِ وَوَرْدٍ مِنْ خُدُودِ
وَوُجُوهٍ مِنْ بُدُورِ	طَالَعَاتِ مِنْ سُعُودِ
وَرَسُولٍ جَاءَ بِأَلِي	عَادٍ مِنْ نَعْدِ الْوَعِيدِ
وَتَعْلِيمٍ فِي وَصَالِ	حُلٍّ مِنْ طَوْلِ الصُّدُودِ
مَا رَأَتْ عَيْنِي كَظْفِي	زَارَتِي فِي يَوْمِ عِيدِ <sup>(٣)</sup>

(١) ابن المعتز العباسي، صورة لعصره: د. سعد إسماعيل شلبي، (ص: ٢٦٢).

(٢) الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، (٢٧٤/١٠).

(٣) الديوان، (٤٩٢/١)، طبعة دار المعارف.

ويقول في الغزل أيضا:

قَدْ صَادَ قَلْبِي قَمَرُ      يَسْحَرُ مِنْهُ الظُّرُ  
وَقَدْ فُتِنْتُ بِغَدَاكُمْ      وَصَاعَ ذَلِكَ الْحَذَرُ  
يُوجِدُ كَأَلَمًا      يَطِيرُ مِنْهَا الشَّرُّ  
ضَعِيفَةً أَجْفَالُهَا      وَالْقَلْبُ مِنْهَا حَجَرُ  
كَأَلَمًا أَلْحَاطُهُ      مِنْ فِعْلِهِ تَعْتَدِرُ  
أَلْحُنُّ فِيهِ كَامِلٌ      وَفِي الْوَزَى مُخْتَصِرُ<sup>(١)</sup>

أو لغته العذبة التي تأخذ بالأكباب مع كؤوسه ودنانه. يقول:

أَدِرِ الْكَاسَ عَلَيْنَا      أَيُّهَا السَّاقِي لِنَطْرِبَ  
مَا تَرَى اللَّيْلَ تَوَلَّى      وَضِيَاءَ الصُّبْحِ يَقْرِبُ  
وَالثَّرِيَّا شِبْهَ كَاسٍ      حِينَ تَبْدُو ثُمَّ تَعْرِبُ  
فَكَأَنَّ الشَّرْقَ يَسْقِي      وَكَأَنَّ الْغَرْبَ يَشْرِبُ<sup>(٢)</sup>

وأحيانا نرى لغته الخاطب العادية كما نرى في قوله لبعض زملائه

أثناء مرضه بالحمى، ويظهر أنه قالها عقب انتهاء شهر رمضان واستقبال

عيد الفطر. يقول:

هِنَا لَكُمْ الْفَطْرُ      وَحْتَ الْكَاسِ وَالسُّكَّرُ  
وِظْلُ الْكُرْمِ وَالْحَنَاتِ      وَالْأَشْجَارِ وَالزُّهَرُ  
وَضِجَاتُ مِنَ الْقَصَفِ      وَنَفْخُ النَّبَايِ وَالنَّقَرِ  
وَفَرْشُ مِنْ رِيَّاحِينَ      إِذَا مَا وَقَدَ الْخَرُ

(١) نفسه، (٣٥٣/١).

(٢) الديوان، (٢١٨/٢)، طبعة دار المعارف.

وعيل من زواريق إذا ما حانت العصر  
وتجيش وتقييل إذا ما جاذب الخصر<sup>(١)</sup>

هذا ورغم هذه السهولة والرقّة التي تغلب على شعر ابن المعتز إلا أنه يرتفع بأسلوبه حيناً حتى نطن أننا نقرأ لشاعر جاهلي أو أموي، وذلك مثل قوله:

هاتيك ذارهم فرج وأسأل      مقسومة بين الصب والشمال  
فكأننا لم نكن بين عراصها      في غبطة وكأنها لم تخلل  
لجئت جفوتك بالبكاء فخلها      تسفح على طلل لشرة مخول

وبعد هذه الوقفة على طلل "شرة" يحدثنا عن رحلته في الصحراء على ناقته وكأنه النابغة الذبياني أو لييد بن ربيعة:

وترب مهلكة تحار بها القطا      مسجورة بالشمس خرق مجهلي  
خلفتها بشملة نطأ الدجى      مرعاة الحركات حلي غطلي  
ترثو بناظرة كأن حجابها      وقب أناف بشاهي لم يخللي  
وكان مسقطها إذا ما غرست      آثار مسقط ساجد متبلي<sup>(٢)</sup>

وينبغي ألا نعجب عندما "نرى الشاعر يظهر بمظهر بعيد عن حياة القرن الثالث وترفه ولهوه وعذوبة الشعر ورقته فيه، وليس ذلك ببعيد على ابن المعتز هو الشاعر الذي تتلمذ على المبرد وتغلب وقرأ أشعار القدماء والإسلاميين، وتادب بها منذ طفولته الأولى، فالجزالة في شعره ترجع إلى روحه العربية، ولون ثقافته الأدبية الأولى، وإلى موضوعات

(١) الديوان، (١٧٦/٢)، طبعة دار المعارف.

(٢) الديوان، (٢٨٣/١).

الشعر التي تناولها والتي لا يليق بها إلا الجزل من الأساليب كالفخر والعتاب والمدح والطرْد، وإلى معارضته للقضاء من الشعراء في أساليبهم وقصائدهم، وهو مع ذلك في جزالته عذب الأسلوب حلو التعبير والأداء<sup>(١)</sup> ولا عجب أيضا في أن ينهج الشاعر نهج الأسلوب القديم في بعض قصائده. وذلك لأن التراث رافد أساسي من روافد الحضارة فلا بد أن يظهر فيها ولكن بعد أن يجمل ويهذب. الحمي ومن البديهي كذلك " أن نجد الشاعر في شعر الطرد وفي وصف الصحراء وظواهرها الطبيعية المختلفة، وفي وصف الرحلة والناقة والفرس أن نجده قد فتح خزائن المعجم الشعري وتراكيبه التقليدية الجاهزة، وراح ويستمد منها ما يسعفه وبعبارة أخرى نقول: إن الشاعر يضع نفسه عند ذلك في عالم الشعر القديم من حيث الموضوع ومن حيث وسائل التعبير.. ومن هذه التراكيب التقليدية الجاهزة ما يلي: ألا أيها الربيع، خليلي، سقى الله - أبني الله إلا - فتلك دارهم - كأن المطايا - ما حنت الإبل - عذون بسحرة - ما أنس لا أنسى - رسيس الهوى - الأرب يوم - عفته الريح - الربيع المحيل<sup>(٢)</sup>.

ومن استخدامات ابن المعتز لهذه التراكيب:

- كأن المطايا إذ غدون بسحرة تركن أفاحيص القطا في المبارك<sup>(٣)</sup>  
- سقى الله أهل الحمي وإبلأ سقوحاً وقُلْ لأهل الحمي<sup>(٤)</sup>

(١) ابن المعتز وتراثه. د. محمد عبد المنعم خفاجي، (ص: ٢٢٦).

(٢) في الشعر العباسي، الرؤية والفن: د. عز الدين إسماعيل، (ص: ٤٢٢).

(٣) الديوان، (٢٧٥/١)، معارف.

(٤) نفسه، (٢١٨/١).

## الفصل الثاني

- أَيْ اللَّهُ إِلَهًا مَا تَرُونَ قَمَا لَكُمْ عَنَابٌ عَلَى الْأَقْدَارِ يَا آلَ طَالِبٍ<sup>(١)</sup>  
 - خَلِيلِي هَذِي دَارُ شَرَّةٍ فَاسْأَلَا مَعَايِهَا لَوْ كَانَ ذَلِكَ يُعِيدُهَا<sup>(٢)</sup>  
 - وَيَا رَبُّ يَوْمٍ لَا تُوَارِي لُجُومُهُ مَدَدْتُ إِلَى الْمَظْلُومِ فِيهِ يَدَ الثَّصْرِ<sup>(٣)</sup>  
 - مَا أَنَسَ لَا أَنَسَى إِذْ قَامَتْ تَوَدَعْنَا بِعَمَلِهِ دَمْعُهَا فِي حَقِّهَا غَرَقَ<sup>(٤)</sup>  
 - عَرَجٌ عَلَى الدَّارِ الَّتِي كُنَّا بِهَا تَغَيَّرَتْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِنَا بِهَا<sup>(٥)</sup>  
 - وَقَدْ أَغْتَدِي مِنْ شَانِ نَفْسِي بِسَابِجٍ جَوَادٍ كُمَيْتِ اللَّوْنِ يُعْجِبُ إِعْجَابًا<sup>(٦)</sup>  
 - وَإِنِّي مَقْفَلُ الضَّائِرِ عَنْ حُبِّ سَوَاهِمٍ سَاحَتِ الْإِبِلِ<sup>(٧)</sup>  
 - أَلَمْ تَحْزَنْ عَلَى الرَّيِّحِ الْمُحِيلِ وَأَطْلَالٍ وَأَثَارٍ مَحُولٍ<sup>(٨)</sup>  
 - عَفْثَ الرِّيحِ بَعْدَكَ كُلَّ يَوْمٍ وَجَالَتْ فِيهِ أَعْنَاقُ السَّيُولِ

ومن أثر الحضارة أيضا أن ألفاظ شعر ابن المعتز وغيره من الشعراء قد طعمت بشيء مما كان شائعا في ذلك العصر من الألفاظ الأعجمية، والتي صارت تجري على لسان الناس في عفوية. فنجد في شعره ألفاظا منقولة عن الفارسية منها: النرجس، والنمرين، والمسك،

( ١ ) نفسه، (٢٣٦/١).

( ٢ ) نفسه، (٢٤٨/١).

( ٣ ) نفسه، (٢٥٤/١).

( ٤ ) نفسه، (٢٧٣/١).

( ٥ ) نفسه، (٢٣٠/١).

( ٦ ) نفسه، (٢٢٥/١).

( ٧ ) نفسه، (٢٧٥/١).

( ٨ ) نفسه، (٢٨٢ /١).

والعنبر. الجوز واللوز. الفالودج. الديباج. السندس. الطيلسان. المهرجان.  
والنيروز.. وكلها. مما يخص الحضارة المادية:

ومن ذلك قول ابن المعتز في السندس:

وَكَاَنَّ كَشْرَ الْأَرْضِ بِالْـ      أَنْوَارٍ حِينَ قَلَحْنَا  
مَلِكٌ عَلَيْهِ جَوْهَرٌ      فِي سُنْدُسٍ قَدْ أَكْثَفَا<sup>(١)</sup>

وقوله في الإفريز وهو (طنف الجدار):

بُلَيْتَ بَعْدَ خِيهِ      بِضَابِطٍ عَزِيْزٍ  
وَأَنْفُسُهُ كَشَعْرَةٍ      تُحْشَى مِنَ الْإِفْرِيزِ<sup>(٢)</sup>

والجلنار في قوله:

وَيَخْجَلُ إِذْ يَلَاقِي كَأَنِّي      أَنْقَطُ غَدَّةً بِالْجَلْنَارِ<sup>(٣)</sup>

والديباج:

وَإِذَا بَدَأَ تَحْتَ الرِّجَالِ خَبِيئَةٌ      مُتَسَرِّبَةً قُوْبًا مِنَ الدِّيبَاكِ<sup>(٤)</sup>

وفي (البردست) وهو العود. يقول:

مِنْ غَلْبَرِي مِنْ صَاحِبِ خَادِعٍ      الْوَعْدِ وَهَذَا مِنَ الْأَخْيَاءِ يَخْفِي  
أَهْدَأُ مَا شِئًا وَيَسْخَبُ نَابَا      بِسِوَاكِ كَمْضَرَبِ الْبَرْدَسْتِ<sup>(٥)</sup>

ويقول:

( ١ ) الديوان، ( ٢٨٩/١ )، طبعة بغداد.

( ٢ ) نفسه، ( ٣١٦/٢ ) .

( ٣ ) نفسه، ( ١٧٤/٣ ) .

( ٤ ) نفسه، ( ٢٧٥/١ ) .

( ٥ ) نفسه، ( ٣٦٤/٢ ) .



بَخِيلٌ قَدْ شَقِيَتْ بِهِ      يَكْدُ الْوَعْدِ بِالسَّجِّ  
عَلَى بُسْتَانٍ خَدِيهِ      زُرَافِينَ مِنَ السَّجِّ<sup>(١)</sup>

وفي (الذيلوفر)، يقول:

وَبِرْكَةٍ تَزْهَوُ بِتَيْلُوفِرٍ      أَلْوَانُهُ بِالْحُسْنِ مَنُوعَةٌ<sup>(٢)</sup>

وفي الشطرنج:

وَحَيْطَانٍ كَخِطَرَنَجٍ صُفُوفٍ      فَمَا تَنْفَلِكُ تُضْرِبُ شَاءَ مَا<sup>(٣)</sup>

ويقول:

وَانْظُرْ إِلَى حَسَنِ الْحَلَالِ كَأَنَّهُ      نَوْنٌ مَذْهَبَةٌ عَلَى فَيُورُوجٍ<sup>(٤)</sup>

ويقول:

وَعَدَّتْ كَجُلُودِ الْقِدَافِ يُقْلُهَا      وَافٍ كَمِثْلِ الطَّلَسَانِ الْمُحْمَلِ<sup>(٥)</sup>

كما نجد في شعره بعض الكلمات المنقولة عن اللغة اليونانية والتي مست إليها الحاجة وخاصة فيما يتصل بعلوم الفلسفة والمنطق. يقول مثلاً:

تَلَقَّاهَا لِكِسْرَى رَبُّ كَرَمٍ      يُعَدُّ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ الْكِبَارِ<sup>(٦)</sup>

ويقول:

(١) نفسه، (٢٤٧/١). والمسيح: فارسي "شبه" وهو حجر أسود يصنع من الحز. تفسير

الألفاظ الدخيلة: طوبيا العينس، (ص: ٣٤). للزرافين: بالضم والكسر: حلقة الباب معرب وقد زرفن صدغيه جلها كالزرفين (شفاء العلل فيما في كلام العرب من الدخيل) (ص: ١٤١).

(٢) الديوان، (١٩٧/١)، طبعة بغداد.

(٣) نفسه، (١٩٥/٢).

(٤) نفسه، (٢٥١/٣).

(٥) الديوان، (٢٨٤/١)، طبعة المعارف.

(٦) نفسه، (٣١٨/١).

أَبَحْتُ لَهُ فَأَيَّقَنَ إِذْ رَأَى بِقَانُونَ الْحُكُومَةِ وَالْخَطَابِ<sup>(١)</sup>

ويقول:

وَقَدْ أَنَا بِبِرَاهِينِهِ وَمَا نَرَى الْبِرْهَانَ فِي حُجَّتِهِ<sup>(٢)</sup>

ويقول:

ومدح أفلاطون والفلاسفة وساعدته في هواه طائفته<sup>(٣)</sup>

كما ظهرت في شعره بعض الألفاظ العلمية مثل مصطلح (الغريب)

و (النحو) كما في قوله:

يَسْتَعْمِلُ الْغَرِيبَ فِي خِطَابِهِ وَغَامِضَاتِ التَّحْوِ فِي كِتَابِهِ<sup>(٤)</sup>

وكذلك يستخدم المصطلحات الخاصة بعلم الفلك مثل (تربيع النجوم

- التعديل - الإقامة - طول الأرض .. يقول:

وَلَا تَفْرَعَنَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُفْرَعٌ فَمَا كُلُّ تَرْبِيعِ النُّجُومِ بِضَائِرٍ<sup>(٥)</sup>

ويقول في أرجوزته التاريخية:

وَذَكَرَ الشُّعُودَ وَالتَّحُوسَا وَالْجَوْهَرَ الْمَعْقُولَ وَالتَّحُوسَا

وَوَضَعَ طُولَ الْأَرْضِ وَالْأَفْلَاكَ وَكَمْ بِلَادِ الصِّينِ وَالْأَنْدَلُسِ

وَالْقُرْصَ الظَّاهِرَ فِي التَّجَسُّمِ وَالْقَوْلَ فِي طَلَائِعِ النُّجُومِ

وَذَكَرَ التَّعْدِيلَ وَالْإِقَامَةَ وَقَدَّمُوا النِّظَامَ أَوْ ثَمَامَهُ<sup>(٦)</sup>

(١) نفسه، (٢١٦/٢).

(٢) نفسه، (٢١٣/٢).

(٣) نفسه، (٢١٧/١).

(٤) نفسه، (٤١٨/١).

(٥) اللديون، (١٩٥/٢)، بغداد.

(٦) نفسه، (١٦/٢).

" وأيضاً دخل في معجم الشاعر كثير من مصطلحات علم الكلام وذلك نتيجة لما أشاعه المعتزلة في المجتمع - حتى على المستوى الشعبي - من أفكار، وما كان ينعكس في مجال الشعر من الجدل الذي ملاؤا به حياة الناس".<sup>(١)</sup> فنجد ألفاظ، الشك واليقين، والباطن والظاهر والقديم والحديث وغيرها. فيقول ابن المعتز في وصف الخمر مثلاً:

فَقَدْ حَقَّقَتْ مِنْ صَفْوِهَا فَكَاثِلَهَا      بَقَايَا يَقِينٍ كَاذٍ يُدْرِكُهُ الشُّكُّ<sup>(٢)</sup>

وقوله:

صَفَتْ وَصَفَتْ رُجَاجَتُهَا عَلَيْهَا      كَمَعْفَى ذَقٍّ فِي ذَهَبٍ لَطِيفٍ<sup>(٣)</sup>

وقوله:

أَطْلَتْ وَغَدَبَتْني يَا غَدُولُ      بُلَيْتُ فَذَعْنِي حَدِيثِي يَطُولُ  
هَوَايَ هَوَى بَاطِنٍ ظَاهِرٌ      قَدِيمٌ حَدِيثٌ لَطِيفٌ جَلِيلٌ<sup>(٤)</sup>

وبين ذلك المعجم التقليدي وهذا المعجم الحديث لا يفوتنا أن نلاحظ دوران قدر غير يسير من المعجم القرآني في أشعار العباسيين، على أنه ليس لنا - ابتداءً - أن نستدل من هذه الظاهرة بحال من الأحوال على نزعة إلى التدين لدى شعراء ذلك العصر؛ لأن الظاهرة مشتركة لدى شعراء مثل أبي العتاهية من جهة وأبي نواس من جهة أخرى، والأمر في تصورنا لا يعدو أن يكون دليلاً على جانب من جوانب ثقافة الشعراء في

(١) في الشعر العباسي، الرؤية الفنية: (من: ٤٢٤).

(٢) الديوان، (٣٨٤/٢)، بغداد.

(٣) نفسه، (٢٨٩/٢).

(٤) نفسه، (٢٦٥/٢).

ذلك العصر. وقد كان حفظ القرآن لدى الأكثرية منهم أول مرحلة من مراحل التحصيل<sup>(١)</sup>.

ويتأثر ابن المعتز بالمعجم الإسلامي متأثراً ظاهراً. مما ينم عن ثقافته الإسلامية الواسعة فنراه يقول:

— ألا إلما الدنيا بلاغٌ لغايةٍ ... قياماً إلى غيٍّ وإيماً إلى رُشدٍ<sup>(٢)</sup>

— وجاء إليَّ شيطاني يُخَرِّشني على القَدَرِ

— وحاولَ كُفْرَةً مِنِّي وَجَرَّأني على سَقَرٍ<sup>(٣)</sup>

فنراه قد استخدم الغي والرشد، الشيطان، القدر الكفر، سقر وكلها ألفاظ إسلامية.

كما يتأثر بالمعاني القرآنية في قوله:

خَفِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِغَافِلٍ وَلَا بُدَّ مِنْ يُسْرِ إِذَا مَا انْتَهَى الْعُسْرُ<sup>(٤)</sup>

في الشطر الأول متأثر بقوله تعالى: "وَلَا تُخْسِنُ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ"<sup>(٥)</sup>.

وفي الشطر الثاني متأثر بقوله تعالى: "مَتَجَلَّ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرِ يُسْرًا"<sup>(٦)</sup> وكذلك قوله:

سَأَكْتُمُ حَاجَاتِي عَنِ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَلَكِنَّهَا لِلَّهِ تُبْدُو وَتُظْهَرُ

( ١ ) في الشعر العباسي: الروية والفن، ( ص: ٤٣٠ ).

( ٢ ) الديوان، ( ٤٥٦/٢ )، بغداد.

( ٣ ) نفسه، ( ٢ / ٢٧٥ ).

( ٤ ) نفسه، ( ٤٦٧/٢ ).

( ٥ ) سورة إبراهيم، ( الآية: ٤٢ ).

( ٦ ) سورة الطلاق، ( الآية: ٧ ).

## الفصل الثاني

لَمَنْ لَا يَزُودُ السَّائِلِينَ بِخَيْرَةٍ وَيَدْنُو مِنَ الدَّاعِي وَيُعْطِي فَيَكْثُرُ<sup>(١)</sup>  
متأثر بقوله تعالى: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ  
الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ"<sup>(٢)</sup>

وكذلك نراه يستخدم المصطلحات الإسلامية مثل الفقه، الحديث،  
الكبائر، الفرائض. يقول:

وَطَعَنُوا فِي الْفَقْهِ وَالْحَدِيثِ وَعَجَبُوا مِنْ مَيِّتٍ مَعْبُودٍ<sup>(٣)</sup>

وقوله:

وَدَيْتُكَ أَنْ لَا تَقْبَلَنِي سَائِلًا بَلَا فَإِنْ قُلْتَهَا لِي فَهِيَ إِحْدَى الْكِبَائِرِ<sup>(٤)</sup>

وقوله:

فَمَنْ يَقْضِي إِذَا كَانَ اخْتِلَافٌ وَيَسْتَأْذِي الْفَرَائِضَ وَالْحُقُوقَ<sup>(٥)</sup>

وكذلك يستخدم التراكيب الإسلامية مثل (أستودعك الله) (وحسبي

الله)، يقول:

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ حَيًّا نَائِي مِعَاذَ ذِمِّي أَبَدًا ذِكْرُهُ<sup>(٦)</sup>

وقوله:

لَمَتْنِي يَا مُسِيءُ وَالذَّنْبُ ذَنْبُكَ وَبَحْ نَفْسِي خَسِيئَتُكَ اللَّهُ رُبُّكَ<sup>(٧)</sup>

(١) الديوان، (٤١٨/٢)، بغداد.

(٢) سورة البقرة، (الآية: ١٨٦).

(٣) الديوان، (٥١٧/٢)، بغداد.

(٤) نفسه، (٥٢٦/٢).

(٥) نفسه، (٣١٧/١).

(٦) نفسه، (٢١٣/١).

(٧) نفسه، (٢٤٨/١).

وبذلك نجد أن شعر ابن المعتز العباسي تأثر بلغة الحضارة الإسلامية، سواء لغة الدين الإسلامي، أو لغة أمم أخرى انتصهرت في الأمة الإسلامية أو لغة الحركة العلمية، فجاء شعره خير معبر عن الحضارة الإسلامية في القرن الثالث الهجري.

## البديع في شعره

نشأ ابن المعتز في عصر فشا فيه البديع وأصبح شغل الكثير من الشعراء، وغالى فيه بعضهم غلوا شديدا حتى أحال الشعر إلى غموض وتعمية. غير أن هذه المغالاة لم تلق إحسانا ولا رضا عند الكثير من أدباء العصر وشعرائه.

وكان ابن المعتز أعنف من حمل على هذه المغالاة في مهاجمته لأبي تمام، فألف كتاب "البديع" كأول كتاب يتناول تلك المحسنات البديعية، ويشير فيه إلى أن هذه المحسنات موجودة من قبل أبي تمام ومسلم بن الوليد وذلك في القرآن والحديث وفي أشعار العرب القدامى وإن كانت بغير مسميات. يقول في مقدمة كتابه: "قد قمنا في كتابنا هذا ببعض ما وجدنا في القرآن والفقه وأحاديث رسول الله (ﷺ) وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم، وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع، ليعلم أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقبلهم وسلك مسيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه. ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شغف به حتى غلب عليه وتفرع فيه وأكثر منه فأحسن بعض ذلك وأساء في بعض وتلك عقبى الإفراط وثمره الإسراف".<sup>(١)</sup>

(١) كتاب البديع: لعبد الله بن المعتز، (ص: ١).

" وفي اعتقادنا أن ابن المعتز قد أسهم بهدفه هذا ومنهجه ذلك في الصراع الفكري الذي دار منذ أواخر القرن الثاني للهجرة بشأن الأصالة والتقليد في الدراسات البلاغية والنقدية فصم الصراع في ضوء المشاهد الغزيرة من عيون الأديب العربي لصالح الأمة العربية وأثبت أن هذه الشواهد أصيلة وأن دراستها في الميدان التطبيقي عربية أصيلة أيضا".<sup>(١)</sup>

"وبهذا اشتمت علاقة ابن المعتز بالتراث فأزداد حرصه على العودة بالبدیع إليه وعرضه عليه معتمدا في ذلك على ظروف واقعه السياسي الذي منحه كثيرا من وقته وأخلصه للشعر والأدب قبل أن يقع عليه عبء الخلافة أو تشغله مشاكل انتقالها إليه، كما اعتمد على دقة إلمامه بمصادر ثقافته وفكره، الأمر الذي ظهر في شعره واضحا، وهو ما يمكن رؤية جوانب منه فيما استلهمه من الحس الإسلامي العام، أو تأثره المباشر بالقرآن الكريم والحديث الشريف، أو ما استوحاه من القصص القرآني والقصص التاريخي، أو ما ضمنه شعره من الأمثال العربية وما ورد فيها من ترديد الأسماء التراثية للشعراء".<sup>(٢)</sup>

ورغم أن ابن المعتز هاجم أصحاب الإسراف في البديع إلا أن شعره لم يخل منه، ولكنه جاء جميلا لطيفا لا أثر للكلفة في عامته. وأكثر ما اهتم به الشاعر من أنواع البديع، الطباق والجناس والمقابلة.

والطباق هو الجمع بين الشيء وما يقابله في الكلام مثل قوله:

(١) بناء الصورة الفنية في البيان العربي: د. كامل حسين البصير، (ص: ٣٠).

(٢) القصيدة العباسية: د. عبد الله التطاوي، (ص: ١١٩).



## الفصل الثاني

كَانَ فِي الْكَاسِ حِينَ تَمَزُّجُهُ نَجْوَمٌ رَجَمَ تَعْلُو وَتَخْفِضُ<sup>(١)</sup>

وقوله:

لَقَدْ شُدَّ مُلْكُ بَنِي هَاشِمٍ وَأَبْدَلَهُ بِالْفَسَادِ الصَّلَاحُ<sup>(٢)</sup>

وقوله:

فَظَلَّ يَنَاجِي شَحَّ نَفْسِي وَجُودَهَا فَطُورًا بِهَا صَعْبًا وَطُورًا بِهَا سَهْلًا<sup>(٣)</sup>

والمقابلة: هي جمع عدة أشياء متضادة في البيت الواحد أو في أحد الشطرين. وهي في الحقيقة اتساع للمطابقة وذلك كقوله:

وَنَهَارُ خَشِبِ الرَّأْسِ يُوقِظُ مَنْ قَدْ كَانَ فِي لَيْلِ الشَّابِ رَقْدًا<sup>(٤)</sup>

وقوله:

فَأَمَامِي الْمَرْءُ مِنْ غُمْرِي وَوَرَائِي مِنْهُ مَا طَابَ<sup>(٥)</sup>

وقوله:

إِذَا مَا قَلَّ مَالِي قَلَّ مَدْحِي وَإِنْ أَثَرَيْتُ عَادُوا فِي امْتِدَاحِي<sup>(٦)</sup>

الجناس: وهو تشابه اللفظين في النطق (تشابها كاملا أو مقاربا)

مع اختلافهما في المعنى، مثل قوله:

- واعتضد الدين والدنيا بجمعتضد بالله في الله ما أعطى وما منع<sup>(٧)</sup>

(١) الديوان، (١٦٧/٢)، طبعة بغداد.

(٢) نفسه، (٧٤/٢)، بغداد.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه، (٣٠٨/٢).

(٥) نفسه، (٩٨/٢).

(٦) نفسه، (١٥٤/٢).

(٧) الديوان، (٤٧٤/١)، بغداد.

— فَهَلْ لَكَ فِي أَنْ تَعِدَ الْوَصَا لَ قَالِقُوذُ أَحَدٌ يَا أَحَدٌ<sup>(١)</sup>

وكذلك نجد في شعره الكثير من التلميحات والتي في معظمها مأخوذة من القرآن الكريم مما يدل على ثقافة ابن المعتز الإسلامية الواسعة.

تلميح

"والتلميح: هو أن يشير ناظم هذا النوع في بيت أو قرينة مسجع إلى قصة معلومة، أو نكتة مشهورة، أو بيت شعر حفظ لتواتره، أو إلى مثل سائر يجريه في كلامه على جهة التمثيل. وأحسن التلميح وأبلغه ما حصل به زيادة في المعنى المقصود، وسماه قوم التلميح بتقديم الميم، كان الناظم أتى في بيته بنكتة<sup>(٢)</sup> والتلميح لا يتأتى إلا لذوي الثقافة الواسعة. ومن تلميحات ابن المعتز، قوله:

وَمَشْمُولَةٌ قَدْ طَالَ بِالْقَفْصِ حَبْسُهَا حَكَتْ نَارَ إِبْرَاهِيمَ فِي اللَّوْنِ وَالْبَرْدِ<sup>(٣)</sup>

وهو يشير في ذلك إلى قصة حرق إبراهيم عليه السلام ويقول أيضا مشيرا إلى قصة بلقيس ملكة سبأ:

ظَهِيَ يَرَى طَرْفَهُ فَيَرْجُمُهُ وَهُوَ سِوَى ذَلِكَ لَيْثُ عَرِيسٍ

(١) نفسه، (٢ / ٢١٧).

(٢) علم البديع: د. عبد العزيز عتيق، (ص: ٣٥).

(٣) الديوان، (٢ / ٣٤٩).



\* الصورة الفنية سمة بارزة من سمات العمل الأدبي وإحدى المكونات الأصلية لبناء القصيدة، ولا يخلو عمل شعري من التصوير. وقد اتسع مفهوم الصورة ليجري ما هو أبعد من الوسائل البلاغية المعروفة، فكان في كل تعبير أدبي تصوير فني ينبعث من مقدرة الشاعر على تركيب عباراته وتنسيق كلماته وعلى قدرته في استنباط الإيحاء الفني الكامل في باطن الألفاظ وفي علاقاتها بعضها مع البعض فيكسو التعبير جمالا فنيا.<sup>(١)</sup>

\* والصورة واحدة من الأدوات الأساسية التي يستخدمها الشاعر في بناء شعره، وتجسيد الأبعاد المختلفة لرؤيته الشعرية، إنها الوسيلة الفنية الجوهرية لنقل التجربة، فما التجربة الشعرية كلها إلا صورة كبيرة ذات أجزاء، هي بدورها صور جزئية تقوم من الصورة الكلية مقام الحوادث الجزئية من الحدث الأساسي في المسرحية والقصة، وبواسطة الصورة يشكل الشاعر أحاسيسه وأفكاره، في شكل فني ملموس وبواسطتها أيضا يشكل رؤيته الخاصة للوجود ولللاقات الخفية بين عناصره.<sup>(٢)</sup>

\* والفنان لا يدرك الحقيقة إدراكا حسيًا، ولا يدركها إدراكا عقليًا، وإنما هو يدركها بصورة محسوسة، فالعنصر الحسي يحرك طاقة الخيال لدى الفنان، ويعمل الخيال يدرك الحقيقة لا كموضوع ولا كفكرة وإنما

( ١ ) الصورة الفنية في شعر دعل الخزاعي. د. علي إبراهيم أبو زيد، ( ص : ٢٤١ ) .

( ٢ ) النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال ، ( ص : ٤٤٣ ) .

### الفصل الثالث

يدركها في صورة<sup>(١)</sup>. " فالصورة تعبر عن تجربة الشاعر الفنية التي يرمز بها للواقع كما يتخيله، وقد لا تسعفه الألفاظ في اللغة العادية، فيرى نفسه مدفوعا بثورة خياله إلى تشكيل علاقات لغوية خاصة يؤلفها بخياله المبدع ليُعبر عن رؤية خاصة به<sup>(٢)</sup>.

"ولعل أبسط دلالة لكلمة الصورة، وأقربها إلى الأذهان هو دلالتها على التجسيم، أو على الأشياء القابلة للرؤية البصرية"<sup>(٣)</sup> "فتستعمل كلمة الصورة - عادة - للدلالة على كل ماله صلة بالتعبير الحسي، وتطلق أحيانا، مرادفة للاستعمال الاستعاري للكلمات"<sup>(٤)</sup>.

"ولكن الحق أن الصورة ينبغي ألا تبدو تمثيلا مصورا جامدا وإنما يجب أن تنبض بالفكر والعاطفة معا، وأن تقدم لنا مركبا عاطفيا، إذ التعبير العام في ألفاظ خاوية كسل، إنه مجرد حديث، وليس فنا ولا إبداعا"<sup>(٥)</sup>.

ويذكر د. محمود الربيعي مجموعة من تعريفات نقاد الغرب للصورة في مجال نقده للشعر، منها ما يؤكد "جونسون" حيث هي (جمع المتعة إلى الحقيقة حيث يدعى الخيال لمساعدة المنطق وجوهرها الابتكار، ويذكر "جون ستيوارت مل": أنها الكلمات التي تحل العاطفة نفسها فيها بطريقة تلقائية، ويقصد بها "ما كولاي": فن استخدام الكلمات بطريقة تلقى فيها خداعا على الخيال، والفن الذي يصنع بالكلمات ما يصنعه الرسام

(١) التركيب اللغوي للأدب، د. لطفي عبد البديع، (ص: ١٩٢).

(٢) الصورة الفنية في شعر دجيل، د. علي إبراهيم أبو زيد، (ص: ٢٤١).

(٣) التعبير البياني، د. شفيق السيد، (ص: ١٣٩).

(٤) الصورة الأدبية: د. مصطفى ناصف، (ص: ٣).

(٥) التعبير البياني، (ص: ١٤٠) وما بعدها.

## الحضارة والتصوير الفني

بالألوان، ويسمى "كارليل" الفكر الموسيقي، ويراهما "إنجار آلان بو": حلقا موقعا للجمال. ويركز "راسكين" على دور العاطفة فيها: حيث يقوم بإرساء ركائز نبيلة للعواطف النبيلة عن طريق الخيال.<sup>(١)</sup>

وأخيرا نصل إلى مفهوم مبسط للصورة وذلك إذا قلنا: إن الصورة تعبير ينقل شعور الشاعر وأفكاره معتمدا على التجسيد لا على التصريح ولا على التجريد وقد يتحقق ذلك في تعبير كامل أو في لفظة واحدة. وقد يكون هذا التعبير مجازيا متمثلا في التشبيه والاستعارة والصور البلاغية بعمامة، وقد يكون حقيقيا لكنه يساق على طريقة خاصة، فكما أنه يمكن تكوين الصورة من استعارة أو تشبيه، يمكن أيضا تكوينها من عبارة أو فقرة تبدو في ظاهرها وصفية خالصة بيد أنها تسويح إلى الخيال شيئا زائدا عن حقيقتها الخارجية.<sup>(٢)</sup> تحرك طبقات إرادية في القارئ متصلة بخياله باستخدام معلومات ترجع إلى الذاكرة وتثير تصورات الحسية.<sup>(٣)</sup> ولذلك لا بد للصورة من لون من الطزاجة والجدة؛ لأن القوة التعبيرية تضعف وتتلاشى في معظم الأحيان بال تكرار مما يضطر للكاتب الأصل لبث حياة جديدة فيها ويجعلنا نجتهد في تتبع خواصها الأسلوبية لاكتشاف طبيعة الإجراء الذي استخدمه لذلك.<sup>(٤)</sup>

وأخيرا فالصورة أداة الشاعر الفنية يعبر بها عن تجربته ويرسم مشاهدا من حياته وواقعه، قوامها الكلمات وما يحدثه بينها من علاقات

(١) في نقد الشعر: د. محمود الربيعي، (ص: ٩).

(٢) من مباحث علم البيان: د. عبد الواحد علام، (ص: ٩٩).

(٣) علم الأسلوب مبادئ وإجراءاته: د. صلاح فضل، (ص: ٢٤٤).

(٤) نفسه، (ص: ٢٣٧).

### الفصل الثالث

يبتكر بها دلالات جديدة غير مباشرة يبني بها عالما متميزا جديدا، يجمع فيها بين عناصر متباعدة، في إطار من الانسجام والوحدة، يصور المعنى تصويرا جماليا، وتخاطب المشاعر التي لا تعرف قيда أو حدا أكثر مما تخاطب الفكر، وتدع للخيال حرية التخيل حول الصور المشكلة، بحيث تظهر فيها شخصية الشاعر واضحة مميزة.<sup>(١)</sup>

أما التعريف الأمثل للصورة الذي نطمئن إليه ونسير عليه في تناول الصورة. هو أن الصورة " هي الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة، مستخدما طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالة والتركيب والإيقاع والحقيقة والمجاز والترادف والتضاد، والمقابلة والتجانس وغيرها من وسائل التعبير الفني. والألفاظ والعبارات هما مادة الشاعر الأولى التي يصوغ منها ذلك الشكل الفني، أو يرسم بها صورة الشعرية".<sup>(٢)</sup>

وعلى هذا فسوف نطوف - مع ابن المعتز العباسي - لنمتع أبصارنا بما تجلبه لنا أسماعنا من صور بديعة ومناظر مبهجة اشتهر بها الشاعر وذاع صيته.

.....

(١) الصورة الفنية في شعر دعلج، (ص: ٢٤٩).

(٢) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر: د. عبد القادر القط، (ص: ٤٣٥).

كان العرب فيما قبل العصر العباسي لا يكادون يعرفون من التشبيه إلا ما قرب فيه وجه الشبه بين الأصل والصورة. ولما اتسع الفكر العربي في العصر العباسي من أثر العلوم والثقافات بدأ الشعراء يحسون بالطبيعة إحساساً عميقاً، ويخلعون عليها معاني إنسانية غير قانعين بذلك التصوير القديم الذي عاد لا يتناسب مع التطور الفكري في عصرهم. وقد أدى هذا الاتجاه إلى اتساع شقة الخلاف بين المشبه به والمشبه أو بين الأصل والصورة<sup>(١)</sup>.

وابن المعتز العباسي يعتبر رائد المصورين في العصر العباسي ومن الثلة القليلة الذين شغلوا الدارسين من قدامى ومحدثين بشعرهم، يقول عنه ابن شرف صاحب رسائل البلقاء: "وأما ابن المعتز فملك النظام كما هو ملك الأتنام له التشبيهات المليحة والاستعارات الشكلية والإشارات السحرية"<sup>(٢)</sup> يقول العباس صاحب معاهد التنصيص: "إنه أشعر الناس في الأوصاف والتشبيهات"<sup>(٣)</sup> أما من المحدثين فيقول عنه الاسكندري: "هو أبرع الناس في الأوصاف والتشبيهات"<sup>(٤)</sup> ويقول عنه الزيات: "هو بليغ الاستعارة رائع التشبيه ودقيق الوصف لركة حسه ولطف شعوره وامتلأ ذهنه بروائع الجمال وبدائع الخيال ورونق الحضارة"<sup>(٥)</sup> أما الدكتور شوقي ضيف فيقول في هذا المجال: "وابن المعتز تضاف الخطوط الذهبية

(١) عبد الله بن المعتز: د. الكفرلوى، (ص: ١٥٢).

(٢) ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، (ص: ١٠١).

(٣) معاهد التنصيص: للعباس، (ص: ١٤٦).

(٤) الوسيط في اللغة العربية وآدابها، (ص: ٢١٠).

(٥) تاريخ الأئمة العربي، (ص: ٢٧٥).



المتألفة التي تحلي البناء وتتم العمل وتختتم على أناقته فلا تبقى بعد ذلك عملاً لعامل<sup>(١)</sup> ويقول عنه الدكتور مصطفى الشكعة: "يمثل عبد الله بن المعتز واحة أنيقة من واحات الشعر العربي ينبغي لكل دارس أن يقف حيالها بعض الوقت يتفياً ظلالها ويجتبي ثمارها ويمتّع ناظره بما جوت من لون يخلب اللب ويثير الإعجاب.

وليس بالضرورة - لكي يكون ابن المعتز على هذه الشاكلة - أن يكون صورة لواحد من النابهين من الشعراء الذين سبقوه كبشار أو أبي نواس أو العتابي أو أبي تمام أو البحتري ولكنه نسيج وحده فيما قدم لنا من صور شعرية بارعة أخاذة ومن تشبيهات مخملية أنيقة أو هي بلغة العصر أرسقراطية التكوين، بحيث لم يسبقه إليها شاعر عربي ولم يلحق به بعده شاعر آخر، ومن ثم فهو يشكل مرحلة من مراحل تطور الشعر العربي بعد البحتري هي مرحلة الصورة الشعرية"<sup>(٢)</sup>.

وبعد فما هو الجديد في شعر ابن المعتز الذي شد إليه الباحثين والدارسين هكذا ؟ لنشاهد ذلك من خلال أثر الحضارة على التصوير الفني في شعر ابن المعتز.

\*\*\*\*\*

( ١ ) المصير العباسي الثاني، ( ص: ٥١٧ ).

( ٢ ) الشعر والشعراء في المصير العباسي: د. مصطفى الشكعة، ( ص: ٧٤٠ ).

لا عجب إذا قيل إن الصورة الشعرية عند ابن المعتز هي ابن المعتز نفسه، ابن المعتز الذي تربى في بيت الخلافة بين القصور الجميلة بما تتيح من مظاهر حضارية راقية، وبين الرياض الخميلة، بما فيها من ثمار وأزهار. بين انكيابه على القراءة والكتابة واتصاله بكل روافد الثقافة في عصره، وبين غزواته في رحلات الصيد، بل بين هروبه من واقعه المرير وبين تطلعه للخلافة. بين القلق النفسي وبين اللؤلؤ والزمرد، وصنوف الجواهر وأشكالها.

ولقد صدق ابن الرومي عندما سأله البعض لم لم يقل شيئاً مثابها  
لتشبيه ابن المعتز في الهلال في قوله:

الفر إلى كزورق من فصّة      قد أثقلت حُمولة من غير

فصاح ابن الرومي: واغوثاه! إنه يصف ماعون بيته.

" فلقد صدق ابن الرومي كل الصدق في إجابته، فالذي يستعرض تشبيهات ابن المعتز وأوصافه يجدها كلها أرسنقراطية ثرية ملوكية، فيها من ألفاظ القصور ومحتوياتها ومن بيئة الخلافة وترفها الشيء الكثير".<sup>(١)</sup>  
إن بيئة ابن المعتز الخاصة لعبت في حياته دوراً كبيراً كما لعبت الظروف أيضاً، فبين امتلاكه لمقومات الخلافة من وسائل مادية لا تقصر عن غيره من الخلفاء وبين وسائل معنوية من علم ورجاحة عقل يبرز فيها غيره وبين حرمانه من الخلافة وتطلعه إليها. وقف ابن المعتز ليخط لنفسه عالماً الخاص مستخدماً فيه كل ما يملك من مقومات الخلافة وكل ما تحتوي القصور ويحيط بها. مستمداً عناصر بنائه من مظاهر الحضارة

(١) الشعر والشعراء في العصر العباسي: د. مصطفى الشكعة، (ص: ٧٦٩).

التي ينتمي إليها. هذا العالم الجديد \* ليس وصفا للواقع، وليس وصفا لواقع بديل، ليس وصفا بأي حال، ولكنه "رؤية" للأشياء، وهذه الرؤية تتساند أو تتوحد لتصنع عالما الخاص والمميز".<sup>(١)</sup>

ومن خلال هذا العالم المميز أتى ابن المعتز بصور عجيبة خطها بريشة فنان وتفكير مبدع.

والطبيعة بكل ما تتطوي عليه من أشياء وجزئيات وظواهر هي المصدر الأساسي لإمداد الشاعر بمكونات الصورة. "فالأرض عالم قريب بالنسبة للإنسان، عليها يولد، وفيها ينمو ويترج ويسين جنباتها يغدو ويروح.. ثم إليها يعود مرة أخرى، إن علاقته بها وثيقة.

وعالم النبات ميدان من هذه الميادين التي يأخذ الجمال فيها حظه سواء في المشهد الكلي للحديقة أو الحدائق.. أم في المشهد الجزئي، مشهد وردة أو غصن.. حيث تأخذ الألوان مكانها في النفس سواء من حيث التنوع أو من حيث التدرج. إن زهرة واحدة من بعض أنواع الزهور لتحوي من التدرج في التكوين ما تعجز عنه ريشة أكبر الفنانين.

وفي عالم النبات، جانب آخر من الجمال. ذلك الذي ينشر الروائح الزكية والعطر الفواح... وهو مهوى أفئدة الطيور المغردة والفراشات الباحثة عن الزهر.

إن الجمال لينساب إلى النفس من كل منافذها من خلال العين والأذن والأنف".<sup>(٢)</sup>

(١) الصورة والبناء الشعري، د. محمد حسن عبد الله، (ص: ١٨٦).

(٢) الظاهرة الجمالية في الإسلام: صالح أحمد الشامي، (ص: ١٣٥).

ولا ينقل ابن المعتز الطبيعة " في تكوينها وعلاقتها الموضوعية، إنه يدخل معها في جدل، فيرى منها، أو تراه من نفسها جانبا، يتوحد معه بإدراك حقيقة كونية وشخصية معا".<sup>(١)</sup>

ولنتأمل صور ابن المعتز لنرى كيف استخدم مظاهر الحضارة في القرن الثالث الهجري في تركيب صوره. ولنبدأ بالأرض التي نعيش عليها لننظر ما فيها من نباتات وأزهار وحيوانات وغير ذلك. ولنبدأ باستخدام صور الأزهار فقد كان العصر شغوقا بها فقد أكسبت الحضارة الطبع ذوقا وجمالا.

نجد ابن المعتز يغرم بزهرة النرجس فيصفها أكثر من مرة، وفي كل مرة يأتي بصورة جديدة، ولكنها تعكس مزاج من تربي في القصور، ونشأ بين الزهور والجواهر. يقول واصفا النرجس ويشبهه بالعيون:

غَيُونٌ إِذَا عَايَنَتْهَا فَكَأَلَمَا دُمُوعُ التَّدَى مِنْ فَوْقِ أَجْفَانِهَا دُرٌّ  
مَحَاجِرُهَا بَيَضٌ وَأَجْفَانُهَا خَضَرٌ وَأَحْدَاقُهَا صُفْرٌ وَأَنْفَاسُهَا عَطَرٌ  
بِرُوضَةٍ يُسْتَانُ كَأَنَّ لَبَائِهَا تَقْنَعُ وَشَيْءًا حِينَ يَاكُرُهَا الْقَطَرُ<sup>(٢)</sup>

ولعله في هذه الصورة. قد تأثر بقول كسرى أنوشروان وكان مولعا بالنرجس "هو ياقوت أصفر، بين در أبيض، على زمرد أخضر".<sup>(٣)</sup>

(١) الصورة والبناء الشعري، د. محمد حسن عبد الله، (ص: ٣٣).

(٢) الديوان، (١٨٣/٢)، المعارف.

(٣) زهر الآداب للحصري القيرواني، (٢ / ٥٦٥).

" ويرق ابن المعتز ويبدع وهو يرسم صورة أخرى للنجس مع تشبيهين أولهما يرتبط بالغنى والترف، وثانيهما يتصل بالعشق والصبابة بأسباب. يقول:

أما ترى النرجس الميَّاس يَلْحَقُنَا      الحَاظُ ذِي فَرْحٍ بِالْعَتَبِ مَسْرُورِ  
كَأَنَّ أَحْدَاقَهَا فِي حُسْنِ صُورَتِهِ      مَدَاهِنُ التَّسْرِيرِ فِي أَوْرَاقِ كَافُورِ  
كَأَنَّ طَلَّ التَّدْيِ فِيهِ لِمُبْصِرِهِ      دَمْعٌ تَرَقَّرَقَ مِنْ أَجْفَانِ مَهْجُورِ<sup>(١)</sup>

ويبلغ ولع العصر بالأزهار - إلى حد التعصب في حبها فنجد ابن الرومي مثلاً يتعصب للنجس ويذم الورد فيقول في تفضيل النرجس على الورد وكان المناظرات العلمية قد انتقلت إلى الأزهار فنراه يدلي بحججه وبراهنيه:

خَجَلْتُ خُدُودُ الْوَرْدِ مِنْ تَفْضِيلِهِ      خَجَلْتُ تَوَرُّدُهَا عَلَيْهِ شَاهِدُ  
لَمْ يَخْجَلِ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ لَوْنِهِ      إِلَّا وَنَاحِلُهُ الْقُضِيلَةُ عَانِدُ  
فَضَّلْتُ الْقُضِيَّةَ أَنَّ هَذَا قَاتِلُ      زَهَرِ الرِّيَاضِ وَأَنَّ هَذَا طَارِدُ  
شَتَّى بَيْنَ السَّيْنِ هَذَا مُوعِدُ      بَسْلُبِ الدُّنْيَا، وَهَذَا وَاعِدُ  
وَإِذَا احْتَفَظْتُ بِهِ فَاثَمَعَ صَاحِبُ      بِحَيَاتِهِ، لَوْ أَنَّ حَيَا خَالِدُ  
لِلنَّجَسِ الْفَضْلُ الْمُبِينُ وَإِنْ أَبَى      آبٍ وَحَادَ عَنْ الطَّرِيقَةِ حَائِدُ  
مِنْ فَضْلِهِ عِنْدَ الْحِجَاجِ بَأَنِهِ      زَهَرٌ وَكُوْزٌ وَهُوَ بَيْتٌ وَاحِدُ  
يَحْكِي مَصَابِيحَ السَّمَاءِ، وَتَارَةً      يَحْكِي مَصَابِيحَ الْوُجُوهِ تَرَاوِدُ  
يَنْتَهِي النَّدَمُ عَنِ الْقَبِيحِ بِلَحْظِهِ      وَعَلَى الْمَدَامَةِ وَالسَّمَاعِ مُسَاعِدُ  
اطْلُبْ بِعَفْوِكَ فِي الْمَلَاكِ سَيِّئُهُ      أَبَدًا فَإِنَّكَ لَا مَحَالَةَ وَاجِدُ

(١) الشعر والشعراء في العباسي: د. مصطفى الشكعة، (ص: ٧٧٣).

والورد - لو فشت - فرد في اسمه  
هذي النجوم هي السق ريشهما  
فأمل الاثنين من أدناهما  
أين العيون من الحدود نفاسة<sup>(١)</sup>

وقد ناقضه جماعة من البغداديين وغيرهم في هذا المذهب، وذهبوا إلى  
تفضيل الورد؛ فما دأبوه وما استطاعوه، فقال أحمد بن يونس الكاتب  
رأذا عليه:

يا من يشبه نرجسا بنواظر  
إن القياس لمن يصح قياسه،  
والورد أصدق للحدود حكاية  
ملك قصر عمره مشتاهل  
إن قلت: إن الورد فرد في اسمه  
فالشمس تفرد باسمها والمشتري  
أو قلت: إن كواكبها ريشها  
قلنا: أحقهما بطبع أبيه في السـ  
زهر النجوم تزوقنا بضائنها  
وكذلك الورد الأبيض يزوقنا  
وخليفه إن غاب ناب بتفعبه  
إن كنت تذكر ما ذكرنا بعدما

دعج، تبه إن فهمك راقد  
بين العيون وبينه متباعد  
فعلام تجحد فضله يا جاحد؟  
تخليده، لو أن حيا خالدا  
ما في الملاح له سمي واحد  
والدبر يشرك في اسمه وعطارد  
بخيا السحاب كما يرسي الوالد  
جذوى هو الزاكي النجيب الراشد  
ولها منافع حمة وغواليذ  
وله فضائل جمّة وقواليذ  
وبنقحه أبدا مقيم راكيد  
وضحت عليه دلّال وشواهد

(١) ديوان ابن الرومي: تحقيق/ د. حسين نصار، (٦٤٣/٢ - ٦٤٤).

النظر إلى المصفر لو كما منهما وافطن فما يصفر إلا الحاسية<sup>(١)</sup>  
أما الورد عند ابن المعتز فأمر يجب أن يطاع. يقول في تفضيله  
الربيع على الخريف:

لذة الناس في الخريف ولكن بالذي في الربيع ثم سروري  
ذاك حلف الشتاء والبرد والقـ سر وهذا حليف بدر منير  
لم نزل في الرياض نشرب حتى عطط الورد في قفا المنصور  
ثم نادى الربيع جاءكم الـ رد أميرا فأذعنوا للأمير<sup>(٢)</sup>

ويقول عنه أيضا:

حسي من الورد توريد الحدود كما حسي محسود من البشر<sup>(٣)</sup>  
ثم يقول مرحبا به، يشبهه بعطار قادم بروائح الزكية، يشبه لون  
الورد في احمراره وجماله بلون خجله يحل سراويله وأزراره، رابطا بين  
جماله والجمال البشري:

أهلاً بزائري عام مروة أبدا لو كان من بشر قد كان عطارا  
كألما صبقه وجنتنا خجل قد حل عقه سراويل وأزرارا  
فلو رآه حيس فسوق صومعة لقال في مثل هذا فادخلوا النارا<sup>(٤)</sup>

(١) زهر الأدب، (٢/ ٥٦٦ - ٥٦٧).

(٢) الديوان، (١٨٧/٢)، طبعة دار المعارف.

(٣) نفسه، (ص: ١٨٣).

(٤) نفسه، (ص: ١٧٩).

وحول هذه الصورة يدور ابن المعتز فيقول في نفس المعنى مصورا الورد بصورة خدود بيضاء احمرت من الخجل هذا في لونه أما في استقباله فقد أقبل معززا مكرما. يقول:

أناك الورد محبوبا مصونا كمشوق تكثف الصدود  
كان وجهه لما توافقت لجوفا في مطالعها سعود  
يباض في جوانبه اجرازا كما احترت من الحجل الحدود<sup>(١)</sup>

ويبين ابن المعتز شغفه وحبه للورد حتى كان يهدى إليه في صورة

جميلة:

أهدت إليّ ألي نفسي الفداء لها الورد كوعين مجموعين في طبعي  
كان أبيض من فوق آخره كواكب أشرقت في حمرة الشفق<sup>(٢)</sup>

والبنفسج زهر غرض تبصر فيه زرقه وأوراقه وحمرة ساقه، فيشبهه ابن المعتز لا يزهر مثله ونبات آخر شبيه به، ولكن يشبهه بلهب نار لا يستطيع سوى الحاذق أن يتخذ منها له مثالا، ثم لا يكتفي بذلك بل دق في التصوير ونظر نظرة خاصة غريبة فشبهه بزرقه النار أول ما تشتمل في الكبريت فيبلغ غاية التصوير وملك زمام الإجابة حين يقول:

ولا زردية ترهو بزرقها بين الرياض على حمر التواقيت  
كألفها ورقاق القضب تحملها أوائل النار في أطراف كبريت<sup>(٣)</sup>

(١) نفسه، (١٥٤/٢).

(٢) الديوان، (١١٨/٢)، طبعة دار المعارف.

(٣) الديوان، (٢٢٨/٢)، طبعة دار المعارف.



## الفصل الثالث

والدنيا تكون جميلة في فصل الربيع، ولكن دنيا ابن المعتز ستكون أجمل بالطبع ولنعمش معه تلك الصورة نشاهد ونشم ونضحك، الدنيا متعطرة ومتزينة بشتى أنواع البنات، كالبغي التي تتزين للزناة، والصباح يخلع رداءه الأسود، والطيور تشدو بجميع أصناف اللغات، والورد يضحك ولكن من ماذا ؟ من نواظر النرجس التي أصيبت بالقذى وذلك بعد أن أصابه الجفاف، يقول:

انظر إلى دنيا ربيع أقبلت      مثل البغي ترجت لزناة  
جاءتك زائرة كمام أول      وتلئت وتعطرت بنات  
وإذا تمرى الصبح من كافوره      نطقت صوف طيورها بلغات  
والوزد يضحك من نواظر نرجس      قدئت وأذن حياء بمعات<sup>(١)</sup>

"ولابن الرومي صورة مثل هذه الصورة تماماً فيصور تبرز الدنيا في فصل الربيع وهي تنشى على آلاء الرحمن حيث تروق كل ناظر إليها. وتلبس الأرض أثواباً أنيقة من رائق الزهر. ووجد أن الروض قد اكتسى بأفواف الحبر: فكان الطبيعة أنشى قد أخذت زينتها لاستقبال الرجال ولكن بعد حياء وخفر:

أصبحت الدنيا تروق من نظري      بمنظر فيه جلاء للبصر  
أنت على الله بآلاء المطر      فالأرض في روض كافواف الحبر  
تيرة الثوار زهراء الزهر      ترجت بعد حياء وخفر  
تبرج الأنثى تصدت للذكر<sup>(٢)</sup>

( ١ ) ابن الرومي، محمد عبد الغني حسن، ( من: ٧٩ ).

( ٢ ) الوصف الفن الغنائي، ( من: ٧٦ )، دار المعارف.

" أما البحترى فحسب أن الربيع يتكلم من حسنه فهو يختال ضاحكا مسرورا، لم يرى من زهر ونور، فالورد ينبه للنوم النعس، والبرد يفتق الزهر فكأنه يبث حديثا كان مكتوما، والشجر اكتسى بلباس كالوشى منملم، ورق النسيم حتى لكانه أنفاس الأحياء "، قول:

أماك الربيع الطلق يختال ضاحكا      من الحسنى حتى كاذ أن يتكلما  
وقد ثبته التوروز في غلبي الدجى      أوائل ورد كن بالأمسي نوما  
يفتقها برد القدي فكأنه      يث حديثا كان أمسي مكلما  
ومن شجر رذ الربيع لباسة      عليه كما نشرت وشيا مئتما  
أخل فأبدى للميون بشاشة      وكان قذئ للعين إذ كان محروما  
وزق نسيم الربيع حتى حبيته      يحيى بأنفاس الأحياء نوما<sup>(١)</sup>

ثم يصور لنا الرياض في فصل الربيع، وفيه تكون الرياض أجمل ما تكون بهاء وابتساما، وآذار أول الربيع فيه تكتسي الأرض بالألوان الزاهية من أخضر وأصفر وأبيض وأحمر، وهي نفسها ألوان الغصون والأزهار من آس ونسرين وورد وبهار، يرى ابن المعتز ذلك فيجزي على لسانه شعرا رقيقا رخيا، يقول:

حذا آذار شهرا      فيه للنور انشاز  
ينقص الليل إذا خل      ويمتلئ النهار  
وعلى الأرض اصفرا      واخضرار واحرار  
نقشه آس ونسرين      ووزد ومهار<sup>(٢)</sup>

(١) ديوان البحترى، (٤/ ٢٠٩٠ - ٢٠٩١).

(٢) الديوان، (٦١٢/٢)، بغداد.

ومن صور ابن المعتز الطريفة تلك الصورة التي جمع فيها عددا من الألوان وعددا من الأزهار، حتى وكأنه يكاد ينقلنا إلى معرض أزياء تتعكس على (فاترينته) صور أزهار لمحل أزهار مقابل له. يقول:

يَبْضَاءُ إِنْ لَيْسَتْ بَيَاضًا خَلَّتْهَا      كَالْيَاسَمِينِ مُتَضَعًا فِي مَجْلِسِ  
وَإِذَا بَدَتْ فِي حُمْرَةٍ فَكَأَنَّهَا      وَرْدٌ مِنَ الدَّارِيِّ حُسْنًا مُكْتَسِي  
وَإِذَا بَدَتْ فِي خُضْرَةٍ فِي صُفْرَةٍ      فَكَأَنَّهَا لِلْحُسْنِ بَاقَةٌ كَرَجِي<sup>(١)</sup>

وبلغت براعة المعتز ونبوغه في التصوير وفتنته بالطبيعة المدى الذي جعله يصفها ويخلق في سماء زاهية من الفن الرفيع من خلال بحر الرجز، وهو بحر عودنا الشعراء الجد والخشونة والإغراب اللفظي فيه رغم أنه أنشأ أصلا للحداثة، أما ابن المعتز فهو من خلال واحدة من أرجوزتيه الطويلتين الرائعتين اللتين لم يتح لشاعر آخر أن يبلغ شأوه فيهما يصور جمال الطبيعة والبساتين تصويرا يقول عنه الدكتور طه حسين: "إنه آية في الإبداع الفني بحيث لا يظن أن أحدا قد استطاع أن يأتي بمثله في تشبيهاته واختراعات المعاني البديعة التي تثيرها هذه الرياحين".<sup>(٢)</sup>

يقول ابن المعتز في أرجوزته وقد جمع كل أصناف الزهور المعروفة عصره يقابلها بكل ما يعرف من حلي وجواهر. مستخدما كل ما يعرف من صورة حضارية، فبدأ مصورا رساما بارعا محلقا:

أَمَّا تَرَى الْبَيْتَانَ كَيْفَ نَوَّرَا      وَتَشْرَى الْمَنُشُورَ بُرْدًا أَصْفَرَا  
وَضَحِكُ الْوَرْدِ عَلَى الشَّقَائِقِ      وَاعْتَقَ الْقَطَرُ اعْتِاقَ الْوَامِيقِ

(١) الديوان، (١٨٧/٢)، المعارف.

(٢) الشعر والشعراء في العصر العباسي، (ص: ٧٧٠)، حديث الشعر والنثر، (ص: ١٦٤).

فِي رَوْضَةٍ كَحَلَّةِ الْعُرُوسِ      وَخَدِمَ كَهَامَةِ الطَّاوُوسِ  
 وَيَأْسَمِينِ فِي ذُرَى الْأَغْصَانِ      مُنْتَظِمًا كَقَطْعِ الْعَقِيَانِ  
 وَالسَّرُوءِ مِثْلَ قِطْعِ الزَّرْجَدِ      قَدْ اسْتَمَدَّ الْمَاءَ مِنْ تَرْبٍ لَدِي  
 وَقَرْنِ الْحَشِخَاشِ جَيِّبًا وَقَفَقَ      كَأَلَّةِ مَصَاحِفَ بَيْضِ الْوَرَقِ  
 حَتَّى إِذَا مَا انْتَشَرَتْ أَوْدَانُهُ      وَكَأَذَ أَنْ يُرَى إِلَيْنَا سَالُهُ  
 صَارَ كَأَقْدَاحٍ مِنَ الْبَلُورِ      كَأَلْمَا تَجَسَّمَتْ مِنْ نُورِ  
 وَبَعْضُهُ غُرِيَانٍ مِنَ الْوَابِسِ      قَدْ أَحْجَلَ الْأَعْيُنَ مِنْ أَصْحَابِهِ  
 بُصْرُهُ بَعْدَ انْتِشَارِ الْوَرْدِ      مِثْلَ الدَّهَابِيِّ بِأَيْدِي الْجُنْدِ  
 وَالسُّوسَنِ الْأَزْرَ مَنْشُورِ الْحُلَلِ      كَقُطْنٍ قَدْ مَسَّهُ بَعْضُ الْبَلَلِ  
 كُورٌ فِي حَاشِيَتِي بُسَاتِنِهِ      وَدَخَلَ الْبُسَاتِنُ فِي حِمَامِهِ  
 وَقَدْ بَدَتْ فِيهِ لِمَارُ الْكَبْرِ      كَأَلْهَا حِمَائِمٌ مِنْ غَبْرِ  
 وَخَلَقَ الْبَهَارُ فَوْقَ الْأَسَى      جُمُوعَةَ كَهَامَةِ الشَّمْسِ  
 حِبَالٌ نَسَجَ مِثْلَ حَبِيبِ التَّصْفِ      وَجَوْهَرٌ مِنْ زَهَرٍ مُخْتَلِفِ  
 وَجُلُنَارٌ مِثْلَ جَمْرِ الْحَدِّ      أَوْ مِثْلَ أَعْرَافِ ذُبُوكِ الْهِنْدِ  
 وَالْأَقْحُوَانُ كَالنَّايَا الْغُرِّ      قَدْ صَقَلَتْ نَوَازِحَهَا بِالْقَطْرِ<sup>(١)</sup>

\* والفاكهة متعة للنظر في أشكالها وتنوعها وألوانها، وما زال فن  
 الرسم منذ القدم وحتى عصرنا الحاضر، يقدم لوحات لها لما تؤدبه من  
 دور جمالي.. وهي مع هذا متعة للمذاق\*<sup>(٢)</sup>

(١) الديوان، (٣٠/٢)، دار المعارف.

(٢) الظاهرة الجمالية في الإسلام، (ص: ١٧١).

ولنتأمل هذه الصورة والتي يبدو فيها تأثيره بالطابع الحضري وبعده عن الخشونة التي كان يفرضها واقع الصحراء. مستمدا عناصرها من واقع الحياة الحديثة صورة أشجار النارنج، والتي تحمل في أغصانها ثمارا من الذهب الخالص، ثم يزيد الشاعر الصورة وضوحا فيتخيل تلك الثمار كرات صوالة بين أيدي المحظوظين أمثاله. يقول:

وَكَاكِمَا النَّارَنْجُ فِي أَغْصَانِهِ مِنْ خَالِصِ الذَّهَبِ الَّذِي لَمْ يُخْلَطْ  
كُرَّةَ رَمَاهَا الصَّوْلُجَانُ إِلَى الْفَوَا قَتَعَلَتْ فِي جَوْهٍ لَمْ تَقُطْ<sup>(١)</sup>

ثم يضمن ابن المعتز وصف النارنج صورة غزلية رقيقة في نطاق تشبيه بهيج متلاعبا بالمعاني عازفا على وتر موسيقي من الألفاظ راسما صورة تدب فيها الحياة. يقول:

كَأَكْمَا النَّارَنْجُ لَمَّا بَدَتْ صُفْرَتُهُ فِي حُمْرَةِ كَاللَّهَبِ  
وَجَنَّةٌ مَعْشُوقٍ رَأَى عَاشِقًا فَاصْفَرُّ ثُمَّ احْمَرُّ خَوْفَ الرَّقِيبِ<sup>(٢)</sup>

ثم يلح أثر البيئة على ابن المعتز فيتمادى في تصوير ماعون بيته فيصور لنا عناقيد الكروم وظلها بالكواكب في السماء، ولكنها ليست كواكبا التي نلاحظها وسمانا التي نراها بل كواكب ابن المعتز وسماءه، وإلا فأي كواكب من در وسماء من زبرجد؟ يقول:

كَأَنَّ عَنَاقِيدَ الْكُرُومِ وَظِلُّهَا كَوَاكِبُ دُرٍّ فِي سَمَاءِ زَبْرَجَدٍ

أما ليمون ابن المعتز - فهو غير ليموننا بالطبع - فذهب من حيث الشكل، ومسلك من حيث الرائحة. يقول:

(١) الديوان، (٢١٤/٢)، دار المعارف.

(٢) نفسه، (١٧٩/٢٠).

كألما الليمون لَمَّا بَدَا لِلْعَيْنِ فِي أَوْرَاقِهِ الْخَضِرِ  
مَدَاهِنَ مِنْ ذَهَبٍ أَطْبَقَتْ عَلَى زَكِيِّ الْمِسْكِ وَالْحَمْرِ<sup>(١)</sup>  
وللنظر كما دعانا إلى صورة جزره وهو بين سيقانه وأوراقه.

يقول:

أَنظُرْ إِلَى الْجَزْرِ الَّذِي يَحْكِي لَنَا لَهَبَ الْحَرِيقِ  
كَمِذْبَهِ مِنْ سُندُسٍ وَبِهَا نِصَابٌ مِنْ عَقِيقِ<sup>(٢)</sup>  
أو إلى قنائه. يقول:

انظر إليها أنابيباً متضدة من الزمرد خضراً ما لها ورق<sup>(٣)</sup>

أما مشمشه فبنادق ولكن من ذهب يثير الفرج والبهجة في النفوس.  
ومشمش بان منه أعجب العجب يدعو النفوس إلى اللذات والطرب  
كأن في غصون الدوح حين بدا بنادق خُرطت من خالص الذهب<sup>(٤)</sup>

ووصف لنا الرمان من الخارج ومن الداخل فيقول:

وَلَاخَ زُمَانِنَا فَرَزْنَتَنَا بَيْنَ صَحِيحٍ وَبَيْنَ مَفْتُوتٍ  
مِنْ كُلِّ مَصْفَرَّةٍ مَعْصَفَرَةٍ تَفُوقُ فِي الْحَسَنِ كُلَّ مَنَعُوتٍ  
كَأَلِهِ حُقَّةٌ وَإِنْ فَتَحْتَ فَصْرَةً مِنْ قُصُوصِ يَاقُوتٍ<sup>(٥)</sup>

(١) الديوان، (٥٧٩/١)، بغداد.

(٢) نفسه، (٥٨٣/١)، بغداد.

(٣) نفسه، (٥٨٥/١).

(٤) شعر الطبيعة، د. سيد نوفل، (ص: ١٩٠).

(٥) الديوان، (١٦٦/٢)، المعارف.

والبرك مظهر حضاري من مظاهر القرن الثالث الهجري. فيصور لنا ابن المعتز البركة في صفاء مائها وشكلها، بالمرأة المصقولة في أيدي جارية، ولكن مادامت البركة لها خليج يصب فيها فلا بد أن يكون للمرأة مقبض أيضا. يقول:

كَانَ الْبِرْكَةُ الْغَتَاءَ لَمَّا غَدَتِ بِالمَاءِ مُفَقَّصَةً تَمُوجُ  
وَقَدْ لَاحَ الدَّجَى مَرَأَةً قَلْبَيْنِ قَدْ انْصَقَلَتْ وَمَقْبِضُهَا الْخَلِيجُ<sup>(١)</sup>

ويقول في وصف بركة أخرى:

اشرب على بركة يَلْسُوفَرٍ مَحْمُورَةِ الْأَوْرَاقِ غَضْرَاءِ  
كَأَنَّهَا أَزْهَارُهَا أَخْرَجَتْ أَلْسِنَةَ النَّارِ مِنَ الْمَاءِ

\* فالحضارة المادية في بيئة المشاعر الخاصة لا تبخل لهذه البركة التي تتسع لتتضم إليها مجلس شراب في اخضرار واصفرار وما شاء الله من الألوان التي ابتدعتها الطبيعة ومهارة الفن والصناعة. أما أن تخرج أزهارها ألسنة من النار بين لجج مياهها فتلك صورة لا تستوي نسيج وعي فني ومهارة شاعرية مقبولة إلا بضرب من البناء اللغوي الفني.<sup>(٢)</sup>

ومادامنا نزلنا في الماء فينبغي أن نركب سفينة ابن المعتز التي يصورها لنا تصويرا دقيقا. فيقول:

وَزِلْجِيَّةٌ كُرْدِيَّةٌ خَلَّى فَوْقَهَا جَنَاحَهَا فَرَدَّ عَلَى الْمَاءِ تَخْفِيقُ  
يُؤَدِّبُهَا أَوْلَادُهَا بِعَصِيَّتِهِمْ فَحَبَسَ قَسْرًا كَيْفَ سَارُوا وَلَطَّلَقَ<sup>(٣)</sup>

(١) الديوان، (١/٥٦٦)، بغداد.

(٢) بناء الصورة في البيان العربي: د. كامل مهدي البصير، (ص: ٤٧٩).

(٣) الديوان، (٢/١٩٢)، المعارف.

أما عن تصوير الحيوانات فنجد ابن المعتز يصور لنا أو ينقل لنا على الهواء مباراة لسباق الخيل، والسباق على أشده، حتى أنهما لا يفرق بينهما في السباق إلا كفرق أطوال الأصابع. يقول:

خرجن وبعضهن قريب بعض      سوى فوت العذار أو العنان  
تري ذا السبق والمسبوق منها      كما بسطت أناملها البدان<sup>(١)</sup>

"وأي شاعر يستطيع أن يجمال الفهد كما جملة ابن المعتز وأن يجليه في مقام الصيد والفتك كما تجلى العروس الحسناء بقلاندها الذهبية ومنظرها الفضي النضير ؟

وَلَا صَيْدَ إِلَّا بِوَنَابِئَةٍ      تَطِيرُ عَلَى أَرْبَعٍ كَالْعَذَبِ  
فَزَوْبَةً مِنْ نِسَاءِ الرِّبَا      حُثِرِكَ عَلَى الْأَرْضِ شَيْئًا عَجَبِ  
تَضُمُّ الطَّرِيدَ إِلَى نَحْرِهَا      كَضَمِّ الْحَبِيبَةِ مَنْ لَا يُحِبُّ  
إِذَا مَا رَأَى غَدْرَهَا خَلْفَهُ      تَنَاجَتْ حَمَائِرُهُ بِالْقَطَبِ  
هَذَا مُجْلِسٌ فِي مَكَانِ الرَّدِيدِ      فِي كَرْمِيَّةٍ سَنِيهَا لِلْعَرَبِ  
وَمَقْلَتُهَا سَائِلٌ كَحُلُمِهَا      وَقَدْ جُلِّيَتْ سَبَجًا فِي دَهَبِ  
وَأِنْ أَطْلَقَتْ مِنْ قِلَادَتِهَا      وَطَارَ الْغَبَارُ وَجَدَ الطَّلَبِ  
غَدَتْ وَهِيَ وَاثِقَةٌ أَمَّا      تَقُومُ بِزَادِ الْخَمِيسِ اللَّجَبِ<sup>(٢)</sup>

أما ناقة ابن المعتز فيرسم لها صورة حضارية يقول:

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي: د. شوقي ضيف، (ص: ٢٧٣).

(٢) شعر الطبيعة في الأدب العربي، د. سيد نوقل، (ص: ١٩١).



ولقد تجوب في المهامه جزرة والصبح قد فلق الدجى بعمود  
شلالته أنف كان فزوجها أبواب قصر فتحت لوفسود<sup>(١)</sup>

وبعد أن تجولنا مع ابن المعتز على الأرض يجدر بنا أن نصعد معه إلى السماء. لنجد ابن المعتز العباسي يتأمل في نظام الكون طامحا إلى كشف أسرارها العليا... فنجد لديه رغبة جامحة في اختراق الأجواء وأطباق السماء حتى يستوي على صهوة بعض الأبراج ويشهد دوران الفلك وتتجلبب عنه حجب الصفيقة " فالشاعر الذي يصلنا بالكون الكبير والحياة الطليقة من قيود الزمان والمكان، بينما هو يعالج المواقف الصغيرة واللمحظات الجزئية، والحالات المنفردة هو الشاعر الكبير النادر."<sup>(٢)</sup>

لقد صنع ابن المعتز من تشبيهاته في هذا السبيل لوحات فنية مترفة أخاذة. وهل هناك أجمل من زورقه الفضلي المتقل بحمولة العنبر، يقول في الهلال:

انظر إليه كزورق من فصة قد أثقلت حُمولة من عنبر<sup>(٣)</sup>

" إن الزورق ينطبق على الهلال في الشكل واللون، والعنبر يتطابق في اللون مع الليل والنسبة العقلية بين الهلال والليل تتوافق توافقا منطقيا مع النسبة المقترحة بين العنبر والزورق."<sup>(٤)</sup>

(١) الديوان، (١٧٠/٢)، المعارف.

(٢) النقد الأدبي: أصوله ومناهجه، سيد قطب، (ص: ٥٨).

(٣) الديوان، (٥٩١/٢)، بغداد.

(٤) الصورة الفنية، د. جابر المصغور، (ص: ٢٠٢).

وهل هناك ترف أكثر من تشبيه الهلال بمنجل من فضة يحصد

نرجسا من زهور الظلام:

انظر إلى حسن هلال بدا يهتلك من أنواره الخندسا  
كمنجل قد صيغ من فضة يحصد من زهر الدجى كرجسا<sup>(١)</sup>

أو اللطف من طوق العروس المجلو على غلائل سود:

وهلال السماء طوق عروس بات يجلى على غلائل سود<sup>(٢)</sup>

أو أيرع من تشبيهه لنصف القمر كما فى قوله:

في قمر مسترق نصفه كأكلة مجرقة العطر<sup>(٣)</sup>

واضح أن هذه التشبيهات تعكس ذوق ابن المعتز الثري المستمدة

من واقعه الخاص الذى يمد بهاء، ومن مظاهر الحضارة الجديدة من حوله.

وشاعرنا مفتون بالهلال حتى ولو كان هلال آخر الشهر فيشبهه

بسوار من العاج ولكنه يعطى صورة غريبة كل الغرابة. لصباح آخر

الشهر فيقول:

في ليلة أكل المحاق هلالها حتى تذى مثل وقف العاج

والصبح يطلو المشتري فكأنه غريان يمشي في الدجى بسراج<sup>(٤)</sup>

يطلق الدكتور مصطفى الشكعة على هذه الصورة قوله: "ليست

هذه صورة غريبة وحسب، وإنما هي صورة فيها شعوذة وفكاهة وإضحاك

(١) الديوان، (٦٠٥/٢)، بغداد.

(٢) نفسه، (٥٦٦/٢).

(٣) نفسه، (٥٨٢/٢).

(٤) الديوان، (٥١/٢)، المعارف.

ولنا أن نتمثل الصبح وكأنه عبد عريان أسود يمسك بيده سراجا يستكشف به طريقه.<sup>(١)</sup>

ويصف ابن المعتز الشمس ولكن في يوم غائم، وهي تحاول جاهدة أن تظهر ولو بجزء ضئيل منها، ولكن السحابة كانت أقوى منها بكثير. تحاول وتحاول ولكنها لا تستطيع ولذلك فلم يجد ابن المعتز شيئا لها إلا

العنين الذي يريد أن ينكح بكرا بالذات. تشبيه غريب وعجيب. يقول:  
تَظَلُّ الشَّمْسُ تَرْتَفِقُنَا بِلُحْظٍ مَرِيضٍ مُدْتَفٍ مِنْ خَلْفِ سِتْرِ  
تَحَاوُلُ فَتَقْ غَيْمٌ وَهُوَ يَأْتِي كَعَيْنَيْنِ يُرِيدُ نِكَاحَ بَكْرٍ<sup>(٢)</sup>

وابن المعتز لم يكن معجبا بالهلال والشمس فقط بل السماء وما اشتملت عليه كانت مهبط إلهامه، ومصدرا واسعا من مصادر فنه فانطلق انطلاقا واسعا وراء رقعتها، وجهد أن يعرض ما اشتملت عليه عرضا دقيقا فائقا ولكنها سماؤه هو، فالثريا فيها فصوص من لجين أو حقائق من الدر أو غصن من النور، والنجوم در على بساط أزرق أو رؤوس قدار ركبت في معاجر، أو وجوه عذارى في ملاحف سود. أو كوحدان النرجس الندي المتطلع من رياض البنفسج. يقول في الثريا:

كان الثريا والظلام يلفها فصوص لجين قد أحاط بها سيج<sup>(٣)</sup>  
أو يقول:

(١) الشعر والشعراء في العصر العباسي، (ص: ٧٨١).

(٢) المصون في الأنب، لأبي الحسن العسكري، تحقيق: عبد السلام هارون، (ص: ٤٣-٤٤).

(٣) الديوان، (٥٣/٢)، بغداد.

كان الثريا على صدرها      حقائق من الدر في مرمز  
حسين المقوط فأنبتها      يشبه الماس من غير<sup>(١)</sup>

أما النجوم فيقول فيها:  
وكان أجرام النجوم لوامعا      دُرَّرَ بُرْنٌ على ساطِ أُرْقِي<sup>(٢)</sup>  
أو يقول:

والتجَمُّ في اللَّيْلِ التَّهيمُ تَحَالُهُ      عَيْنًا تُخَالِسُ غَفْلَةَ الرُّقْبَاءِ<sup>(٣)</sup>  
" فالنجم الذي يومض متحددا دياجير الليل في كبرياء وشموخ  
يتخلله الشاعر عينا خاتفة تخشى عيون الرقباء فتختلس النظرة في جبين  
وتردد."<sup>(٤)</sup>

أو هذه الصورة الجمالية والتي يبدو فيها النجم راكضا والصبح في  
أثره يطارده وكأنه يطلبه بثأر:

ونجْمُ اللَّيْلِ يركضُ في الدِّياجِي      كانَ الصُّبْحُ يَطْلُبُهُ بِثَارِ<sup>(٥)</sup>  
ثم نراه يصور لنا ليلة مقمرة ولكن بماذا يصورها. يقول:  
هَلْ لَكَ فِي لَيْلَةٍ بَيضاءَ مُقْمِرَةٍ      كَأَنَّهَا فَصَّةٌ ذَاهِبَةٌ عَلَى التَّلْدِ<sup>(٦)</sup>

(١) الديوان، (٣٥٧/١)، طبعة دار المعارف.

(٢) الديوان، (١٨٧/١)، دار المعارف.

(٣) الديوان، (٤٩٥/٢)، طبعة بغداد.

(٤) بناء الصورة في البيان العربي: د. كامل مهدي البصير، (ص: ٤٨٤).

(٥) الديوان، (٢٩٠/٣)، طبعة بغداد.

(٦) الديوان، (٢٤٥/٢)، المعارف.

\* وإذا كان الليل يطول على العاشقين بحيث جعلهم يشكون هذا الطول في أساليب شتى منذ زمان امرئ القيس إلى اليوم، فإن ابن المعتز يعبر عن ذلك بصورة جديدة فريدة حين يقول:

أَقُولُ وَقَدْ طَالَ لَيْلُ الْقَمُومِ      وَسَامَرْتُ نَجْوَى فُؤَادِ سَقِيمِ  
تَرَى الشَّمْسُ قَدْ مَسَّخَتْ كَرَكِيَا      وَقَدْ طَلَعَتْ فِي عِدَادِ الشُّجُومِ<sup>(١)</sup>

ولنتأمل هذه اللحظة الجميلة إنها لحظة الغروب. لحظة دخول الليل على النهار حيث يبدأ الظلام من أسفل حتى يعم الكون فيبدو مسود الذوائب لأن السماء مازال فيها بقايا شمس تضيئها. كما أن سواد الليل يكون أكثر في جهة المشرق. فالشمس يحتضر نصفها ويبقى نصفها يجعل المغرب أحمرًا. إنها لحظة جميلة. لحظة وداع النهار واستقبال الليل أما صبح ابن المعتز فملك يفدى ويحيا. يقول:

وَكَا أَنْ الصُّنْحَ لَمَّا      لَأَخَ مِنْ تَحْتِ الثُّرَيَّا  
مَلِكٌ أَقْبَلَ فِي الثَّا      جَ يُفْلِدِي وَيُحَرِّثَا<sup>(٢)</sup>

أو قوله:

قَدْ أَغْتَدَى وَاللَّيْلُ فِي إِهَابِهِ      كَالْحَبَشِيِّ مَالٍ عَنْ أَصْحَابِهِ  
وَالصُّنْحُ قَدْ كَشَفَ عَنْ أَلْيَابِهِ      كَأَنَّهُ يَضْحَكُ مِنْ ذَهَابِهِ<sup>(٣)</sup>

يلقى الدكتور شوقي ضيف على هذه الصورة بقوله: "فإنك ما تلبث أن تستغرق في الضحك من هذا الحبشي أو هذا الوجه المستعار، بل إنه

(١) الشعر والشعراء، العصر العباسي. د. مصطفى الشكعة، (ص: ٧٥٢).

(٢) الديوان، (٣٢١/٢)، طبعة دار المعارف.

(٣) نفسه، (١١٣/٢).

لوجه حقيقي يعبر عن حقيقة مظلمة وراءه، ولكن سرعان ما يخلفه وجه آخر ضاحك هو وجه الصباح الجميل".<sup>(١)</sup> الذي يضحك سخرية من هذا الليل الغار.

أما الرياح فيصورها لنا في صورة خيالية رائعة، لا بد لها من خيال فنان حتى يعرضها على أنظارنا فيبدو لنا هذا العناق الغريب، يقول:

وزوبعة من نبات الرياح      تريك على الأرض شيئاً عجب  
تضم الطريد إلى نحوها      كضم الغب من لا يحب<sup>(٢)</sup>

أو هذه الصورة الهادئة للرياح والتي يتذكر فيها ابن المعتز ذلك المنظر الكريم الرفيق الذي طالما ألفه من حواضنه وهن يجذب أطراف ثيابه لإيقاظه من نومه، غير صائحات به ولا مزعجات له. يقول:

والريح تجذب أطراف الرداء كما      أفضى الشفيق إلى تبيه وسان<sup>(٣)</sup>  
أما السحاب فلها مع الشاعر شأن. يقول:

ومؤقرة بتقل الماء جاءت      نهادي فوق أعناق الرياح  
فبانت لي لها سحاً ووبلاً      وخطلاً مثل أسواء الجراح  
كأن سماءها لما تجلت      خلل نجومها عند الصباح  
رياض تنفس خض لراءه      تفتح بينه كور الأقاح<sup>(٤)</sup>

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي، (ص: ٢٧١).

(٢) الديوان، (١٢٩/٢)، طبعة دار المعارف.

(٣) نفسه، (٢٩٤/١).

(٤) الديوان، (١٧٠/٢)، دار المعارف.

يعلق الدكتور مصطفى الشكعة على هذه الصورة بقوله: "إن الشاعر يخطط للوحته تخطيطاً بارعاً كأى فنان أصيل مستمكناً، فيأتي بالصورة المبتكرة حين يجعل السحابة المثقلة تنهادر في حركتها، أما المطر فطابعه السرعة متمثلة في السح والويل، فإذا ما انتهت معركة المطر والأرض. عاد ابن المعتز إلى رسم صورة أخرى أكثر شاعرية وأوفر رقة ويأتي بتشبيه معتزى رقيق يشبه فيه سماء الصباح الباكر بروضة بنفسج ندية، ويشبه النجوم بزهر الأقاح المنور في رحاب تلك الروضة".<sup>(١)</sup>

ويقول أيضاً في وصف المطر:

عدت مكررة للمزن فاحتجبت شمس فلم تعرف لها غيراً  
واغرورقت لانسكاب الماء دمعها فجاء تلج كورد أبيض نثراً<sup>(٢)</sup>

وبعد أن صعدنا إلى السماء لنستكشف ما فيها كواكب وآيات نعود إلى الأرض من جديد. لنعيش مع الإنسان الذي خلق الله له كل شيء وسخره له ذلك المخلوق الذي سواه الله تعالى بيده ونفخ فيه من روحه.. وأسجد له ملائكته..

إن النظرة السريعة في هذا المخلوق - فضلاً عن النظرة الفاحصة- لتقرر جمال هذا المخلوق دون تحفظ.  
هذا القوام الفريد، هذا التناسق بين الأعضاء، هذه المرونة في حركة كل عضو... المرونة والتكيف في حركة الأعضاء بعضها مع

(١) الشعر والشعراء في العصر العباسي، (ص: ٧٧٨).

(٢) المصون، تحقيق: عبد السلام هارون، (ص: ١٤٧).

بعض... هذا التناسق في العمل بين العقل والجسد... والروح... إنها  
مؤكدات لا تنتهي".<sup>(١)</sup>

كما نجد أن القرآن الكريم وضع لنا أن الحسن متوفر في خلق هذا  
الإنسان. فقال تعالى: "خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ  
صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ".<sup>(٢)</sup> ويقول "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ".<sup>(٣)</sup>

فالإسلام الذي هو العمود الفقري للحضارة. وجه الإنسان أن ينظر  
ويبصر في نفسه: "وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ"<sup>(٤)</sup> ليصل إلى براعة الخلق  
ودقة صنع الخالق والتأمل والاستمتاع بالنظر إلى هذا الحسن. وابن المعتز  
كغيره من الشعراء يشد جمال خلق الإنسان. فنراه يصل كل عضو في هذا  
الصنع الدقيق البديع المتناسق. فنراه يشدنا إلى جماله فيقول:

يَا حَيِّيًا مَلَا وَلَمْ أَسْأَلُ عَنْهُ أَنْتَ تَسْتَحِينُ الْوَفَاءَ فَكُنْهُ  
خَجِلَ الْوَرْدُ إِذْ رَأَى وَجَهَ مَنْ أَهْ وَأَهْ وَالْجُلُنَاؤُ أَعْجَلَ مِنْهُ<sup>(٥)</sup>

ويقول:

يَا مُفَرِّدًا فِي الْحُسْنِ وَالشَّكْلِ مَنْ ذَلُّ عَيْنِكَ عَلَى قَلْبِي  
الْبَدْرُ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى نَوْرُهُ وَالشَّمْسُ مِنْ نَوْرِكَ تَسْتَمْلِي<sup>(٦)</sup>  
ثم يصف أكثر فيصور لنا خده، وقده، وثغره، وطرفه. فيقول:

(١) الظاهرة الجمالية في الإسلام، (ص، ١٣٨).

(٢) سورة التين (الآية: ٣).

(٣) الآية (٤) من سورة التين.

(٤) الآية (٢١) الذاريات.

(٥) الديوان، (٤٢٧/١)، دار المعارف.

(٦) نفسه، (٤١١/١).



أَيُّ وَرْدٍ عَلَى غُدُودِ الْفَرَازِ أَيُّ مِيلٍ فِي قَدَّةٍ وَأَعْيَادِ  
 أَيُّ دُرٍّ إِذَا تَبَسَّمَ يَدِيهِ هـ وَبِحَرِّ فِي طَرْفِهِ وَذَلَالِ  
 هَذَا جَسَدٍ دَمْعٍ جَفَوِي وَهَذَا طَالَتْ عَلَى اللَّيَالِي<sup>(١)</sup>

ثم نراه يرجع هذا التصوير وهذه الدقة في الصنع لله سبحانه وتعالى:

يَا مُقَلَّةً أَدْنَيْتَ كَمَا دَنْفَتْ مَرَّتْ بِنَا سَنَحَةً وَمَا وَقَفَتْ  
 وَجَفَّتْهَا سَاحِرٌ لَيْقِيَنِي قَتَيْتُ مِنْ تَوْبَتِي أَلَّتِي سَلَفَتْ  
 رَأَى بَعَيْنٍ يَقْوَى بِلَحْظَتِهَا كَيْدَ لِبَابِلَيسَ كُلَّمَا حَقَفَتْ  
 وَلَسْتُ أُنْسَى فِي الْحَدِّ مَا صَنَعَتْ نُونَاتُ أَصْدَاغِهِ أَلَّتِي غَطَفَتْ  
 صُورَةَ اللَّهِ صُورَةً عَجَبًا إِنْ قِيلَ كَالْمَصْنُوعِ فِي التَّقَا أَنْفَتْ<sup>(٢)</sup>

أَوْ يَقُولُ:

حَسَنُكَ يَسْتَغْفِرُ الْقُلُوبَ لَكَ سُبْحَانَ بَارِيكَ كَيْفَ صُورَكَ<sup>(٣)</sup>

ومن هنا نستطيع أن نقول إن النظر في خلق الإنسان بتأمل وتدبر كآية لدقة صنع الله شيء جديد أتت به هذه الحضارة متأثرة بالقرآن الكريم في ذلك.

ومادمنا نتحدث عن الإنسان فيجدر بنا أن نتحدث عن أثر الحضارة على صورة المرأة، فإذا كان الشعر الجاهلي قد احتفظ لنا بصورة " المرأة المثال " أو الصورة المثالية للمرأة، وهي صورة لا تتعلق بامرأة

( ١ ) نفسه، ( ٤٨/١ ) .

( ٢ ) الديوان، ( ٣٢٨/١ ) .

( ٣ ) نفسه، ( ٣٩٩/١ ) .

بعينها، وإن وضعت لها الأسماء مما قد يوهم بأنها صورة لا امرأة معينة إلا أن عناصر هذه الصورة، تتواتر عند الشعراء وتسير على نسق واحد مما يجعل صورة المرأة في الشعر أقرب إلى أن تكون نسخا مكررة من أصل واحد، نحن لا نخفل الاختلافات اليسيرة في التعبير الفني عند الصورة، ولكن هذه الاختلافات، لا تمس جوهر الصورة الأساسي وعناصرها المميزة، فالوجه شمس يضيء الظلام والعينان لمهاة والجيد لظبي، والمهاة والظبي أم دائما أو الأسنان كالبرد أو البللور ويحيط بوجهها المضيء شعر كثيف فاحم وهي تماثل في رقتها ونقاء أديمها بيض النعامة والدرة التي يستخرجها الغواص. وهذه العناصر التي تتردد في الشعر القديم مما يشير إلى أن هذا الشعر يحاكي نماذج أقدم منه عهدا، وأمس رحما بالدين القديم الذي كانت تعبد فيه الشمس الأم، ونظائرها أو رموزها المقدسة<sup>(١)</sup>.

"فالشعراء على اختلافهم وتباين أمزجتهم الفنية، قد درجوا على رسم صورة مثالية للمرأة يستمدون عناصرها من البيئة الحيوانية، والكونية والنباتية وقيمون بين أطرافها المتنافرة وبين المرأة صلة ما"<sup>(٢)</sup>. وبالإضافة إلى هذه الصورة المثالية للمرأة نلاحظ أن الشعراء الجاهليين قد "وصفوا جمال المرأة الحسي فكانما كانوا يريدون أن تكون ماثلة أمام العيون فتسر برويتها وتنشرح النفوس بمنظرها وقد حاول الكثير

(١) الصورة في الشعر العربي: د. علي البطل، (ص: ٧٠).

(٢) الشعر الجاهلي، د. إبراهيم عبد الرحمن، (ص: ٢٣٥).

منهم أن يتتبع جسمها جزئية لجزئية لترى بجهالتها الكامل من ناصيتها إلى قدمها<sup>(١)</sup>.

وبعد هذا لن نذهب إلى ما ذهب إليه الدكتور علي البطل والدكتور إبراهيم عبد الرحمن إلى أن وجود الصورة المثل للمرأة ترجع إلى أصول دينية أسطورية - لن تناقش ذلك - ولكن الذي يريد أن يذهب إليه الباحث هو أن وجود صورة واحدة للمرأة في العصر الجاهلي وأن الشاعر يتناول هذه الصورة بطريقة حسية هو أن المرأة في العصر الجاهلي كانت لها وظيفة واحدة وهي أنها ضجيعة فراش ووعاء إنجاب. ولذلك فالشاعر يركز على أوصافها الحسية ليشده منظرها ويركز على وصف أعضائها الخصوية لأنها وعاء إنجاب " فالقوم كانوا ينظرون إليها - المرأة - كشيء خلقه الله ليتمتعوا به نوعا من المتاع كما خلقت الإبل والبغال والحمير ليركبوها وليتمتعوا بها نوعا من المتاع "<sup>(٢)</sup>.

لما بعد ظهور الإسلام نجد أن القرآن الكريم قد اعتمد على الصور الفنية في نسخ النظرة الجاهلية إلى المرأة متاعا وشيطانة ودخل بهذا في مسعى فكري وفني لتغيير ما في نفوس الرجال عامة والشعراء خاصة في هذا الباب.

ومما نؤكد هنا: أن القرآن الكريم قد عرض أنماطا من سلوك النساء تنوعت بين الصلاح والطهر والإيمان، وبين ما يقف على النقيض من هذا كله. مما يحق لنا أن نستنتج مطمئنين أن أي الذكر الحكيم لم تدع

(١) في تاريخ الأدب الجاهلي: د. علي الجندي، (ص: ٤١٥).

(٢) المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي الأول: د. عزيز فهمي، (ص: ٧٤).

إلى هجر موضوع المرأة في جوانبه الذاتية ولم ينبذه ظهريا فأتاح بذلك للشعر العربي المجال رحبا ليواصل التعبير بمضمون هادف ملتزم وبصور فنية جديدة تلائم هذا المضمون وتجسد عواطف الشعراء وانفعالاتهم إزاء المرأة زوجا وحبيبة <sup>(١)</sup>.

وإذا نظرنا إلى صورة نساء الجنة في القرآن وجدنا أن القرآن يدعو فيها إلى صيانة المرأة والحرص عليها وعدم التفريط فيها: فالقرآن قد شبه نساء الجنة، فقال: "فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِلَيْنَّ قَبْلَهُمْ وَلَا جُنَّ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان، كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ" <sup>(٢)</sup> وقال: "وَعَنَدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عَيْنٌ، كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ" <sup>(٣)</sup> وقال: "وَحُورٌ عَيْنٌ، كَأَنَّهُنَّ اللُّؤْلُؤُ الْمَكْنُونُ" <sup>(٤)</sup> فليس في الياقوت والمرجان واللؤلؤ المكنون لون فحسب، وإنما هو لون صافٍ حي فيه نقاء وهدوء، وهي أحجار كريمة تصان ويحرص عليها وللنساء نصيبهن من الصيانة والحرص، وهن يتخذن من تلك الحجارة زينتهن، فقربت بذلك الصلة واشتد الارتباط، أما الصلة التي تربطهن بالببيض المكنون فضلا عن نقاء اللون فهي هذا الرفق والحذر الذي يجب أن يعامل به كلاهما. أو لا ترى هذا الكن أيضا صلة تجمع بينهما وهكذا لا تجد الحس وحده هو الرابط الجامع. ولكن للنفس نصيب أي نصيب <sup>(٥)</sup>.

(١) بناء الصورة في البيان العربي: د. كامل مهدي البصير، (ص: ٣٦٨ - ٣٦٩).

(٢) سورة الرحمن، (الآيات: ٥٦ - ٥٧ - ٥٨).

(٣) سورة الصافات، (الآيات: ٤٨ - ٤٩).

(٤) سورة الواقعة، (الآيات: ٢٢ - ٢٣).

(٥) من بلاغة القرآن، د. أحمد بدوي، (ص: ١٩٣).

### الفصل الثالث

" كما نتبين وبوضوح أن من الأشياء ما كان خلقه ابتداء تعبيراً عن الحسن والجمال، فهذه هي الغاية منه، وتلك هي مهمته في الحياة".<sup>(١)</sup>  
 فإذا أضفنا لذلك تأثير الجمال الإنساني في صورته الظاهرة على النفوس الإنسانية وذلك من خلال هذا المشهد من قصة يرسف عليه السلام وهي قصة معروفة.

" وليست القصة بكاملها هي محور حديثنا فامرأة العزيز التي شغفها يوسف حياء، ليست هي المادة الموضوعية للدراسة، إذ أنها وقعت تحت مؤثرات عدة إضافة إلى الجمال... فهي نتيجة لخلطتها الدائمة به كانت على معرفة بأخلاقه وفضائله، كما كانت على معرفة من حسن تصرفه - فعرفت فيه الحسن ظاهراً ومعنى.

ولكننا نقف عند المأدبة التي أقامتها هذه المرأة بعد أن انتشر خبرها في الأوساط الراقية (!!) التي تصلها عادة أخبار قصور السادة، هذه المأدبة التي أقامتها في عملية دفاع عن النفس وإبداء للعذر.

وحضرت المدعوات، وقد أعدت لهن وسائل الراحة الكاملة ربما يتناسب مع قدرهن ومع مكانة القصر المضيف.. وأخذت كل واحدة منهن مكانها في المجلس، وأمامهم من الطعام أو الفاكهة ما يحتاج إلى السكاكين. وفي هذا الجو الفاره، وقد تجاذب النسوة أطراف الحديث... وجاء دور الطعام حيث كل سكينه بيد امرأة تستعين بها على قطع ما يحتاج إلى قطع..

(١) الظاهرة الجمالية في الإسلام، (ص: ١٤٤).

وفي جو من اللهو بالطعام واللهو بالحديث.. أمرت صاحبة القصر يوسف أن يخرج على النسوة، وكانت مفاجأة، مفاجأة غير متوقعة.. ولنترك الحديث لنشاهد هذه الجلسة من خلال التعبير القرآني الكريم: "وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا وَمَاتٌ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكَنًا وَقَالَتْ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ" (١) أكبرنه.. وقطعن أيديهن.. أجل، جرحن أيديهن، فقد شغلن حسن الطلعة عن أنفسهن وما في أيديهن وكان هذا التأثير عاما شمل الجميع.

ولئن كان حسن يوسف عليه السلام حسنا خاصا، فإن الأمر الذي نحب أن نلقت للنظر إليه هو أن القرآن سجل أثر ذلك الحسن على النفوس، وفي مشاهدة كانت هي المرة الأولى وكان عدد المشاهدات كثيرا، وكان الأثر كبيرا على النفوس جميعا (٢) ونستطيع مما تقدم أن نقول:

- ١- إن الإسلام حول صورة المرأة من وعاء إنجاب وضجيرة فراش في الجاهلية إلى زوجة وحبيبة.
- ٢- إن الله خلق في الإنسان حسا جماليا وسجل القرآن أثر الحسن على النفوس كما صورته على أنفص صوحيبات يوسف.
- ٣- إن من الأشياء ما كان خلقه ابتداء تعبيرا عن الحسن والجمال يقصد من ورائه مخاطبة الحس الجمالي في الإنسان.

(١) سورة يوسف، (الآيات: ٣٠ - ٣٣) .

(٢) إظهاره الجمالية في الإسلام: صالح أحمد الشامي، (ص: ١٥٣ - ١٥٤) .

## الفصل الثالث

وعلينا الآن أن نبين أثر القرآن على صورة المرأة في شعر ابن المعتز. فنجد بصور لنا امرأة مخاطبا حسنها الجمالي، فيقول:

كَيْسَتْ صُفْرَةً فَكَمْ فَتَنَتْ      مِنْ أَغْنَى إِذْ رَأَيْتَهَا وَغَقُولِ  
مِثْلَ شَمْسٍ فِي الْقُرْبِ تَنْحَبُ نَوْبًا      صَبَّغَتْهُ بِزَعْفَرَانِ الْأَمِيلِ  
وَكَأَنَّ الْمَسَاكِ يَمْسَحُ حَمْرًا      حِينَ تَجْرِبُهُ فَوْقَ نَعْرِ صَقِيلِ  
أَنْتِ يَا عَاذِلِي مَجْرِي أُولَى      رَبِّ فَرَقَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْعَدُولِ<sup>(١)</sup>

فجمال المرأة يفتن العيون والعقول:

ويقول أيضا يشده الجمال الأنثوي لفتيات أتراب يلعبن في روضة فيغطي جمالهن على جمال الروضة:

رَأَيْتُ أَتْرَابًا لَدَى رَوْضَةٍ      يَكْذُنُ بِأَلْوَدَافٍ يَسْقُطْنَ  
يَلْقَطْنَ وَرْدًا هُنَّ وَالْمُصْطَفَى      أَحْسَنُ ثَمًا كَنْ يَلْقَطُنَ<sup>(٢)</sup>

ولنستقبل هذه الزائرة التي أتتنا من (الفردوس) ومن في الفردوس؟ إنهن (حوريات الجنة). فإن لفظة الفردوس تصطدم في أذهاننا بحور العين وصورة الحور التي تعرفها ببضاء - حوراء العين - كواعب - أتراب وغير ذلك. ولكن كيف خرجت من الفردوس ونحن نعرف أنه لم يخرج من الفردوس إلا الشيطان لعصيانه وأدم لأنه أطاع الشيطان فأخطأ. فهنا نجد ابن المعتز ينتبه إلى ذلك ويأتي لنا (بلفظة آبهة أي هاربة يقول ابن المعتز:

وَزَائِرَةٌ تَسْمَعُ الْمَشَى طَارِقَةً      أَتَتْنا مِنَ الْفِرْدَوْسِ لَا شَكَّ آبِقَةً

(١) الديوان، (٤١٣/١).

(٢) نفسه، (٤٣٣/١).

إذا ما تَشَتَّ قَالَ لِلرَّيِّحِ قَدْهَا      كَذَا خَرَجِي الْأَغْصَانِ إِنْ كُنْتُ صَادِقَةً  
نأت فمللت العيش بعد فراقها      وقلت لنفسي أنت مني طالقة<sup>(١)</sup>

فنجد في هذه الصورة أن ابن المعتز في رأسه صورة الحور العين كصورة مثالية للمرأة فنجد زائرتة كما قلنا آتية من الفردوس كما يصور لنا انفعالاته بفراقها فنجده قد مل العيش والحياة بعد فراقها. إنها حبيبة والإيمان يتأثر بفراق حبيبه.

ومن الصور الجميلة بحسن منظرها. والتي يرسمها ابن المعتز

بريشة فنان مبدع. يقول:

نَضَّتْ عَنْهَا الْقَمِيصَ لَصَبَ مَاءٍ      فَوَرَّدَ خَدَّهَا قَرطُ الْحِجَاءِ  
وَقَابَلَتْ الْمَسَاءَ وَقَدْ تَعَرَّتْ      بِمَعْتَدِلِ أَرْقٍ مِنَ الْمَسَاءِ  
وَمَدَّتْ رَاحَةً كَالْمَاءِ مِنْهَا      إِلَى مَاءٍ عَتِيدٍ فِي إِنْشَاءِ  
فَلَمَّا أَنْ قَضَتْ وَطَرًا وَهَمَّتْ      عَلَى عَجَلٍ لِأَخْذِ لِلرَّدَاءِ  
رَأَتْ شَخْصَ الرَّقِيبِ عَلَى تَدَانِ      فَاسْتَلَتْ الظَّلَامَ عَلَى الضِّيَاءِ  
فَغَابَ الصُّبْحُ مِنْهَا تَحْتَ لَيْلٍ      وَظَلَّ الْمَاءُ يَقَطُرُ فَوْقَ مَاءٍ<sup>(٢)</sup>

جمال. ويطه في الحركة. وغفر وحياء.

فإن جمال المرأة أخذ اتجاه آخر غير ما كان عليه في الجاهلية فالشاعر هنا يحس الجمال فيصف هذا الإحساس ولا يصف الجمال مباشرة. يقول:

( ١ ) الديوان، ( ٣٩٢/١ )، دار المعارف.

( ٢ ) نفسه، ( ٣١٢/١ )



أَنبِرِي مَكَانَ الْبَدْرِ إِنْ أَفْلَى الْبَدْرُ      وَقُومِي مَقَامَ الشَّمْسِ مَا اسْتَغَرَّ الْفَجْرُ  
فَفِيكَ مِنَ الشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ لَوْنُهَا      وَلَيْسَ لَهَا مِنْكَ التَّبَسُّمُ وَالْفَهْرُ<sup>(١)</sup>  
فهي عنده أجمل من البدر والشمس هكذا يحسبها.

بل يا ليت القمر أو الشمس يحكيانها في جمالها إذن لخفف ذلك من  
همه وعذابه ولكنها تفوقهما بكثير:

حاشا لَشْرَّةِ بَلِّ طَوْبِي لِعَاشِقِهَا      لَوْ كَانَتْ الشَّمْسُ تُحْكِيهَا أَوْ الْقَمَرُ  
إِذَا لَكَانَ يُرَى فِي كُلِّ مَا حَلَلَتْ      شِبْهَ لَهَا فَيَقِيلُ الْهَمُّ وَالْفِكْرُ<sup>(٢)</sup>

كما نجد أن المرأة المصونة محفوظة مثل الحور العين. فيقول:  
عَدَنِي بِشَرِّ وَلَا أَلْهَاكَ فِي خُلُفٍ      فَرُبَّمَا نَفَعَ التَّعْلِيلُ بِالْكَذِبِ  
مَنْ لِي بِسَاكِنَةِ الْأَصْدَافِ مَنْ لُجَجِ      يَعُومُ غَوَاصُهَا فِي غَمَرَةِ الْقَطْبِ<sup>(٣)</sup>

كما نجده يركز على صدر المرأة "كواعب لُتْرَابَا". يقول:  
كَأَنَّ الرِّمَانَ فِي أَغْصَانِهِ      نَمُودَ أَبْكَارِهَا الْبَلَّاسِ<sup>(٤)</sup>

ويتحدث عن بياض الوجه وأحور العين:

أَيَا مَنْ وَجْهُهُ قَمَرٌ      وَفِي أَجْفَانِهِ حَوَرٌ<sup>(٥)</sup>

(١) اللديون، (٣٦١/١)، المعارف.

(٢) نفسه، (٣٦٣/١).

(٣) نفسه، (٣٢٢/١).

(٤) نفسه، (٣٦٩/١).

(٥) نفسه، (٣٥٩/١).

## الحضارة والتصوير الفني ٣٤٩

ومن هنا نستطيع أن نقول إن الإسلام غير صورة المرأة من ضجيجة فراش إلى سكن - من السكنة - يسكن إليها الرجل حتى قال ابن المعتز في زواج فاضل له:

أنا مُد صَارَ لي سَكَنٌ في شُرُوبٍ مِنَ الْحَزَنِ  
هَائِمُ الْعَقْلِ فِي نَهَا رِي وَلَيْلِي بِلا وَمَنْ<sup>(١)</sup>

وبعد أن تعرضنا لصورة المرأة نقف وقفه مع صورة ساقِي الخمر فإننا نلمح تشابها كبيرا بين صفات ساقِي الخمر الذي استخدمها الشعراء وصفات ساقِي الخمر في الجنة. أما ساقِي الخمر في الجنة فقد وصفه القرآن الكريم في معرض حديثه عن أهل الجنة: "وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنُورًا"<sup>(٢)</sup>، ويقول: "يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأَن لَّا لَفَؤٍ فِيهَا وَلَا تَأْيِيمٌ"<sup>(٣)</sup>

ومن هذه الآيات نستشف صفات ساقِي الخمر في الجنة فهم:

- ١- ولدان أي لا يؤثر فيهم السن في جمال وبهجة ونضارة.
  - ٢- مخصصون مملكون لأهل النعيم. ولذلك فالطاعة طبع فيهم.
- وإذا تأملنا في شعر ابن المعتز وغيره من شعراء العصر العباسي وجنناهم وصفوا سقاء الخمر بهذه الصفات أيضا.
- "فساقِي الخمر يجمع بين الحسن والملاحة والبهجة. يقول ابن المعتز:

(١) نفسه، (٤٢٩/١).

(٢) سورة الإنسان، (الآية: ١٩).

(٣) سورة الطور، (الآيتان: ٢٣ - ٢٤).

وَكَشَرَبُ الرِّاحِ مِنْ يَدَي رَشَا      بِخَيْرِ خَالٍ فِي الْحَدِّ مَنَكُوتِ  
قَدْ جُمِعَ الْحُسْنُ وَالْمَلَاخَةُ فِي      وَجْهِ مِنَ الْعَاشِقِينَ مَنُحُوتِ<sup>(١)</sup>

هذا الجمال لا يمله الإنسان بحيث لا يتمنى فراق الساقى يقول ابن

المعتر:

يطوف بما ظني من الأنسي شادن      له مقلدة في جفنه قتلت قتلا  
أبي لحظ عيني أن يفارق وجهه      كما أثبت الرامي على الغرض النبلا<sup>(٢)</sup>

كما نرى الساقى مطيعا للشاربين. يقول ابن المعتر:

وَسَاقٍ مُطِيعٍ لِأَحْبَابِهِ      عَلَى الرُّقْبَاءِ شَدِيدِ الْجَرَّةِ<sup>(٣)</sup>

أظن بذلك نجد تأثيرا لصورة ساقى الخمر كما وصفها القرآن.

على ساقى الخمر في الشعر.

(١) الديوان، (٢/ ٢٢٥)، طبعة دار المعارف.

(٢) نفسه، (٢/ ٢٩٤).

(٣) نفسه، (٢/ ٢٥٥).

وبعد أن طغنا مع أثر الحضارة على الصور الكونية والأرضية وغيرها يجدر بنا أن نقف عند أثر الدين الإسلامي على التصوير الفني، دين الحضارة التي ينتمي إليها ابن المعتز - رغم أن للدين أثر في الصور السابقة فهو يدفعنا دفعا للتأمل في كل ما حولنا ولكننا هنا نبحث في الصور التي أثر فيها الإسلام بطريق مباشر.

فلقد كانت الثقافة الإسلامية التي تربى عليها الشاعر مصدر ذخيرة وثراء للغة الشاعر وصوره. فجاء بالعديد من الصور التي تدل دلالة واضحة على أن الشاعر ينتمي للحضارة الإسلامية وليس لحضارة سواها. ولنتأمل هذه الصور التي تؤكد ذلك.

يقول يصف ناقته وهي تتقدم الركب:

وَنَاقَةٌ فِي مَهْمَةٍ زَمَى بِهَا هَمٌّ إِذَا نَامَ الْوَرَى سَرَى بِهَا  
فَهِيَ أَمَامَ الرِّكْبِ فِي ذَهَابِهَا كَسَطَرٍ بِسْمِ اللَّهِ فِي كِتَابِهَا<sup>(١)</sup>

فمتلما تتقدم "بسم الله" كل صور القرآن العظيم لا يتقدم عليها شيء، هكذا أيضا ناقه ابن المعتز تتقدم الركب، وهذا الكلام يدل على أنها ليست تتقدم الركب هذه المرة فقط بل تتقدم الركب على الدوام.

ولنتأمل قوله أيضا وهو يصف البرق في خفائه وظهوره:

فَكَأَنَّ الْبَرْقَ مُصْحَفٌ قَارٍ فَإِنْطَبَاقًا مَرَّةً وَإِنْفِصَاحًا<sup>(٢)</sup>

فتلاوة القرآن فرض على مسلم ومسلمة. وبهذا فإن المسلم إذا ما انتهى من قراءة القرآن وأطبقه، سرعان ما يفتحه للقراءة من جديد.

(١) الديوان، (٣١٢/١)، دار المعارف.

(٢) نفسه، (٤٦٧/١).

فالقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يفتح ويغلق إلى يوم القيامة، لأن كل كتاب ينتهي الإنسان من قراءته ربما يطويه إلى الأبد، أما القرآن الكريم إذا ما انتهى المؤمن من قراءته شرع في القراءة من جديد. ومن هنا كانت عظمة هذه الصورة.

وهذه الصورة إن دلت على شيء تدل على شدة إدراك ابن المعتز لأهمية تلاوة القرآن. ولنترك عبد القاهر الجرجاني يشرح لنا سر إعجابه بهذه الصورة. يقول: "لم ينظر الشاعر من جميع أوصاف البرق ومعانيه إلا إلى الهيئة التي تجدها العين له عن انبساط يعقبه انقباض، وانتشار يتلوه انضمام، ثم فكر في نفسه عن هيئات الحركات لينظر أيهما أشبه بها فأصاب ذلك فيما يفعله القارئ من الحركة الخاصة في المصحف إذ جعل يفتحه مرة ويطبقه أخرى ولم يكن إعجاب هذا التشبيه لك وإيناسه إليك لأن الشئين مختلفان في الجنس أشد الاختلاف فقط بل لأن حصل بإزاء الاختلاف اتفاق كأحسن ما يكون وأتمه فمجموع الأمرين شدة ائتلاف في شدة اختلاف حلا وحسن وراق وفتن".<sup>(١)</sup>

ولنتأمل هذه الصورة أيضا والتي يكون الروض فيها في أبهى أحواله، وكل شيء فيه جميل واضح، الأشجار غسلها مطر في الليل، ثم أنتها الشمس مع صباح صحو جميل فتظهر خضرة الأرض إثر ذلك. لم يرى الشاعر شيئا لهذه الصورة إلا المصحف، والمصحف المفسر في وضوحه وجلاله. يقول:

(١) لرسال البلاغة (من ١٣١ - ١٣٢).

وَالرَّوْضُ مَقْصُولٌ بِلَيْلٍ مُمَطَّرٍ      كَأَنَّ دَرَاهِمَهُ فِي مَنْشَرٍ  
أَوْ كَتَفَيْهِ مُصْحَفٌ مُفَشَّرٌ      وَالشَّمْسُ فِي إِصْحَاءٍ جَوْأٍ أَخْضَرٍ<sup>(١)</sup>

وهذه الصورة العجيبة التي يصور فيها حلقة سواد الليل بحيث لا يتخيل إنسان صورة أخرى لسواد الليل أبعد من ذلك، إنه يصوره بظلمة قلب الكافر. فهل شق قلب الكافر ورأى سواده ؟ بالطبع لا، ولكنه انطباع ديني. يقول:

كَمْ قَدْ قَطَعْتُ إِلَيْكَ مِنْ ذِمَّةٍ      تُطْفَأُ الْمِيَاهُ بِهَا سَوَادُ النَّاطِرِ  
فِي لَيْلَةٍ فِيهَا السَّمَاءُ مُرَبَّرَةٌ      سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ كَقَلْبِ الْكَافِرِ<sup>(٢)</sup>

وهذه الصورة، صورة رجل يسرع في صلاته أو صلاته بتعبير العلامة \* كنقر الغراب \* ثم يسجد سجدة طويلة بعد الصلاة، يصوره ابن المعتز بالوالع الذي يشرب بأطراف لسانه ثم يصوره في سجوده بالمزود المقلوب الذي لا يتحرك من مكانه. يقول:

صَلَاتُكَ بَيْنَ الْمَلَأِ نَقْرَةٌ      كَمَا اسْتَلَبَ الْجُرْعَةَ الْوَالِغُ  
وَتَسْجُدُ مِنْ بَعْدِهَا سَجْدَةٌ      كَمَا خُتِمَ الْمِرْوُذُ الْفَارِغُ<sup>(٣)</sup>

ولنشاهد معه هذه الصورة، صورة النجوم المتألئة في ليل حالكة، بماذا يشبهها ؟

يشبهها بالسنة الواضحة في عالم يموج بالبدع، أليست هذه صورة لا يتقنها إلا رجل متفقه في الدين. يقول:

( ١ ) الديوان، ( ١٢٧/٢ ).

( ٢ ) نفسه، ( ١٨٤/٢ ).

( ٣ ) الديوان، ( ٤٥٥/٢ )، طبعة دار المعارف.

وكانَ النجوم بين دُجَاه سُنَنٍ لَاحَ بَيْنَهُنَّ ابتداء

ثم نراه يصور لنا هذه الصورة التي تجعلنا نحس بالبرد يسير في أجسامنا حتى يصل العظام. فيجعلنا ننتفض ونرتعد فالماء لا يستطيع أحد أن يلمسه من شدة برودته ومن شدة الإحساس بالبرد أيضا. ويقدر البعد عن لمس الماء بقدر القرب من لمس الجمر. أظن تظهر أهمية الشمس هنا. الكل يحني لها القامة ويقدر لها منزلتها. يقول:

قد منع الماء من اللمس وأمكن الجمر من اللمس  
فلست تلقى غير ذي غدة أو مسلم يسجد للشمس<sup>(١)</sup>

ولكن كيف يكون مسلما وهو يسجد الشمس ؟ إن شدة البرد جعلته ينسى أن السجود لا يكون إلا لله فقط، فابن المعتز لا يكتفي فقط باستخدام المعجم الإسلامي في دلالته الأصلية ولكنه كما يقول الدكتور كامل حسين البصير: "إنه ينفخ في الحضارة المادية حتى الاختناق فقد جسد صورته الفنية تلك من مادة المعجم الإسلامي لونا من العبث وشطحة من المجون"<sup>(٢)</sup>

كما يقول في صورة خمزية:

وَمُدَامَةَ يَكْسُو الرُّجَاجُ شَعَاغَهَا كَاخِيطٍ مِنْ ذَقَبٍ إِذَا مَا سُئِلَتْ  
حُبِسَتْ وَلَمْ تَرَ غَيْرَهَا فِي ذَنْهَا فَتَقَطَّرَتْ مِنْ نَفْسِهَا وَتَحَلَّتْ  
فَدُجَاءَنِي بِكُؤُوسِهَا ذُو غُتَّةٍ صَامَتْ لَهُ صَوْرُ الْمَلِاحِ وَصَلَتْ<sup>(٣)</sup>

(١) نفسه، (١٨٩/٢).

(٢) بناء الصورة في البيان العربي، د. كامل مهدي البصير، (ص: ٤٧٧).

(٣) الديوان، (٥٤/٢)، طبعة بغداد.

" ففي هذه الصور التي نشم منها رائحة المدام ونسمع صور الملاح. وقد أسندت قاعلا للفعل صام والفعل صنى الذين يفيضان قنمسية وحرمة في أذهان الناس وحياتهم. ويقين أن هذه الصورة تنفر بناء ودلالة من الجو العام الذي يكتنف المقطوعة وتوميء إلى نشأة الشاعر الثقافية والشعرية متبرئ من فعلته مع مادتها اللغوية والشرعية ".<sup>(١)</sup>

كما تتجلى هذه البديهة أيضا في أن مخيلة الشاعر امتلأت بألفاظ من المعجم الإسلامي صور بها نزواته الذاتية. ومن ذلك قوله:

له مقلة ليست تفر فرارها      مسافرة عيارة اللحظات  
شكوت إليه بعض وجدي بحبه      وقلت له في السر والخلوات  
تصدق على المسكين منك بقبلة      فإني أراها أعظم الحسنات<sup>(٢)</sup>

" فلفظة ( تصدق ) تتضمخ بالروح القرآنية صياغة وتتشرب بالقيم الإسلامية دلالة في معجم الأتقياء والمؤمنين، بيد أن الشاعر يرحلها عن جذورها ويسلخ منها مفهومها الدال على طلب المعروف قولاً وعملاً، ويصور بها التماس القبلة أعظم حسنة في الدنيا "<sup>(٣)</sup>

فكثيرا ما يستخدم ابن المعتز هذا العبث وهو يغترف من المعجم الإسلامي. فلا عجب إذا رأينا حيطان داره راکعة ساجدة. أو قلمه يسجد في خشوع. يقول في كثرة المطر:

( ١ ) بناء الصورة، ( ص: ٤٧٦ ).

( ٢ ) الديوان، ( ٤٩/٢ )، طبعة بغداد.

( ٣ ) بناء الصورة، ( ص: ٤٧٥ ، ٤٧٦ ).



## الفصل الثالث

رَوَيْنَا قَمَا تَزْدَادُ يَا رَبُّ مِنْ حَيَاةٍ وَأَنْتَ عَلَى مَا فِي الثَّقُوسِ شَهِيدٌ  
سُقُوفُ بُيُوتِي صِرْنَ أَرْضًا أَدُوسَهَا وَحِيطَانُ دَارِي رُكَّعٌ وَسُجُودٌ<sup>(١)</sup>

ويقول في وصف قلم القاسم بن عبد الله:

أباه: قال ابن المعتز: الخفيف:

قَلَمٌ مَا أَرَاهُ أَمْ فَلَكَ يَجِبُ رِي بِمَا شَاءَ قَاسِمٌ وَيَسِيرُ  
عَاشِقٌ فِي يَدَيْهِ يَلْغَمُ قِرْطًا مَا كَمَا قَتَلَ الْبَاسِطُ شَكُورُ<sup>(٢)</sup>

وليس هذا فقط بل نواه يربط بين متناقضين الأول ربما يحرمه الدين والثاني يدعو إليه الدين فنراه يشبه ترجيع المزمар بتلاوة القرآن.

يقول:

كَأَنَّمَا الْمَزْمَارُ فِي تَرْجِيْعِهِ عَصَابَةٌ فِي الْفَجْرِ يَتَلَوْنَ الزَّمْرَ<sup>(٣)</sup>

أي عبث هذا.

كما يستخدم ابن المعتز الأحداث الإسلامية التاريخية أو الأخبار التي زودنا بها القرآن للعبارة في صوره الفنية، ألم يشبه أعداء محدثه بالزروع الحصيد وأنهم أصبحوا لا وجود لهم حتى أن أخبارهم صارت تروى كأخبار عاد وثمود. يقول:

فَلَقَدْ أَصْبَحَ أَعْدَاؤُكَ كَالزَّرْعِ الْحَصِيدِ  
ثُمَّ قَدْ صَارُوا حَدِيثًا مِثْلَ عَادٍ وَثَمُودِ<sup>(٤)</sup>

(١) الديوان، (١٧٢/٢)، مطبعة دار بغداد.

(٢) الديوان، (١٨٠/٢)، مطبعة دار بغداد.

(٣) الديوان، (٣٧٠/١).

(٤) الديوان، (٤٧٤/١)، مطبعة دار المعارف.

أو تصويره الغريب لقسوة الهوى عليه والذي يشبهه بامرئ من  
 أتباع علي بن أبي طالب يظنه من نجل اليزيد الذي قتل الحسين يقول:  
 فكان الهوى امرؤً علويًّا ظنُّ ألي وليت قتل الحسين!  
 وكأني لديه نجل زياد فهو يختار أوجع القتلين! (١)  
 ويقول أيضا مستخدما هذه الأحداث الإسلامية في صورته:  
 يا من تشاغل بالسُرو رِ عن القُودِ المبتلى  
 نظري إليك إذا رأيتك مُثبرا أو مُقبلا  
 نظرتُ ابنَ فاطمة الرضا ماءَ القُراتِ يكرهلا (٢)  
 فهو يشير إلى موت الحسين وهو ظمآن.

ومثلما استطاع ابن المعتز من توظيف الدين الإسلامي في صورته  
 الفنية نجده يوظف الحركة العلمية التي كانت موجودة في هذا العصر  
 لصورته أيضا. فتارة يشبه البرق بسطور مكتوبة بماء الذهب، وتارة يشبه  
 صدغي الساقى في انتفاخهما بقافين - حرف القاف - في طرفي سطر،  
 وتارة يشبه حجارة الموقد الثلاث بنقط حرف التاء، وتارة يشبه السقاة بين  
 الندامى باللفات على السطور قيام، أو كان كاس الندامى المكتظة بالشراب،  
 محايير وراقين مملوءة بالحبر. يقول في البرق:

أرقتُ ليرقٍ كثير الوميض ترامى غواربه في الشهب  
 كأنَّ تألقه في السماء سطورٌ كتبت بماء الذهب (٣)

( ١ ) الديوان، ( ٥٨٦/٢ )، طبعة بغداد.

( ٢ ) الديوان، ( ٤٨٠/١ )، دار المعارف.

( ٣ ) الديوان، ( ١٥٩/٢ )، دار المعارف.

ويقول في الساقى:

ظَلَّتْ بِمُلْهَى خَيْرِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ      تَدُورُ عَلَيْنَا الْكَأْسُ فِي فِتْيَةِ زُهْرٍ  
بِكَفِّ غَزَالٍ ذِي عِذَارٍ وَطَسْرَةٍ      وَصُدُغَيْنِ كَالْقَافَيْنِ فِي طَرْفِي سَطْرِ<sup>(١)</sup>

ويقول في حجارة الموقد الثلاثة:

عَرَجَ عَلَى الدَّارِ أَلْفِي كُنَّا بِهَا      تَغَيَّرَتْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِنَا بِهَا  
غَيْرَ ثَلَاثٍ لَمْ تَزَلْ تَشْقَى بِهَا      كَنَقَطِ النَّاءِ لَدَى كُتَابِهَا<sup>(٢)</sup>

ويقول في وصف السقاة:

وَكَاَنَّ السَّقَاةَ بَيْنَ التَّدَامِي      أَلْفَاتٍ عَلَى السُّطُورِ قِيَامُ<sup>(٣)</sup>

ويقول:

كَأَنَّ التَّدَامِي حِينَ كَطُّوا بِشَرِيَّةٍ      مَحَابِرَ وَرَاقِينَ قَدْ مَلَكْتَ حَيْرًا<sup>(٤)</sup>

كما يستخدم القراءة والكتابة في صورة رائعة. فيقول:

وَالطَّيْرُ يقرأُ وَالْقَدِيرُ صَحِيفَةً      وَالرَّيْحُ تَكْتُبُ وَالْغَمَامُ يَنْقُطُ<sup>(٥)</sup>

صحف وقراءة وكتابة.

ويقول أيضا مستخدما مصطلحات علم الكلام مثل الشك واليقين في

صفة للخمر:

مُعْتَقَّةٌ صَاغَ الْمِرَاجَ لِرَأْسِهَا      أَكَالِيلَ دُرٍّ مَا لِمَنْظُومِهَا سِلْكُ

(١) نفسه، (٢٦١/٢).

(٢) نفسه، (٢٣٠/١).

(٣) نفسه، (٣٠٨/٢).

(٤) نفسه، (٢٦٣/٢).

(٥) جوهر الكنز، لابن الأثير الحلبي، تحقيق: د. محمد زغلول سلام، (ص: ٦٤).

فَقَدْ خَفَّتْ مِنْ صَفْوِهَا فَكَّالُهَا      بَقَايَا يَقِينٍ كَاذٌ يُدْرِكُهُ الشَّلْكُ<sup>(١)</sup>  
ونلاحظ هذه الصورة القديمة الجديدة للثريا وهي تلمع، يشبه  
الشاعر بريقها بزئبق لامع يرجرج في وقواريره. يقول:  
كَأَنَّ الثَّرِيَّا هَوْدَجٌ فَوْقَ نَاقَةٍ      يَحْتُ بِهَا حَادٍ إِلَى الْغَرْبِ مُزَعَجٌ  
وَقَدْ لَمَعَتْ حَتَّى كَأَنَّ بَرِيقَهَا      قَوَارِيرُ فِيهَا زَيْتٌ يَتَرَجَّرُ<sup>(٢)</sup>  
أظننا بعد ذلك نستطيع أن نقول إن شعر ابن المعتز جاء تصويراً  
للحضارة التي ينتمي إليها. كما أن الحضارة وفرت له العديد من عناصر  
بناء الصورة فجاءت مؤثرة في شعره كل التأثير.

(١) نفسه، (ص: ٦٣).

(٢) الديوان، (١٤٤/٢)، طبعة دار المعارف.

---

## الذائمة

ويستطيع الباحث في النهاية أن يقول:

- إن حياة ابن المعتز توفر لها من الروافد الحضارية التي لم تتوفر لغيره من الشعراء ولذلك جاء شعره معبرا عن الحضارة الإسلامية في القرن الثالث الهجري أصدق تعبير.
- الجوانب المعنوية للحضارة الإسلامية ميزتها عن غيرها من الحضارات، ولقد ظهرت هذه الجوانب جلية واضحة في شعر ابن المعتز، فوجد في شعره ما يشير إلى الجوانب الإيمانية والعقيدة الإسلامية، وكذلك الأخلاق والسلوك المثالية التي أمرنا بها الإسلام واستطعنا كذلك من تصور الحركة العلمية الجبارة التي وجدت في هذا العصر.
- وكذلك وجد في شعره ما يدل على التسامح الديني في الإسلام والشورى والتضحية والدعوة إلى العمل.
- استطاع شعر ابن المعتز أن يصور لنا العديد من مظاهر الحضارة المادية من عمران وخدمات ومهن ولباس ومطعم وأعياد وحفلات ومجالس الأتس ووسائل اللهو والتجارة والزراعة وغير ذلك.
- كما كان للحضارة أثر في الموضوعات الشعرية فوجد الباحث من خلال شعر ابن المعتز أن الإسلام قد وضع قيما وسمات خاصة للشخصية الإسلامية أصبح الشاعر يفتخر بها ويمدح بها ويرثي بها ويهجو بتركها.

- اعتمد الشعر السياسي على الحجج والأدلة المنطقية متأثراً بالثقافات الأجنبية الوافدة وبما جاء في القرآن من الحجج الفقهية.
- كما تأثر شعر الحكمة بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية والتجارب الشخصية. وكان من أثر الحضارة على الغزل أن تغيرت الحبيبة من عربية محافظة إلى أجنبية مكشوفة الوجه تخالط الرجال وتجلس معهم وتغدو وتروح في عربية محافظة إلى أجنبية مكشوفة الوجه تخالط الرجال وتجلس معهم وتغدو وتروح في غير تحرج، هذا إن لم تكن مبتذلة تعيش في بيت من بيوت القيان ولذلك اكتشفت فجأة المجانية في العاطفة كما كان له أثر في ظهور الغزل الفاحش. كما وجد الغزل بالمذكر متأثراً بالأمم الأجنبية الوافدة.
- وكان للغناء أثر كبير على شعر الغزل فجاء الشعر في مقطوعات رفيقة العبارة سهلة الألفاظ.
- وكان من أثر الحضارة على الغزل أيضاً يسر المقابلة والتراسل بالصحف المكتوبة والإهداء بين المحبين.
- وأثرت الحضارة على شعر الخمر فوصف لنا الشعر كثرة أنواع الشراب وإقبال الناس عليه في غير تأثم، فلهج كثير من الشعراء - ومنهم ابن المعتز - بالخمريات وأكثروا من وصفها وأثرها على النفس وكذلك وصفوا أدواتها وكؤوسها وسقاتها ومجالس شربها. كما وجد في شعر الوصف وصف للمظاهر الحضارية الجديدة من وصف للقصور والرياض والبرك ومجالس الغناء والطرب. أما

شعر الطرد فقد تحول من وسيلة للارتزاق في الجاهلية إلى وسيلة للهو والتسلية.

- وكان من أثر الحضارة على البناء الفني للقصيدة أن تطورت المقدمات القديمة ووجدت مقدمات جديدة من وصف للقصور والطبيعة وذكر مجالس الخمر والغناء والغزل بالذكر.
- كما أثرت الحضارة على ختام القصيدة فظهر التناسب الدقيق بين الغرض من القصيدة والخاتمة.
- ارتقت الحضارة بالمشاعر والنفوس مما جعل القصيدة يسيطر عليها جو نفسي واحد فجاءت متماسكة مترابطة أكثر من ذي قبل.
- أثر الغناء في تنويع أوزان الشعر العباسي فأكثر الشعراء من استخدام البحور القصيرة والمجزوءة.
- كما أثر الغناء أيضا على القافية فشرعت بعض الأشكال الشعرية التي تخففت من سلطان القافية مثل المزدوجات الطويلة والمقطوعات الشعرية القصيرة.
- كما أكثر ابن المعتز من استخدام الموسيقى الداخلية من تكرار وتصريع، وجناس، وحسن تقسيم، وغيره.
- تأثر أسلوب الشعر بحياة الترف والغناء فجاء شعر ابن المعتز رقيقا سهلا.
- كما طعمت الحضارة ألفاظ الشعر بشيء مما كان شائعا في ذلك العصر من الألفاظ الأعجمية التي صارت تجري على ألسنة الناس



- كما ظهرت بعض الألفاظ العلمية كما كان للقرآن الكريم أثر كبير على أسلوب الشعر.
- ومن مظاهر الحضارة أيضا الاهتمام باستخدام البديع والذي وجد في شعر ابن المعتز ولكن في عفوية تامة.
  - كما كان للحضارة أثر بالغ على الصورة الشعرية، حيث استخدم ابن المعتز العديد من مظاهر الحضارة الجديدة في تركيب الصورة مازجا ذلك بما وجد في بيئته العامة والخاصة.
  - كان للقرآن الكريم أثر مباشر وغير مباشر على الصورة الشعرية. أما غير المباشر فظهر جليا في تغير نظرة الإنسان إلى نفسه وتحول المرأة من وعاء إنجاب وضجيرة فراش إلى زوجة وحبيبة. كما كان له الأثر في النظرة التأملية للكون والحياة. فأتسع مدارك الشعراء فجاءت صورهم وخاصة ابن المعتز دقيقة وجديدة.
  - كما استخدم ابن المعتز العديد من مظاهر الحركة العلمية في تركيب الصورة.

---

## المصادر والمراجع

**أولاً: المصادر العربية:**

- ١- أسرار البلاغة، الإمام عبد القاهر الجرجاني: تحقيق محمد رشيد رضا دار المعرفة، بيروت ١٤٠٢ هـ، ١٩٨٢ م.
- ٢- أشعار أولاد الخلفاء، أبو بكر الصولي- الجزء الأول - دار المسيرة، بيروت لبنان .
- ٣- الأعلام- خير الدين الزركلي، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٤٢ م.
- ٤- الأغاني- أبو الفرج على بن الحسين الأصفهاني. طبعة الشعب، طبعة دار الكتب المصرية (وزارة الثقافة والإرشاد القومي).
- ٥- الإيضاح في علوم البلاغة - الخطيب القزويني، شرح وتعليق: الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي - منشورات دار الكتاب اللبناني - الطبعة الخامسة، ١٤٠٠ هـ، ١٩٨٠ م.
- ٦- البديع- عبد الله بن المعتز العباسي، اعتنى بنشره المستشرق أغناطيوس كراتشوفسكي- منشورات دار الحكمة - حلبوني - دمشق.
- ٧- البيان والتبيين- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق السندوبي.
- ٨- تاريخ الخلفاء - جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة. الطبعة الثانية ١٩٥٢ م.
- ٩- تاريخ الطبري- تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف بمصر.

- ١٠- الديارات- أبو الحسن علي بن محمد الشافعي، تحقيق: كوركيس عواد، دار الرائد العربي، بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦ م.
- ١١- ديوان ابن الرومي- تحقيق: د. حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ م.
- ١٢- ديوان أبي نواس - تحقيق وضبط وشرح: عبد المجيد الغزالي- طبعة حركة مصر- القاهرة: ١٩٥٣ م.
- ١٣- ديوان أشعار الأمير أبي العباس - عبد الله بن المعتز بالله الخليفة العباسي تحقيق: د. محمد بدیع شریف، دار المعارف.
- ١٤- ديوان البحتري- تحقيق: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف ١٩٦٣ م.
- ١٥- زهر الآداب وثمر الألباب - الحصري القيرواني- مفصل ومشروح بقلم: زكي مبارك، دار الجبل - بيروت - لبنان.
- ١٦- الشعر والشعراء- ابن قتيبة، تحقيق أحمد شاكر، طبعة دار المعارف بمصر.
- ١٧- صبح الأعشى في صناعة الإنشا - أبو العباس القلقشندي - طبعة دار الكتب.
- ١٨- الصناعتين- أبو هلال العسكري- تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم: عيسى البابي الحلبي.
- ١٩- طبقات الشعراء- عبد الله بن المعتز العباسي، تحقيق: عبد الستار فراج، دار المعارف بمصر.

- ٢٠- العقد الفريد- لابن عبد ربه - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٥ هـ، ١٩٦٥ م، بيروت "أوقست".
- ٢١- العمدة في صناعة الشعر ونقده - ابن رشيق القيرواني- تحقيق: مفيد محمد قمحية. دار الكتب العلمية بيروت.
- ٢٢- عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي - دراسة وتحقيق، د.محمد زغلول سلام الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية.
- ٢٣- الفهرست، ابن النديم - مطبعة الرحمانية بمصر، ١٣٤٨ هـ.
- ٢٤- الكامل - علي بن أحمد بن أبي الكرم بن الأثير - الجزء السابع - دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧ م.
- ٢٥- مرآة الجنان وعبرة اليقظان- أبو محمد عبد الله بن أسعد اليافعي، منشورات مؤسسة الأعلى للمطبوعات. بيروت، لبنان.
- ٢٦- المصون في الأدب، أبو أحمد الحسن العسكري، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- ٢٧- معجم البلدان، ياقوت الحموي - مطبعة السعادة بمصر - الطبعة الأولى، ١٩٠٦ م، ١٣٢٤ هـ.
- ٢٨- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، عبد الرحيم بن أحمد العباس- تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر، ١٩٤٧ م.
- ٢٩- مقنمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، دار القلم، بيروت، لبنان.

- ٣٠- مروج الذهب، أبو الحسن علي بن الحسن المسعودي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة التحرير، ١٩٦٦م.
- ٣١- الموشح، أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني، تحقيق: علي محمد البجاوي- دار نهضة مصر.
- ٣٢- النجوم الزاهرة، جمال الدين أبو المحاسن يوسف ابن تغري بردي، للمؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، ١٩٣٢م.
- ٣٣- نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق: الدكتور: محمد عبد المنعم خفاجي مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.
- ٣٤- وفيات الأعيان - شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم ابن خلكان - تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٦٧هـ، ١٩٤٨م.
- ثانياً: المراجع العربية :**
- ٣٥- ابن الرومي، محمد عبد الغنى حسن، دار المعارف، الطبعة الرابعة، ١٩٧١م.
- ٣٦- ابن الرومي حياته من شعره، عباس العقاد، الطبعة الرابعة، القاهرة: ١٩٥٧م، ١٣٧٦هـ.
- ٣٧- ابن المعتز العباسي: د. أحمد كمال زكي. المؤسسة المصرية العامة- سلسلة من أعلام العرب.
- ٣٨- ابن المعتز العباسي صورة لعصره: د. سعد إسماعيل شلبي، دار الفكر العربي.

- ٣٩- ابن المعتز وراثته في الأدب والنقد والبيان: د. محمد عبد المنعم خفاجي مكتبة الحسين التجارية، الطبعة الأولى: ١٣٦٨هـ، ١٩٤٩م.
- ٤٠- أبو نواس وقضية الحدائث في الشعر: د. العربي حسن درويش، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧.
- ٤١- الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر: د. عبد القادر القط. مكتبة الشباب، سنة ١٩٧٨م.
- ٤٢- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري: د. محمد مصطفى هدار، المكتب الإسلامي- بيروت، طبعة أولى: ١٩٨١.
- ٤٣- الأدب والحضارة: د. السيد تقي الدين، دار نهضة مصر للطبع والنشر.
- ٤٤- الأدب والحضارة: د. نعمات أحمد فؤاد، دار المعارف، سلسلة كتابك: ١٩٨١م.
- ٤٥- الأدب وفنونه، د. عز الدين إسماعيل، الطبعة السابعة. دار الفكر العربي.
- ٤٦- أسس النقد العربي عند العرب: د. أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر- الفجالة، القاهرة.
- ٤٧- أضواء على الحضارة الإسلامية: أحمد عبد الرحيم السايح، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض.
- ٤٨- الالتزام الإسلامي في الشعر: وناصر عبد الرحمن الخنين، دار الأصالة للثقافة والنشر، الرياض ط١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م.

- ٤٩- أمراء الشعر العربي: أنيس المقدسي، الطبعة الخامسة عشر، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان ١٩٨٣م.
- ٥٠- الإنسان والحضارة في العصر الصناعي: د فؤاد زكريا، الطبعة الثانية. الناشر: مركز كتب الشرق الأوسط.
- ٥١- البغداديون أيام زمان: راسم الجميلي، الجزء الأول- بغداد .
- ٥٢- بناء الصورة الفنية في البيان العربي، موازنة وتطبيق: د. كامل مهدي البصير، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
- ٥٣- بناء القصيدة في النقد العربي القديم: د. يوسف حسن بكار دار الأندلس. بيروت- الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣م.
- ٥٤- تاريخ الأدب العربي: أحمد حسن الزيات، دار نهضة مصر الفجالة، القاهرة .
- ٥٥- التاريخ الإسلامي العام: د. علي إبراهيم، مكتبة النهضة ١٩٥٣م.
- ٥٦- تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري: د. نجيب محمد البهيبي. دار الثقافة- الدار البيضاء.
- ٥٧- التركيب اللغوي للأدب: د. لطفي عبد البديع، الطبعة الأولى النهضة المصرية. القاهرة، ١٩٧٠م.
- ٥٨- التصوير البياني: د. حفني شرف، مكتبة الشباب، سنة ١٩٧٠م.



- ٥٩- التعبير البياني- رؤية بلاغية نقدية: د. شفيح السيد، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي، ١٩٨٢.
- ٦٠- تفسير الألفاظ الدخلية في اللغة العربية: طوبيا القينسي- دار العرب- القاهرة ١٩٦١ م.
- ٦١- التفسير النفسي للأدب: د. عز الدين إسماعيل، الطبعة الرابعة، مكتبة غريب.
- ٦٢- التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول. منشورات وزارة الأوقاف والشئون الدينية. بغداد- العراق، الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ، ١٩٨٢ م.
- ٦٣- تيارات ثقافية بين العرب والفرس: د. أحمد الحوفي. الطبعة الثالثة، دار نهضة مصر- الفجالة، القاهرة.
- ٦٤- الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري: د. أحمد كمال نكي، دار المعارف، بمصر، سنة ١٩٧١ م.
- ٦٥- الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي القديم تاريخها وقضاياها: د. عثمان موافي، الطبعة الثانية: دار المعرفة الجامعية. ١٩٨٤ م.
- ٦٦- الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية: د. فاروق عمر، ط ٢ مكتبة المتنبي، بغداد، العراق، ١٩٧٧ م.
- ٦٧- دراسات في الأدب العربي، العصر العباسي: د. محمد زغلول سلام. الناشر: منشأة المعارف بالإسكندرية.

- ٦٨- دراسات في الأدب الإسلامي: د. منامي مكّي العائلي- المعارف، بغداد ١٩٦٨م.
- ٦٩- دراسات في الشعر الجاهلي: د. يوسف خليف، مكتبة غريب- القاهرة.
- ٧٠- الرؤيا المقيدة. دراسة في التفسير الحضاري للأدب: د. شكرى عياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨ م.
- ٧١- سامراء في أدب القرن الثالث الهجري: د. يونس أحمد السامرائي، مطبعة الإرشاد. بغداد، ١٩٦٨ م.
- ٧٢- شعر ابن المعتز، دراسة وتحقيق: د. يونس أحمد السامرائي، وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.
- ٧٣- الشعر الجاهلي. قضاياها الفنية والموضوعية: د. إبراهيم عبد الرحمن محمد، مكتبة الشباب، ١٩٧٩م.
- ٧٤- الشعر والشعراء في العصر العباسي، د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة.
- ٧٥- شعر الطبيعة في الأدب العربي: د. سيد نوفل، الطبعة الثانية. دار المعارف بمصر، ١٩٧٥م.
- ٧٦- الشعر وطوايعه الشعبية على مر العصور: د. شوقي ضيف
- ٧٧- الشعر العباسي التيار الشعبي: د. سعد إسماعيل شلبي، مكتبة غريب.

- ٧٨- الشعر العباسي الرؤىة والفن: د. مصطفى ناصف، مكتبة مصر.
- ٧٩- الصورة والبناء الشعري: د. محمد حسن عبد الله، دار المعارف، ١٩٨١م.
- ٨٠- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي: د. جابر أحمد عصفور، دار المعارف.
- ٨١- الصورة الفنية في شعر دجيل الخزاعي: د. على إبراهيم أبو زيد، دار المعارف، ١٩٨١م.
- ٨٢- الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري: د. على البطل، الطبعة الثالثة، دار الأندلس، بيروت ١٩٨٣ م.
- ٨٣- صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي: ميخائيل عواد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٨١م.
- ٨٤- الصيد والطرود في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثاني الهجري: د. عباس مصطفى الصالحي. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٤٠٢هـ، ١٩٨١م.
- ٨٥- ضحى الإسلام: أحمد أمين، دار نهضة مصر.
- ٨٦- ظهر الإسلام: أحمد أمين، دار نهضة مصر.
- ٨٧- الظاهرة الجمالية في الإسلام: صالح أحمد الشامي. الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي. بيروت- دمشق، ١٤١٧هـ، ١٩٨٦م.

- ٨٨- عبد الله بن المعتز العباسي: د. محمد عبد الكفرأوي: دار نهضة مصر.
- ٨٩- عبد الله بن المعتز أدبه وعلمه: عبد العزيز سيد الأهل، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥١م.
- ٩٠- العرب والحضارة: د. علي حسن الخربوطلي، دار نهضة مصر.
- ٩١- العصر العباسي الأول: د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر.
- ٩٢- العصر العباسي الثاني: د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر.
- ٩٣- عضوية الموسيقى في النص الشعري: د. عبد الفتاح صالح نافع، الطبعة الأولى. مكتبة المنار الأردن، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.
- ٩٤- العالم الإسلامي في العصر العباسي: د. حسن أحمد محمود، د. أحمد إبراهيم الشريف، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، ١٩٧٣م.
- ٩٥- العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجري: فهمي عبد الرازق سعد، الشركة الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣م.
- ٩٦- علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته: د. صلاح فضل. الطبعة الثانية- الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م.

- ٩٧- علم البديع: د. عبد العزيز عتيق- دار النهضة العربية ١٩٧٤م.
- ٩٨- العلوم والمعارف في العصر العباسي: أحمد ذكي صفوت، مطبعة الابتهاج، القاهرة.
- ٩٩- فصول في الشعر ونقده: د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر.
- ١٠٠- فن الشعر الخمري وتطوره عند العرب: إيليا حاوي، دار الثقافة- بيروت، لبنان، ١٩٨١م، ١٤٠١ هـ.
- ١٠١- فن الوصف وتطوره في الشعر العربي: إيليا حاوي، الطبعة الثانية. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠م.
- ١٠٢- الفن ومذاهبه في الشعر العربي: د. شوقي ضيف.
- ١٠٣- في الأدب العباسي: د. محمد مهدي البصير، مطبعة النعمان، العراق - الطبعة الثالثة - ١٩٧٠م.
- ١٠٤- في البنية الإيقاعية للشعر العربي: د. كمال أبو ديب، الطبعة الأولى. دار العلم للملايين، بيروت: ١٩٧٤ م.
- ١٠٥- في تاريخ الأدب الجاهلي: د. علي الجندبي، دار المعارف بمصر.
- ١٠٦- في النقد الأدبي: د. شوقي ضيف.
- ١٠٧- في النقد الأدبي عند العرب: د. محمد الطاهر درويش مكتبة الشباب- القاهرة.
- ١٠٨- في نقد الشعر: د. محمود التريبي- دار المعارف، ١٩٧٤م

- ١٠٩- قدامة بن جعفر والنقد الأدبي: د. بدوى طبائنة، الطبعة الثالثة، مكتبة الأنجلو المصرية.
- ١١٠- القصيدة العباسية، قضايا واتجاهات: د. عبد الله التطاوى، الطبعة الثانية- مكتبة غريب.
- ١١١- اللقافية في العروض والأدب: د. حسين نصار - دار المعارف بمصر.
- ١١٢- القيان والغناء في العصر الجاهلي: د. ناصر الدين الأسد. دار الجبل، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨م.
- ١١٣- معالم الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول: د. محمود نبيه حجاب، دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٧٣م.
- ١١٤- مقدمة القصيدة بين أبي تمام والمتنبي: د. سعد إسماعيل شلبي. مكتبة غريب.
- ١١٥- مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول: د. حسين عطوان- دار المعارف بمصر.
- ١١٦- المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي في العصر الأول: د. عزيز فهمي. تحقيق محمد قنديل البقلي، دار المعارف بمصر.
- ١١٧- من بلاغة القرآن: د. أحمد أحمد بدوي. دار نهضة مصر للطبع والنشر- القجالة، القاهرة.
- ١١٨- من حديث الشعر والنثر: د. طه حسين، دار المعارف. القاهرة.

### المصادر والمراجع

- ١١٩- من روائع حضارتنا: د. مصطفى السباعي. المكتب الإسلامي. بيروت.
- ١٢٠- من مباحث علم البيان: د. عبد الواحد علام: مكتبة الشباب. القاهرة.
- ١٢١- موسيقى الشعر: د. إبراهيم أنيس، الطبعة الرابعة، دار القلم بيروت.
- ١٢٢- مواقف في الأدب والنقد: د. عبد الجبار المطلبي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية.
- ١٢٣- ١٢٤- النقد الأدبي: د. أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- ١٢٤- النقد الأدبي، أصوله ومناهجه: سيد قطب، الطبعة الخامسة، دار الشروق، ١٩٨٣م.
- ١٢٥- النقد الأدبي الحديث: د. محمود غنيمي هلال، دار نهضة مصر للطبع والنشر.
- ١٢٦- الوسيط في الأدب العربي: أحمد الاسكندري، والشيخ مصطفى عناني، دار المعارف. ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.
- ثالثاً: المراجع المترجمة:**
- ١٢٧- تاريخ الأدب العباسي: نيولد. نكلش. ترجمة، د. صفاء خلوصي، الناشر: المكتبة الأهلية، في بغداد، ١٩٦٧م.
- ١٢٨- تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان. ترجمة، د. عبد الحليم النجار، الجزء الثاني. دار المعارف. الطبعة الخامسة.

- ١٢٩- تاريخ العرب: فيليب حتى، بالاشتراك مع د. جبرائيل حبيب وإدوار جرجي، دار غندور للطباعة والنشر، بيروت، ط١٦ ١٩٨٠م.
- ١٣٠- الحصار الإسلامي في القرن الرابع الهجري: آدم مئز، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريده. لجنة التأليف والترجمة والنشر. الطبعة الثالثة.
- ١٣١- حضارة العرب: غوستاف ليون، نقله إلى العربية، عادل زعيتر، طبع: عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- ١٣٢- الحضارة العربية: جاك. س ريسلر، ترجمة: غنيم عبدون مراجعة. د. أحمد فؤاد الأهواني، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- ١٣٣- الغزل عند العرب: ج. ك. قادية. ترجمة: الدكتور إبراهيم الكيلاني، منشورات وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية - الطبعة الثانية، ١٩٨٥ م.



# الفهرس

الصفحة	الموضوع	٣
٢١ - ٧	المقدمة	١
١٤٧ - ٢٢	الباب الأول: مظاهر الحضارة في شعر ابن المعتز	٢
٥٨ - ٢٢	الفصل الأول: حياة ابن المعتز في بغداد وأثرها في شعره.	٣
١٠٤ - ٥٩	الفصل الثاني: مظاهر الحضارة المعنوية	٤
٦٠	أولاً: الجوانب الإيمانية للحضارة الإسلامية	٥
٦٩	ثانياً: الأخلاق والسلوك	٦
٨٢	ثالثاً: العلوم والمعارف	٧
٩٤	رابعاً: التسامح الديني في الإسلام	٨
٩٧	خامساً: الجهاد في الإسلام	٩
١٠٠	سادساً: الدعوة إلى العمل	١٠
١٠٢	سابعاً: الشورى والنصيحة	١١
١٠٤	ثامناً: الرفق بالحيوان	١٢
١٤٧ - ١٠٦	الفصل الثالث: مظاهر الحضارة المادية	١٣
١٠٧	أولاً: المبانى والعمائر	١٤
١١٤	ثانياً: منافع وخدمات الدولة	١٥
١٢٠	ثالثاً: المهن والحرف.	١٦
١٢٥	رابعاً: الملابس	١٧
١٢٨	خامساً: الأطعمة	١٨
١٣٠	سادساً: الأعياد والمناسبات والحفلات	١٩
١٣٥	سابعاً: الموسيقى والقناء والشراب ووسائل اللهو والمرح	٢٠
١٤١	ثامناً: التجارة والزراعة ووسائل الانتقال	٢١
٢٥٩ - ١٤٩	الباب الثاني: الاستخدامات الفنية.	٢٢
٢٥٢ - ١٤٩	الفصل الأول: أثر الحضارة في الموضوعات الشعرية	٢٣
١٥٠	الفخر	٢٤
١٥٨	المديح	٢٥
١٧٠	الثناء	٢٦
١٧٩	الهجاء	٢٧

الصفحة	الموضوع	٢
١٨٧	الشعر السياسي	٢٨
٢٠١	المزدوجة التاريخية	٢٩
٢٠٧	شعر الحكمة	٣٠
٢١٤	الغزل	٣١
٢٢٧	الوصف	٣٢
٢٢٨	الخمير	٣٣
٢٤٢	وصف الطبيعة	٣٤
٢٤٦	الطرد	٣٥
٢٥٢	الألفاظ	٣٦
٢٥٩ - ٢٥٢	الفصل الثاني: أثر الحضارة في البناء الفني للقصيدة	٣٧
٢٥٩	مقدمة القصيدة	٣٨
٢٧٥	موسيقى الشعر	٣٩
٢٩٢	أسلوبه ولفته	٤٠
٣٠٦	البديع في شعره	٤١
٣٥٩ - ٣١٠	الفصل الثالث: أثر الحضارة في التصوير الفني	٤٢
٣٦٠	الخاتمة	٤٣
٣٦٥	المصادر والمراجع	٤٤
٣٨٠	الفهرست	٤٥